

مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية

سلسلة «الندوات»

الموريسكيّون في المغرب

الندوة الثانية

شفشاون

22-24 جمادى الثانية 1421

21-23 شتنبر 2000



مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية

سلسلة «الندوات»

الموريسكيّون في المغرب

الندوة الثانية

شفشاون

24-22 جمادى الثانية 1421

23-21 شتنبر 2000

أكاديمية المملكة المغربية

أمين السرّ الدائم الدكتور عبد اللطيف بربيش

أمين السر المساعد عبد اللطيف بنعبد الجليل

مدير الجلسات أبو بكر القادري

مدير الشؤون العلمية : أحمد رمزي

العنوان : شارع الإمام مالك، كلم 11، ص. ب. 5062

الرمز البريدي 10100

الرباط – المملكة المغربية

تليفون 75.51.13 (037) / 75.51.24 (037)
75.51.35 (037) / 75.51.89 (037)

فاكس 75.51.01 (037)

الإيداع القانوني 2001/0975

ردمك 9981-46-027-3

الآراء المعبّر عنها في هذا الكتاب
تلزم أصحابها وحدهم

مطبعة المعارف الجديدة - الرباط

سنة 2001

أعضاء أكاديمية المملكة المغربية

ليوبولدْ سيدار سَنْغورْ: السينغال.
هنْري كيسنجر: و.م. الأمريكية.
موريسْ دريون: فرنسا
نيل أرمسترونغ: و.م.الأمريكية.
عبد اللطيف بن عبد الجليل: المملكة المغربية.
عبد الكريم غلاّب: المملكة المغربية.
أوطو دو هابسْبورغ: النمسا.
عبد الرحمن الفاسي: المملكة المغربية.
جورج فوديل: فرنسا.
عبد الوهاب ابن منصور: المملكة المغربية.
محمد الحبيب ابن الخوجة: تونس.
محمد بنشريفة: المملكة المغربية.
أحمد الأخضر غزال: المملكة المغربية.
عبد الله عمر نصيف: م.ع. السعودية.
عبد العزيز ابن عبد الله: المملكة المغربية.
عبد الهادي التازي: المملكة المغربية.
فؤاد سزكين: تركيا.
عبد اللطيف بربيش: المملكة المغربية.
محمد العربي الخطابي: المملكة المغربية.
المهدي المنجرة: المملكة المغربية.
أحمد الضُّبيب: م.ع. السعودية.
محمد علال سيناصر: المملكة المغربية.
أحمد صدقي الدجاني: فلسطين.
محمد شفيق: المملكة المغربية.
لورد شالفونت: المملكة المتحدة.
أحمد مختار امبو: السينغال.
عبد اللطيف الفيلالي: المملكة المغربية.
أبو بكر القادري: المملكة المغربية.

جان بيرنار: فرنسا.
روبير امبروكَجي: فرنسا.
عز الدين العراقي: المملكة المغربية.
دونالد فريدريسكون: و.م.الأمريكية.
عبد الهادي بوطالب: المملكة المغربية.
إدريس خليل: المملكة المغربية.
عبّاس الجراري: المملكة المغربية.
بيدرو راميريز فاسكيز: المكسيك.
محمد فاروق النبهان: المملكة المغربية.
عبّاس القيسي: المملكة المغربية.
عبد الله العرْوي: المملكة المغربية.
برناردانكانتان: الفاتيكان.
عبد الله الفيصل: م.ع. السعودية.
ناصر الدين الأسد: م. الأردنية الهاشمية.
أناتولي كَروميكو: روسيا
جورج ماطي: فرنسا
كامل حسن المقهور: الجماهيرية الليبية.
إدواردو دي أرانطيس إي أوليفيرا: البرتغال.
محمد سالم ولد عدود: موريتانيا.
بّو شو شانغ: الصين.
إدريس العلوي العبدلاوي: المملكة المغربية.
ألفونصو دولاسيرنا: المملكة الإسبانية.
الحسن بن طلال: م. الأردنية الهاشمية.
فرنون والترز: و.م. الأمريكية.
محمد الكتاني: المملكة المغربية.
حبيب المالكي: المملكة المغربية.
ماريو شواريس: البرتغال.
عثمان العُمير: م.ع.السعودية.

كلاوس شواب: سويسرا.
إدريس الضحّاك: المملكة المغربية.
كمال أبو المجد: ج. م. العربية.
ميشيل جوبير: فرنسا.
مانع سعيد العُتيبة: الإمارات.ع.م.
إيف بوليكان: فرنسا.
شاكر الفحّام: سوريا.

عمر عزيمان: المملكة المغربية.
أحمد رمزي: المملكة المغربية.
عابد حسين: الهند.
أندريه أزولاي المملكة المغربية.
صاحب زاده يعقوب خان الباكستان
محمد جابر الأنصاري دولة البحرين
الحسين وكّاك المملكة المغربية

الأعضاء المراسلون

- ريشار ب. ستون: و.م.الأمريكية
- شارل سْتوكْتون: و.م.الأمريكية
- حاييم الزعفراني المملكة المغربية.

مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية

1- سلسلة «الدورات»

1- «القدس تاريخياً وفكرياً»، مارس 1981.
2- «الأزمات الروحية والفكرية في عالمنا المعاصر»، نونبر 1981.
3- «الماء والتغذية وتزايد السكان»، القسم الأول، أبريل 1982.
4- «الماء والتغذية وتزايد السكان »، القسم الثاني، نونبر 1982.
5- «الإمكانات الاقتصادية والسيادة الدبلوماسية »، أبريل 1983.
6- «الالتزامات الخُلُقية والسياسية في غزو الفضاء»، مارس 1984.
7- «حق الشعوب في تقرير مصيرها»، أكتوبر 1984.
8- «شروط التوفيق بين مدة الانتداب الرئاسي وبين الاستمرارية في السياسة الداخلية والخارجية في الأنظمة الديمقراطية »، أبريل 1985.
9- «حلقة وصل بين الشرق والغرب: أبو حامد الغزالي وموسى بن ميمون»، نونبر1985.
10- «القرصنة والقانون الأممي»، أبريل 1986.
11- «القضايا الخُلقية الناجمة عن التحكم في تقنيات الإنجاب» ، نونبر 1986.
12- «التدابير التي ينبغي اتخاذها والوسائل اللاّزم تعبئتها في حالة وقوع حادثة نووية»،يونيو 1987.
13- «خَصاص في الجنوب وحيرة في الشمال: تشخيص وعلاج»، أبريل 1988.
14- «الكوارث الطبيعية وآفة الجراد»: نونبر 1988.
15- «الجامعة والبحث العلمي والتنمية»: يونيو 1989.
16- «أوجه التشابه الواجب توافرها لتأسيس مجموعات إقليمية، دجنبر1989.
17- «ضرورة الإنسان الاقتصادي من أجل الإقلاع الاقتصادي لدول أوروبا الشرقية»، مايو 1990.
18- «اجتياح العراق للكويت ودور الأمم المتحدة الجديد»: أبريل 1991.
19- «هل يُعطي حق التدخل شرعية جديدة للاستعمار؟»، أكتوبر 1991.

20- «التراث الحضاري المشترك بين المغرب والأندلس»، أبريل 1992.

21- «أوروبا الإثنتي عشرة دولة والآخرون»، نونبر 1993.

22- «المعرفة والتكنولوجيا»، مايو 1993

23- «الاحتمائية الاقتصادية وسياسة الهجرة»، دجنبر 1993.

24- «رؤساء الدول أمام حق تقرير المصير وواجب الحفاظ على الوحدة الوطنية والترابية»، أبريل 1994.

25- «الدول النامية بين المطلب الديموقراطي وبين الأولوية الاقتصادية»، نونبر 1994.

26- «أيٌّ مستقبل لحوض البحرالأبيض المتوسط والاتحادالأوروبي؟»،مايو1995

27- «حقوق الإنسان والتشغيل بين التنافسية والآلية»، أبريل 1996.

28- «وماذا لو أخفقت عملية السلام في الشرق الأوسط؟»، دجنبر 1996.

29- «العَوْلَمة والهُوية»، ماي 1997

30- «حقوق الإنسان والتصرّف في الجينات»، نونبر 1997.

31- «لماذا احترقت النمور الأسيوية ؟»، ماي 1998.

32- «القدس أنقطة قطيعة أم مكان التقاء ؟»، نونبر 1998.

33- «هل يشكّل انتشار الأسلحة النووية عامل ردع ؟»، ماي 1999.

34- «فكر الحسن الثاني أصالة وتجديد»، أبريل 2000.

35- «السياسة المائية والأمن الغذائي للمغرب في بداية القرن الواحد والعشرين»، نونبر 2000. (مجلدان باللغة الفرنسية).

2- سلسلة «التراث»

36- «الذيل والتكملة»، لابن عبد الملك المراكشي، السفْر الثامن، جزءان، تحقيق محمد ابن شريفة، 1984.

37- «الماء وما ورد في شربه من الآداب»، تأليف محمود شكري الألوسي، تحقيق محمد بهجة الأثري، مارس 1985.

38- «مَعْلَمة الملْحون»، تصنيف محمد الفاسي، القسم الأول والقسم الثاني من الجزء الأول، أبريل 1986، أبريل 1987.

39- «ديوان ابن فَرْكون » تقديم وتعليق محمد ابن شريفة، ماي 1987.

40- «عين الحياه في علم استنباط المياه» للدمنهوري، تقديم وتحقيق محمد بهجة الأثري 1409هـ/1989.

41- «مَعْلَمة المَلْحون»، تصنيف محمد الفاسي، الجزء الثالث، «روائع المَلْحون» 1990.

42- «عمدة الطبيب في معرفة النبات»، القسم الأول والقسم الثاني، لأبي الخير الإشبيلي، حققه وعلق عليه وأعاد ترتيبه محمد العربي الخطّابي، 1411/ 1990.

43- «كتاب التيسير في المداواة والتدبير»، لابن زهر، حقّقه وعلّق عليه محمد بن عبد الله الروداني، 1991/1411م.

44- «مَعْلَمة المَلْحون»، تصنيف محمد الفاسي، الجزء الثاني، القسم الأول، «معجم لغة المَلْحون»، 1991.

45- «مَعْلَمة الملْحون»، تصنيف محمد الفاسي، الجزء الثاني-القسم الثاني وفيه «تراجم شعراء المَلْحون»، 1992.

46- «بغيات وتواشي الموسيقى الأندلسية المغربية »، تصنيف عز الدين بناني، 1995.

47- «إيقاد الشموع للذة المسموع بنغمات الطبوع »، لمحمد البوعصامي، تحقيق عبد العزيز بن عبد الجليل، 1995

48- «معلمة الملحون، مائة قصيدة وقصيدة في مائة غانية وغانية »، تصنيف محمد الفاسي، 1997.

49- «رحلة ابن بطوطة »، خمسة أجزاء، تحقيق عبد الهادي التازي، 1997.

50- «كنّاش الحائك»، تحقيق مالك بنّونة، مراجعة وتقديم عباس الجراري، 1999.

3- سلسلة «المعاجم»

51- «المعجم العربي-الأمازيغي» الجزء الأول، تأليف محمد شفيق، 1990.

52- «المعجم العربي-الأمازيغي» الجزء الثاني، تأليف محمد شفيق، 1996.

53-«الدارجة المغربية مجال تَوارد بين الأمازيغية والعربية» تأليف محمد شفيق، 1999.

54- «المعجم العربي-الأمازيغي» الجزء الثالث، تأليف محمد شفيق، سنة 2000.

4- سلسلة «الندوات والمحاضرات»

55- «فلسفة التشريع الإسلامي» الندوة الأولى للجنة القِيَم الروحية والفكرية،

56- «وقائع الجلسات العمومية الرسمية بمناسبة استقبال الأعضاء الجدد»، دجنبر1987 (من 1401هـ/1980 إلى 1986/1407)

57- «محاضرات الأكاديمية»، 1988(من 1403هـ/1983إلى1987/1407)

58- «الحرف العربي والتكنولوجيا»، الندوة الأولى للجنة اللغة العربية، فبراير 1408/ 1988.

59- «الشريعة والفقه والقانون»، الندوة الثانية للجنة القيم الروحية والفكرية 1989/1409.

60- «أسس العلاقات الدولية في الإسلام»، الندوة الثالثة للجنة القيم الروحية والفكرية 1989/1409.

61- «نظام الحقوق في الإسلام»، الندوة الرابعة للجنة القيم الروحية والفكرية، 1990/1410

62- «الثقافة الإسلامية والثقافة الغربية: الأخذ والعطاء»، الندوة الخامسة للجنة القيم الروحية والفكرية، 1991/1412.

63- «قضايا استعمال اللغة العربية»، الندوة الثانية للجنة اللغة العربية، 1993/1414.

64- «المغرب في الدراسات الاستشراقية »، الندوة السادسة للجنة القيم الروحية والفكرية، 1993/1413.

65- «الترجمة العلمية»، الندوة الثالثة للجنة اللغة العربية.....

66- «مستقبل الهُوية المغربية أمام التحديات المعاصرة»، الندوة السابعة للجنة القيم الروحية والفكرية، تطوان 1417 / 1997.

67- «هجرة المغاربة إلى الخارج»، الناظور 1419 / 1999.

5- سلسلة مجلة «الأكاديمية»

68- «العدد الافتتاحي»، وفيه سرد لوقائع افتتاح جلالة الملك الحسن الثاني للأكاديمية يوم الإثنين 5 جمادى الثانية عام 1400هـ، الموافق 21 أبريل 1980م.

69- «الأكاديمية» العدد الأول، فبراير 1984.

70- «الأكاديمية» العدد الثاني، فبراير1985.

71- «الأكاديمية» العدد الثالث، نونبر 1986

72- «الأكاديمية» العدد الرابع، نونبر 1987.

73- «الأكاديمية» العدد الخامس، دجنبر1988.

74- «الأكاديمية» العدد السادس، دجنبر1989.

75- «الأكاديمية» العدد السابع، دجنبر 1990.

76- «الأكاديمية» العدد الثامن، دجنبر 1991.

77- «الأكاديمية» العدد التاسع، دجنبر 1992.

78- «الأكاديمية» العدد العاشر، شتنبر 1993.

79- «الأكاديمية» العدد 11، دجنبر1994.

80- «الأكاديمية» العدد 12، سنة 1995.

81- «الأكاديمية» العدد 13، سنة 1996.

82- «الأكاديمية» العدد 14، سنة 1997.

83- «الأكاديمية» العدد 15، خاص بالموريسكيين في المغرب، سنة 1998.

84- «الأكاديمية» العدد 16، سنة 1999.

85- «الأكاديمية» العدد 17، سنة 2000.

الفهرس

تقديم

نظمت أكاديمية المملكة المغربية بمبادرة من لجنة التراث التابعة لها، ندوتين في موضوع «الموريسكيّون في المغرب». وكانت الندوة الأولى قد انعقدت بمدينة شفشاون يومي 29-30 ذي القعدة 1417 موافق 7-8 أبريل 1997، وقد نشرت الدراسات والأبحاث المقدمة أثناءها في عدد خاص من مجلة «الأكاديمية» العدد 16.

ونظراً لأهمية الموضوع، ورغبة في تعميق البحث وتقصي هذا الجزء الهام من تاريخ المغرب، وأملاً في الكشف عن الجوانب الخفية وإظهار الوثائق المخزونة، فقد عقدت الأكاديمية (لجنة التراث) الندوة الثانية في الموضوع نفسه وفي المدينة نفسها، يومي 22-24 جمادى الثانية 1421 موافق 21-23 شتنبر 2000.

وتولى إدارة الندوة العضو الزميل الأستاذ أبوبكرالقادري بعد عرض تمهيدي قدمه العضو الزميل الأستاذ محمد بنشريفة رئيس لجنة التراث.

حضر هذه الندوة أعضاء الأكاديمية والخبراء الجامعيون المدعوّون الأساتذة محمد حجّي والحسين بوزينب وعبد المجيد القدّوري من كلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة محمد الخامس بالرباط، والأستاذ محمد بنعزّوز حكيم، الباحث والمؤلّف لعدّة كُتب في الموضوع، والأستاذة ميلودة الحسناوي من كلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة عبد الملك السعدي بتطّاون، والأستاذ أحمد بوشرب من كلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة

الحسن الثاني بالدار البيضاء، والأستاذ إسماعيل العثماني، الباحث بمديرية الوثائق الملكية.

وتعدُّ إسبانيا الطرف الآخر المَعني بهذا الموضوع، لذلك دعَت الأكاديمية لحضور هذه الندوة باحثين إسبانيين هما الأستاذة لويزا إيزابيلْ الْڤاريزْ دي طوليدو، والأستاذ دانييلْ كونْياطْ سيراً.

وقد أثبتنا في هذا الكتاب وقائع هذه الندوة الثانية التي تشتمل على بحوث أعضاء الأكاديمية والخبراء، وكذلك المناقشات المفتوحة التي شارك فيها أعضاء الندوة والحاضرون من جمهور المثقّفين والجامعيّين ممن رغبوا في تناول الموضوع من وجهة نظرهم.

الجلسة الافتتاحية الرسمية

خطاب افتتاح أعمال الندوة

أبوبكر القادري
مدير الجلسات

السيد عامل صاحب الجلالة، السيد رئيس المجلس البلدي، السادة المُنتخَبين، السادة أعضاء أكاديمية المملكة المغربية والسادة الأساتذة الخبراء، حضرات السادة والسيدات،

اسمحوا لي، بداية، أن أعبّر لكم بالأصالة عن نفسي ونيابة عن الزميل البروفسور عبد اللطيف بربيش أمين السر الدّائم وكافة الزملاء أعضاء أكاديمية المملكة المغربية عما يخالجنا من سعادة وسرور بوجودنا للمرة الثانية في رحاب مدينة شفشاون الجميلة العريقة، وبين أهليها الذين يُعرف عنهم الاهتمام الفائق بالفكر والثقافة. وأنتهز هذه الفرصة كذلك لأتوجه بخالص الشكر وعميق الامتنان، على ما لقيناه من ترحيب بعقد هذه الندوة بين ظهرانيكم من لدن جميع المسؤولين ورجال السلطة والمثقفين والأساتذة والمنتخبين.

إن وجودنا في هذه المدينة الجميلة الجذابة يذكرنا بماضينا الحافل، وبالدور الذي قامت به أسرة بني راشد، في عهد مؤسسها ورئيسها رحمه الله وما بعده.

لقد أدت أسرة بني راشد دورا حضاريا هاما طوال قرن كامل، كان في طليعته الدفاع عن حوزة البلاد، ومقاومة الأجنبي الدخيل، ونشر الثقافة العلمية والفنية، التي بقيت إشعاعاتها، تهدي الأبناء والأحفاد مثل ماهدت الآباء والأجداد.

وإنني أيها الأحباب - وأنا جالس أمامكم أرى أمامي هذه الوجوه المشرقة من أبناء هذه المدينة الجميلة التي تذكرني بصفوة شابة من المثقفين الشفشاونيّين، عرفتهم وخالطتهم وتعاونت وإياهم في المجال العلمي والثقافي والوطني، فزادتني مخالطتهم معرفة، لا بما يتحلون به من ثقافة وذوق فني فحسب، ولكن باخلاقهم المثالية، وصداقتهم الصادقة.

ولا غرو أن يكونوا كما ذكرت، فهم ينتمون نسباً أو طريقة إلى جدهم الخالد الذكر والمربي الكبير، الولي الصالح مولاي عبد السلام بن مشيش، فلنحمد الله أن جمعنا في هذه المدينة، بهذه الصفوة المختارة بمناسبة هذه الندوة التي تعقدها أكاديمية المملكة المغربية في موضوع (الموريسكيون في المغرب).

لقد أحسّت لجنة التراث التابعة للأكاديمية بأن موضوع الموريسكيين في المغرب موضوع هام وواسع لم تستطع حلقة واحدة أن توفيه حقه الكامل، وتستوعب كل جوانبه، فكان من الضروري عقد هذه الحلقة الثانية.

من المؤكد أن أعمال الحلقتين ستُحفِّز الباحثين على مواصلة الاهتمام بهذا الموضوع حتى تكتمل معرفتنا العلمية به وبأدقّ تفاصيله. ومن الواجب علينا في هذا المقام أن نتوجه بعبارات التقدير الفائق للخبراء الذين

يشاركون معنا في هذه الحلقة الثانية بعد أن شاركوا مشاركة قيمة في الحلقة الأولى، فقد أبانوا عن علم غزير ودراية واسعة بالموضوع. ولا بد لنا أن نشير بأن الحلقة الثانية من ندوتنا هاته تتميز بحضور زميلين باحثين من اسبانيا وهما الخبيرة الأستاذة لويزا إيزابيل القاريز دي طوليدو والخبير الأستاذ دانييل كونياط سيرا وإننا إذ نشكرهما على تلبيتهما دعوة الحضور معنا نرحب بهما غاية الترحيب ونؤكد لهما أننا نتطلع لاسهامهما الذي سيُغني ولا شك أعمالنا.

شَكَر الله لكم جميعاً اهتمامكم العلمي والوطني بهذه الندوة، ونرجو أن نكون بها وبغيرها، مما تنظمه أكاديميتنا، عند حسن ظن راعيها الهمام مولانا الإمام أعز الله أمره جلالة الملك محمد السادس حفظه الله وأبقاه ذخراً وملاذاً للمغرب، وشدّ عَضُدَه بشقيقه صاحب السمو الملكي الأمير السعيد مولاي رشيد وحفظه في سائر أفراد الأسرة الملكية الشريفة، إنه سميع مجيب، والسلام عليكم ورحمة اللّه تعالى وبركاته.

خطاب رئيس لجنة التراث
في الأكاديمية

السيد محمد بنشريفة

بسم الله الرحمن الرحيم

السيد عامل صاحب الجلالة، السيد رئيس المجلس البلدي، السادة المُنتخَبين، السادة أعضاء أكاديمية المملكة المغربية والسادة الأساتذة الخبراء، حضرات السادة والسيدات،

ها نحن نعود إلى شفشاون ونحن نردّد المثل العربي العود أحمد! نقولُهُ مرتين مرة لأننا نعود إلى هذه المدينة ذات التاريخ الحضاري الزاهر والبُعْد الثقافي الحافل التي استقبلتنا في سنة 1997 بحفاوة بالغة ما زلنا نذكرها فنشكرها حيث لقينا يومئذ عناية خاصة مشكورة من المسؤولين الإداريين والممثلين المنتخبين، فكان لذلك ولهواء المدينة العليل وفضائها الجميل، وطابعها المنسجم مع الموضوع أبلغ الأثر في نجاح ندوتنا الأولى عن المورسكيين في المغرب، وزاد في نجاحها الإقبال الكبير على أعمالها، والحضور المستمر في جلساتها والمساهمة المثمرة في مناقشة أبحاثها من لدن عدد متميز من الأساتذة والطلبة الجامعيين، وإن كنا نأسف لضياع تلك المناقشات لأسباب تقنية، ولولا هذا لخلت الندوة من لولا.

وقد تداركنا الأمر في الأكاديمية فأخرجنا أعمال تلك الندوة الخالية من المناقشات في عدد خاص من مجلة الأكاديمية، أصبح الآن من المراجع المحسوبة في الموضوع.

وأما العود المحمود الثاني فهو عودنا إلى موضوع المورسكيين في المغرب، ذلك أنه عندما وجدنا ترحيباً ثانياً من عامل صاحب الجلالة على اقليم شفشاون ومن رئيس المجلس البلدي لعقد ندوة ثانية في شفشاون، فكرنا في الموضوع، فوجدنا أننا لم نتناول جميع جوانب المورسكيين في المغرب، وهي في الواقع جوانب عديدة لا يمكن تناوُلها كلُّها في ندوة واحدة ومن هذه الجوانب أو المحاور التي رأينا أن نقترحها على الأساتذة الزملاء لهذه الندوة الثانية ما يلي

1- أثر المورسكيين في تطوير الجيش المغربي.

2- أثر المورسكيين في الفلاحة والغراسة.

3- أثر المورسكيين في الحرف والصناعة.

4- أثر المورسكيين في العوائد والأعراف.

5- المورسكيون والجهاد البحري.

6- عمل المورسكيين في المخزن.

7- نشاط المورسكيين في جنوب المغرب (مراكش وأگادير).

8- قراءات وتلخيصات وترجمات للدراسات المكتوبة بلغات أجنبية.

وإنه ليسعدنا أن يشارك في هذه الندوة الثانية عن المورسكيين عدد من السادة الزملاء أعضاء الأكاديمية والسادة الأصدقاء الخبراء كما يسعدنا مساهمة شخصيتين من أهل الاختصاص من جيراننا وأصدقائنا

الاسبان هما السيدة لويزا إزابيل القاريز دي طوليدوا والسيد دانييل كونيات سيرا فشكراً للجميع على الاستجابة والمشاركة والحضور وشكراً مرة أخرى لعامل صاحب الجلالة والسيد رئيس المجلس البلدي ومرحباً بنا جميعاً في مدينة شفشاون على مائدة ثقافية نستحضر فيها ماضي أهل لنا عاشوا بالأمس في العدوتين وأصبحوا اليوم تراثاً مشتركاً بين الأمتين.

نسأله سبحانه أن يكلّل أعمال ندوتنا بالنجاح. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

خطاب السيد عامل صاحب الجلالة
على إقليم شفشاون

السيد أمين السر الدائم لأكاديمية المملكة المغربية، السادة أعضاء أكاديمية المملكة المغربية الأفاضل، السادة الأساتذة المحترمين، السادة المنتخبين،

انسجاما مع النهج الذي سارت عليه أكاديمية المملكة المغربية في تحقيق الأهداف السامية التي خطها لها راعيها جلالة الملك محمد السادس نصره الله، وبمناسبة احتضان مدينة شفشاون للحلقة الثانية من الندوة العلمية التي تنظمها أكاديمية المملكة المغربية، بموافقة ملكية سامية، حول موضوع «الموريسكيين»، يشرفني أصالة عن نفسي ونيابة عن سكان إقليم شفشاون، أن أرحب بكل المشاركين في هذه الندوة كما لا يفوتني أن أشكر أكاديمية المملكة في شخص أمين سرها الدائم البروفسور عبد اللطيف بربيش والسادة أعضاء الأكاديمية الحاضرين معنا اليوم على كل المجهودات التي بذلوها سواء خلال الندوة الأولى التي احتضنتها هذه القاعة في السابع من شهر أبريل 1997 أو خلال السّهر على تنظيم الندوة الحالية

وما تنظيم هذه الندوة إلا دليل على النجاح الكبير الذي عرفته الندوة السابقة وكذا الاهتمام البالغ الذي واكبها من طرف الخبراء والجامعيين والمثقفين وكل المتتبعين.

ويشكل اختيار مدينة شفشاون من طرف أكاديمية المملكة لاحتضان أشغال هذه الندوة حول الموريسكيين، اختيارا صائبا بكل المقاييس، نظراً لارتباط مدينة شفشاون التاريخي بالأندلس، إذ عرفت المدينة هجرة عدة أسر أندلسية واستقرارها بهذه المنطقة في حقب تاريخية متفرقة، الشيء الذي كان له تأثير مس مختلف مناحي حياة سكان المنطقة.

حضرات السيدات والسادة

لكي لا أطيل عليكم، وحتى أترك المجال للسادة الأساتذة الأفاضل والخبراء لتسليط مزيد من الضوء على موضوع الموريسكيين، من خلال العروض القيمة التي نحن جميعا متطلعون إليها، اسمحوا لي قبل أن أختم كلمتي هذه أن أجدد الشكر والترحاب بكل المشاركين الحاضرين الذين تحملوا مشاق السفر للمساهمة في هذه التظاهرة العلمية وإنجاح أعمالها أتمنى لهذه الندوة النجاح في تحقيق الأهداف المتوخاة منها، ووفقنا الله جميعا لما فيه خير هذه البلاد لنكون عند حسن ظن مولانا الهمام جلالة الملك محمد السادس نصره الله، والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

خطاب النائب الأول
لرئيس المجلس البلدي لمدينة شفشاون

السيد عبد السلام أفاسي العلمي

السيد عامل صاحب الجلالة، السادة الأفاضل الأساتذة أعضاء أكاديمية المملكة المغربية والباحثين والخبراء، حضرات السيدات والسادة،

باسم سكان مدينة شفشاون وباسم المجلس البلدي للمدينة، أرحب بكم وأرحب بكل الضيوف الكرام الذين يشاركون في هذه الندوة الهامة وأتمنى للجميع مقاما طيبا بين ظهرانينا.

مرة أخرى تنتظم في مدينة شفشاون أشغال الجزء الثاني من ندوة "الموريسكيون في المغرب"، الندوة التي تنظمها لجنة التراث التابعة لأكاديمية المملكة المغربية حيث يشارك فيها أساتذة وخبراء من كلتا الضفتين بعدما عشنا جميعا مع الجزء الأول من الندوة في السنة الماضية حيث استمعنا إلى مختلف التدخلات، تدخلات الأساتذة والباحثين الذين اغنوا البحث والنقاش في هذا الموضوع الهام الذي يتعلق بالموريسكيين أو العرب المتنصرين، هذا الموضوع الذي يحتاج إلى أكثر من جلسة، لأن الرواية الإسلامية كما يقول الأستاذ محمد عبد الله عنان في «نهاية الأندلس» لم تخص تاريخ الأمة الاندلسية بعد سقوط غرناطة بكثير من عنايتها، ولم ينته إلينا عن تلك المأساة سوى رسائل وشذور يسيرة، بل لم

ينتـه إلينا سـوى القليل عن مـراحل التـاريخ الأنـدلسي الأخيـرة قبل سقـوط غرناطة...

وإذ نعتز في شفشاون باحتضان أشغال الجلسة الثانية للندوة، فإننا مرة أخرى ننوه بأكاديمية المملكة وبلجنة التراث على معالجتها لموضوع له أهميته الخاصة التي من شأنها أن تضع لبنات جديدة على درب إغناء التراث الحضاري والإنساني المشترك.

وبهذه المناسبة أتمنى للسادة الأفاضل الأساتذة الباحثين والخبراء، أتمنى أن يحالفهم التوفيق والنجاح كما حالفهم في الجلسة الأولى مشكورين.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

البحوث

حول مدْفن السُّلطان أبي عبد اللّه ابن الأحْمر آخر ملوك غرناطة

عبد الوهاب بنمنصور

أثارت سلسلة من المقالات كتبها في القرن الماضي المستعرب الفرنسي شارل بْروسْلار CH. Brosselar في (المجلة الأفريقية) La Revue Afri-caine بداية من عددها 14 الصادر في شهر دجنبر 1858 عدداً من الشكوك حول مدفن السلطان أبي عبد الله محمد بن أبي الحسن عليّ ابن الأحمر النصري ءاخر ملوك الأندلس المسلمين، بل وحول انتقاله إلى المغرب بالمرّة بعد أفول شمْس حُكمه بغرناطة ، فهذا العالم الذي كان أولّ حاكم إداري لتلمْسان بعد الاحتلال الفرنسي، وكان في نفس الوقت مستعرباً ومؤرّخاً ومن علماء الآثار شرع منذ تولّى إدارة المدينة وناحيتها يهتمّ بتاريخها ويكتبه بلغته الفرنسيَّة معتمداً على ما كتبه المؤرخون المسلمون وغيرهم، ومن أشهر كتبه في هذا الباب كتابه المسمّى «تاريخ بني زيان» أبناء عمّ بني مرين وأقرانهم، أما مقالاته المنشورة في «المجلة الأفريقية» فقد جمعها وطبعها فيما بعد مع إضافات في سفر قيمّ عنوانه «الكتابات العربيّة بتلمسان» Les Inscriptions Arabes de Tlemcen، وفي هذا الكتاب أثبت السيد بروسْلار كلّ ما نقل له مساعدوه من نصوص عربية مكتوبة أو منقوشة بجدران المساجد والمدارس وأخشاب الأضرحة والزوايا والمنابر وشواهد القبور، وهي مفيدة جداً لأنها تعرفنا بوفيات السلاطين والأمراء والعلماء

والأدباء وأسماء البُناة المشيّدين وتواريخ ما بنوا وشيّدوا، وتعيّن ما أوقفوا وحبسوا، لا سيما أعمال سلاطين المغرب بتلك الحاضرة كالسلطان أبي الحسن المريني وابنه السّلطان أبي عنان ومن سبقهم، ومآثرهم الخالدة بها كقرية المنصورة ومسجد سيدي الحلوي وضريح الشيخ أبي مدْيَن الغوث ودار السلطان أبي الحسن بقرية العُبّاد.

ومن النّصوص التي أثبتها في كتابه وترجمها إلى لغته نصّ شاهد قبر سلطانٍ اسمه أبو عبد الله تنطبق أوصافه ونعوته على ءاخر ملوك غرناطة المعروف تاريخيّاً وحقيقياً أنّه انتقل بعد رحيله عن غرناطة إلى المغرب وسكن بحاضرة فاس وأقبر بها بعد وفاته وهو في جيش الوطّاسيين يقاتل السعديّين في قصة مفصلة سنشير إليها فيما بعد، وقد أثار وجود شاهد هذا القبر والكتابة البيّنة المنقوشة فيه شكوك بْروسْلار فيما يذكره المؤرخون المسلمون من أن أبا عبد الله ابن الأحمر ءاخر ملوك غرناطة انتقل إلى المغرب وقضى ءاخر أيام حياته به ودفن فيه بفاس، فصار يؤكد - وله العذر أمام تلك الحجة البالغة - أنّ ءاخر سلاطين الأندلس انتقل من غرناطة إلى تلمسان وبها قضى أيام حياته الأخيرة ومات ودفن كما يدلّ على ذلك شاهد قبره، وتبعه في هذا القول عدد غير قليل من المؤرخين والباحثين الأوربيين وحتى المسلمين.

ومن رأيي أنّ المرء لا ينبغي أن يكون قاسياً على بْروسلارْ ومن تبعه فيما ذهب إليه، فالرّجل وقعت بين يديه وثيقة حيّة منقوشة على شاهد رخامي ثقيل لقبر سلطان ينطبق اسمه وألقابه وأوصافه على آخر ملوك غرناطة، فلا عجب أن ذهب ذلك المذهب وارتأى ذلك الرأي، سيما وأنّ أخبار الفترة الأخيرة من الحكم الإسلامي بالأندلس بقيت غامضة حتى ذلك الوقت، وأن الكتب الإسبانيّة التي اعتنت بها لم يكن بْروسلارْ قد اطلع عليها.

ولإزالة الغموض ورفع الالتباس والتماس العذر أيضاً لبْروسلارْ فيما أدّاه إليه اجتهاده يجب أن نلقي نظرة موجزة على تقلّبات الأوضاع السياسيّة بالأندلس في السنين الثلاثين التي سبقت سقوط غرناطة في أيدي المسيحيين.

فعندما توفّي السلطان سعد بن محمد بن يوسف النصري أواخر عام 868هـ (1463م) اقتسم حكم الأندلس ولداه علي بن سعد المكنّى بأبي الحسن، وأخوه محمد بن سعد المكنّى بأبي عبد الله والملقّب بالزّغل ، وكان أبو الحسن عليّ أكبر الأخوين معروفاً بالشجاعة والإقدام وسبقت له غزوات موفقة في أرض النصارى أيام حكم أبيه، وأما أخوه أبو عبد الله محمد بن سعد الزغل فكان لا يقلّ عنه حزماً وعزماً، ومن اعتداده بنفسه أنه شقّ عصى الطاعة على أخيه فاستبدّ بحكم مالقة التي كان والياً عليها بتأييد من هنري الرابع ملك قشتالة، فانقسمت الأندلس الإسلاميّة إلى شطرين متخاصمين، قسم يحكمه السلطان أبو الحسن وقاعدته غرناطة ، وقسم يحكمه أخوه أبو عبد الله الزغْل وقاعدته مدينة مالقة، واعترف الفريقان بالوضع القائم بعد أن لم يغن السيف في حسم الخلاف القائم بينهما .

وقد أثر هذا الانقسام تأثيراً كبيراً في قوة السلطانين الأخوين معاً وخفض معنويات السكان خفضاً كبيراً، بحيث لم يعودوا قادرين على شنّ غارات على الأراضي التي انتزعها منهم النصارى ولا حتّى على مواجهة الغارات التي يشنّها هؤلاء عليهم والتي كانت تنتهي كلّ مرّة بسقوط مدينة إسلامية في أيديهم أو ضياع حصن من حصونهم، بينما كان النصارى يزدادون مناعة وقوّة وعزماً على امتلاك البقية الباقية من أراضي المسلمين، سيّما بعد أن توحّدت المملكتان الإسبانيتان قشتالة وأراگون إثر زواج الملك فرْدينانْدو بن خْوان الثاني ملك أراگون بالأميرة إزابيلا أخت الملك هَنري الرابع ملك قشتالة سنة 1479م، وصارا يدعيان بالملكين الكاثوليكيّين.

وازدادت الحالة سوءاً في السلطنة الأندلسيّة المنقسمة على نفسها، وصار كلّ من سلطانيها يتودّد إلى الملكين الكاثوليكيّين ويقبل شروطهما، وتفاحش الخبال في غرناطة بسبب ضعف سلطانها أبي الحسن علي واستسلامه لفتاة نصرانيّة رائعة الحسن تزوّجها تسمّيها الرواية الإسلاميّة «ثريا» حتى أدّى الأمر إلى فرار ابنه أبي عبد الله محمّد الملقب بالزغيبي صحبة أمّه عائشة الحرّة من برج قمارش أمنع بروج قصر الحمراء، وظهوره فيما بعد بوادي ءاش ثمّ اقتعاده عرش غرناطة أواخر عام 887هـ بعد فرار أبيه أبي الحسن منها والتجائه إلى أخيه وعدوه القديم أبي عبد الله الزغل سلطان مالقة.

وهكذا صارت مملكة الأندلس الإسلامية في السنوات العشر المتقدمة على سقوطها خاضعة لسلطانين يشتهر كلاهما بلقب أبي عبد الله، أولهما أبو عبد الله محمد بن أبي الحسن علي بن سعد النصري الملقب بالزغيبي، وثانيهما عمّه أبو عبد الله محمد بن سعد الملقب بالزغل.

ويطول الحديث لو أردنا أن نتحدّث عما جرى بالأندلس خلال هذه الفترة القصيرة من حكم سلطانيها المذكورين، اعتماداً على ما كتبه المؤرخون المسلمون وما كتبه المؤرخون الإسبانيون، واستناداً أيضاً إلى النصوص والوثائق والروايات والشهادات التي ظهرت في القرون الأربعة الأخيرة والتي لم يكن مسموحاً بنشرها أو البوح بما فيها لأسباب دينيّة وأخرى سياسيّة خلال القرنين اللذين تلوا سقوط غرناطة لا نستثني من ذلك إلا الإشارة إلى أنّ الزغل سلطان مالقة جلس على عرش غرناطة أيضاً لما توفي أخوه أبو الحسن علي الملتجئ إليه، ووقوع ابنه أبي عبد الله الزغيبي أسيراً عند النصارى، لما تسهّله هاتان الإشارتان من فهم لما وقع فيه بروسْلار من خطإ حين ادّعى أنّ

ءاخر ملوك غرناطة لم ينتقل إلى المغرب ولم يمت فيه، وإنما سنكتفي بالإشارة إلى المصير الذي انتهى إليه كلّ واحد منهما.

فأمّا العمّ أبو عبد الله الزغل فإنه بعدما استولى الجيش المسيحي على مدينة بسطة سنة 1489م واستسلمت له مدينة ألمرية بعد ذلك بقليل وسار النصارى إلى وادي ءاش معقله الوحيد الباقي تحت حكمه حصل له يأس من المستقبل فذهب إلى معسكر ملك النصارى يعرض عليه طاعته والانضواء تحت لوائه، فأجابه فرديناندو إلى مطلبه وقبل بيعته وبيعة جميع رجاله، وعقد معه معاهدة سرية تضمن له ولأهله ورجاله فوائد وامتيازات، ولكن لم يمض إلا وقت قصير حتى أحسّ الزغل أنه يصعب عليه أن يحيى في ذلك الوضع المهين، فتنازل للملك فرديناندو عن تلك الفوائد والامتيازات مقابل مبلغ كبير من المال وجاز البحر إلى وهران ومنها انتقل إلى تلمسان حيث عاش فيها بقية عمره إلى أن أدركه الأجل فدفن بإحدى مقابرها ووضع على قبره شاهد من الرّخام هو الذي نقل بْروسْلارْ الكتابة المنقوشة عليه وجعلته تلك الكتابة يجزم بأنّ ءاخر ملوك غرناطة مات بتلمسان ولم يمت بفاس.

وأما ابن أخيه أبو عبد الله الزغيبي فإنّه لما ضاق نطاق الحصار الذي ضربه جيش الملكيْن الكاثوليكيين على غرناطة أجرى مفاوضات معهما انتهت يوم 21 محرم عام 897هـ/25 نونبر سنة 1491م بعقد معاهدة لتسليم المدينة تضمنت شروطاً عديدة بلغت 56 مادّة، وقد نقض الملكان الكاثوليكيّان تلك الشروط مادة مادة بعد استيلائهم على غرناطة في اليوم الثاني من يناير سنة 1492م/2 ربيع الأول عام 897هـ، كما ألحق بمعاهدة التسليم نصّ سرّي يتضمن الحقوق والامتيازات والمنح التي يمتّع بها السلطان أبو عبد الله الزغيبي وأفراد أسرته وحاشيته، وفي نفس اليوم الذي احتلّت فيه غرناطة خرج منها أبو عبد الله الزغيبي وسار بأهله إلى بلدة أندرش ليقيم فيها

تحت حماية ملك قشتالة وفي ظلّ ملكه، ثمّ وقعت في السنة التالية 1493م، مفاوضات أخرى في شأن رحيله عن الأراضي الإسبانية والعبور إلى المغرب، فتمّ الاتفاق على أن يرحل في موعد أقصاه نهاية شهر أكتوبر سنة1493 بعدما يتنازل عن جميع أملاكه للملكين الكاثوليكيين مقابل ثمن إجمالي قدره 21 ألف ريال قشتالي من الذهب الحر، وفي أوائل شهر أكتوبر عبر أبو عبد الله الزغيبي البحر من مرسى أدرة الصغير الواقع جنوبي برجة في سفينة كبيرة أعدت لجوازه، فنزل وأهله بمرسى مليلية، بينما عبرت حاشيته التي بلغ عدد أفرادها ألفا ومئة وثلاثين شخصاً من ميناء ءاخر ونزلت بمرسى غساسة المواجه لمليلية، ومن مليلية قصد أبو عبد الله ومن معه حاضرة فاس مقدّماً بين يديه لملكها السلطان محمد الشيخ الوطاسي رسالة اعْتذار بليغة من إنشاء وزيره وكاتبه محمد بن عبد الله العربي العقيلي سمّاها «الروض العاطرُ الأنفاس، في التوسّل إلى المولى الإمام سلطان فاس». ومع أن أبا عبد الله الزغيبي عاش بفاس في الأول عيشة رغيدة إذ يذكر أحمد المقري في كتابه «نفْحُ الطيب» أنه تجولّ بعد أكثر من قرن في القصور التي شيدها بها على الطراز الأندلسي فالظاهر أن أحواله ساءت بها في الأخير بسبب الفتن والمجاعات التي عرفها المغرب أواخر القرن التاسع الهجري وأوائل القرن العاشر، حتى أنه كان يسكن في الأخير في منزل بسيط، هو الدار الثانية الواقعة عن يسار الداخل لدرب القليلي من حومة الجزيرة بعدوة الأندلس، وأنه اضطرّ للانخراط في الجيش الوطاسي الذي حارب السّعديّين ببوعقبة على وادي درنة أحد روافد وادي العبيد، حيث قتل سنة 943 وهو يحارب، ونقل شلوه إلى فاس فدفن إزاء مصلّى العيد خارج باب الشريعة «باب المحروق» تاركاً ذرية انحدروا بعده إلى هاوية البؤس والخصاصة، ذكر أحمد المقري أنّه رءاهم عام 1037 معدمين يعيشون من أموال الصدقات.

من هذا العرض تبيّنا أنه كان من أسرة بني الأحمر النصريّين ملوك الأندلس الأخيرين سلطانان اثنان في زمن واحد يحمل الواحد منهما نفس الإسم الذي يحمله الآخر وينعت بنعوته ويتحلّى بحلاه، وأن أحدهما وهو أبو عبد الله الزغيبي ملك غرناطة الأخير دفن بفاس وأن عمّه أبا عبد الله الزغل ملك مالقة وبعضِ جهات الأندلس توفّي بتلمسان، وعثور بْروسْلارْ على الكتابة التي نقشت على شاهد هذا الأخير هو الذي رجّح عنده أنّ ءاخر ملوك غرناطة توفّي بتلمسان وأقبر، وليس بفاس.

البُعد المغربي في السياسة الإسبانية تجاه الموريسكيين منذ عهد أحمد المنصور

الحسين بوزينب

كانت الهجرات الموريسكية الى المغرب خلال القرن السادس عشر توحيها الوضعية الاجتماعية للموريسكيين وشعورهم بعدم الاستقرار بسبب ما كانت تصلهم من أخبار حول التخطيط لطردهم خارج البلاد. و سنجد في السنوات القريبة من تاريخ قرار الطرد النهائي بالخصوص خروج الأثرياء من الموريسكيين لضمان نقل أموالهم في هدوء بعيدا عن إجبار مفاجىء عن مغادرة البلد لا أحد كان يتصوّر شكله. و قد كان الاتجاه المفضل لأخذ طريق الهجرة في هذه المرحلة هو فرنسا، لأن الهروب مباشرة الى البلاد الإسلامية كان يعتبر جريمة. ومن فرنسا كان الموريسكيون يتابعون طريقهم نحو بلدان شمال إفريقيا وكان فيهم من فضل البقاء في فرنسا [1].

كان المغرب من بين الجهات التي كان يضعها الساسة الإسبان في الاعتبار أثناء تخطيطهم لطرد الموريسكيين من إسبانيا. ولكن ثقل المغرب لم يكن يصل إلى درجة التخوّف من تدخله بشكل يرعبهم نظراً لمعرفة الإسبان بدقائق الأمور المغربية وليقينهم أن الأوضاع الداخلية في بلدنا لم تكن تسمح بتدخل مهم خارج حدودنا. بينما نجد في نفس الفترة تخوفاً جدياً أمام الخطر الذي كان يظهر من الحدود الفرنسية حيث كان

الموريسكيون البلَنْسيون والأراغونيون ينسّقون مع الفرنسيين لمساعدتهم على اجتياح الأراضي الإسبانية [2]. وكان الأتراك يمثلون بدورهم خطرا ممكنا في مساعدة الموريسكيين يفوق الخطر الذي كان يمثله المغاربة (بالرغم من أن الإسبانيين كانوا يضخّمون الدور الذي يمكن أن يلعبه المغرب في هذا الصدد) [3].

والمغرب بقربه من إسبانيا ولاعتباره أرضا صالحة لاحتواء و إيواء الموريسكيين سنجده يبرز دائما في الوثائق الإسبانية كملجأ منتظر لهؤلاء الموريسكيين. فدور بلدنا إذاً في هذه المرحلة التاريخية ، وبالرغم من كل ما يمكن أن يقال في موضوع مساعدة الموريسكيين على ثورتهم ضد مضطهديهم من المسيحيين، في الحقيقة كان يظهر في عيون الإسبان كمكان مناسب لنهاية الموريسكيين (نوع من مقبرة لأحياء).

نظراً إلى ما ارتبط به الموريسكيون من علاقة متعدّدة الجوانب مع المغرب السعدي منذ بداية حكم هذه الدولة سنجد باستمرار صدى الوضعية السياسية المغربية تنعكس في المخططات التي كانوا يهيئونها وكذا في القرارات التي كانوا يتخذونها. هكذا وبالنظر الى ما اتسمت به العلاقات المغربية الاسبانية من خصوصية في الفترة السعدية الممتدة من عهد المنصور وما بعدها، ارتأينا أن نتطرق الى قضية الموريسكيين في خضم هذه العلاقات ونحاول فهم ما قام وما لم يقم به المغاربة في هذا الموضوع.

نجد المصادر المغربية القليلة التي تطرقت الى النقطة التي نحن بصددها مثل «تاريخ الدولة السعدية التكمدارتية» لمؤرخ مجهول تعطي لنا صورة معبّرة عن الموقع الذي كان يحتله الموريسكيون في البرنامج السياسي لهؤلاء السلاطين. لقد كان توافد الموريسكيين بأعداد مهمة على المغرب منذ أواسط القرن السادس عشر يجعل السعديين يفكرون في الاستفادة من

هذه الهجرة في مصالح داخلية، في حين كان فيه مشروع الموريسكيين غير ذلك [4] بحيث كانت نيتهم هي مواجهة النصارى الإسبان الذين أجبروهم عن الخروج من بلدهم. زيادة على هذا، فإن المغاربة سيتقاعسون عن مساعدة الموريسكيين عندما كانوا في أحوج الحاجة الى الوقوف بجانبهم، وذلك أثناء حرب البشرات الدامية، بسبب التوافق الاستراتيجي الذي حدث بين الإسبان وعبد الله الغالب [5].

إن أول سؤال يتبادر الى ذهن المهتم بتاريخ الموريسكيين هو لماذا لا نجد مبادرة من أحمد المنصور (وهو المنتصر في معركة وادي المخازن) لمدّ يد العون لهؤلاء الإخوان في الدين المغلوب على أمرهم ؟

إن المصلحة العليا للدولة la razón de Estado كانت تقتضي بطبيعة الحال لدى كلا الطرفين اتباع سياسة الحذر وعدم الزجّ بتلك المصلحة في متاهات لا تحمد عقباها إن وجود عدوّ مشترك لكل من الإسبان والمغاربة متمثل في الأتراك العثمانيين كان يجعل كل من أحمد المنصور و فليب الثاني يبينان لبعضهما البعض مهادنة ضمنية و توافقا في الرأي ضد العدو الذي كان يتربص بهما الفرص للانقضاض متى سنحت له بذلك. لنتذكر هنا أن الملك الإسباني كان يتطلع بشغف كبير الى الحصول من المغاربة على مرسى العرائش لوضع حد لعمليات القرصنة التركية وغيرها في المحيط الأطلسي. وكان المنصور الذي وعد بهذا التسليم يخاف من عواقب العملية إذا ماتمّ الإقدام عليها. وقد كان كل من الطرفين يلوّح للآخر بضرورة البقاء في تماسك ضد الأتراك، وكان الملك الإسباني يبين للمنصور أن تسليمه العرائش سيوطد صداقتهما وسيعزز مكانة هذا الأخير عنده [6]. فوسط كل هذا لم يكن لمسألة الموريسكيين الا أن تنتظر عهدا لن يأتي أبدا لتستأثر باهتمام السلاطين المغاربة. فما هي إذاً وضعية هذه القضية في هذا السياق؟

كانت المسألة الموريسكية تبدو وسط المعادلة السياسية المغربية الإسبانية مسألة جانبية الى حد ما، تستأثر بالاهتمام لدى الساسة الإسبان ولكنها لم تكن تقض مضجعهم. فقد كانت هناك أمور أخرى يحسب لها الحساب الدقيق كمسألة الأتراك العثمانيين مثلا. فرسالة دُوقِ مدينة سيدونْيا إلى فليب الثالث (7) المؤرخة في 24 مارس 1600 تضعنا في الصورة التي كانت عليها العلاقات بين المنصور وفليب الثالث وكذا المكانة التي كانت تحتلها المسألة الموريسكية وسط هذه العلاقات.

تقول الرسالة بعد ما تعرضت لجدوى بعث سفير أو مفاوض إسباني لدى أحمد المنصور، خصوصا بعد أن قرر الإسبان عدم إرسال السفير مرْتينْ دي أرياگا Martín de Arriaga «...يبدو حسب ما كتبه خوان دا مرتشانا Juan de Marchena (...) أن الشريف (أحمد المنصور) قد قبل بفرح و هو يرغب في ذهاب مرْتين دي أرياگا أو شخص آخر (...) وانني أعتبر أنه من مصلحة جلالتكم ومن الصواب أن لا يلغى ذهاب مرْتين دي أرياگا أو غيره. فنظرا الى أن الشريف يريد ويتطلع الى أن يشرف، يجب أن تشبع رغبته هذه. فبهذه الوسيلة سيستمال وسيكون هناك من سيخبرنا بدقة و انتظام بكل محاولاته ومحاولات عبد الكريم (بن تودة) وآخرين. إن جلالة المغفور له كان يرى من المناسب جدا أن يكون هناك شخص خاص بالقرب من الشريف. فبدون شك، قد استطعنا عبر هذه الوسيلة أن نجعله يتحاشى إعلان وقوفه بجانب الأنجليز والفرنسيين الذين ألحوا عليه في مساعدة النغل دون أنْطونْيو البرتغالي. وقد تمتع (الشريف) بحماية وظل صاحب الجلالة ضد نوايا الأتراك في محاولاتهم لمساعدة ابن مولاي عبد الملك. فهكذا ومن أجل البقاء معه على نفس الحظوة من قبل جلالتكم ضد الأتراك، وهو الأمر الذي يجعل الشريف في حيطة دائمة، قد يكون من المفيد أن يرسل شخص (إلى المنصور) وإنني أعتقد أن هذه وسيلة لإبعاد بعض الأشياء التي قد يحاول القيام بها عبد

الكريم وآخرون، لأن المغاربة يُقنعون وينسون بسهولة. أضف إلى ذلك أن الموريسكيين الموجودين هنا (في اسبانيا) سيقدمون على إنجاز أمورهم في تلك المناطق بحذر أكبر إذا كان هناك شخص خاص لجلالتكم يستطيع أن ينقل الأخبار زيادة على هذا فإنهم عندما سيرونه هناك سيفهمون أن جلالتكم ما زالت تساند الشريف و لم يفقد عنايتها، وهذا سيجعلهم يعيشون باحتراز أكبر إذا ما رأوا أن ذلك الملجأ غير مضمون... ».

يمكن أن نقول إن هذه هي الحالة العامة التي ستطبع علاقة المخزن السعدي بالقضية الموريسكية داخل إسبانيا خلال السنوات القلائل التي بقيت في حكم أحمد المنصور. ستردُ الأخبار إلى الإسبانيين عن تحركات الموريسكيين في اتجاه المغاربة لمساعدتهم على الانتفاضة [8] ولكن لم يكن لتلك التحركات أدنى تأثير على العلاقات المغربية الإسبانية ليقين الإسبان بأن المغاربة غير مهيئين لخوض مثل هذه المغامرات، كما كان لهم اليقين بأن الأتراك [9] لا يستطيعون الإقدام على مساعدة الموريسكيين للثورة ضد المسيحيين الإسبان.

اذا كان تدخل المغاربة في إسبانيا لمساعدة الموريسكيين قد استحال مع أحمد المنصور فكيف سيستطيعون القيام بذلك بعد موت هذا الأخير وظهور الانقسام بين أبنائه منذ اللحظات الأولى من رحيله.

لقد كانت التنبؤات - حسب أنطونيو دي شالْدانْيا - ترى في المولى زيدان، الذي أخذ الحكم في فاس مباشرة بعد موت أبيه، أنه سيكون هو «محرر وسيد ممالك غرناطة ومرسية وبلنسية، فطريف (بن مالك) الذي لم يملك الكنوز الهائلة والعساكر المدربة التي يملكها (زيدان) قد استطاع أن يغزو قلب إسبانيا بجنود لم يكن عددهم يفوق المائة ألف فرد، رغم كل ما كان يعتقده الناس من عدم تمكنه من ذلك [10]». هذا كلام كان ضروريا

لتغذية آمال الموريسكيين وقوادهم المنضوين تحت الألوية السعدية. ولكن ما هي درجة قناعة من يقوله ومن يسمعه؟ لقد جاءت هذه التصريحات في أول خطاب توجه به زيدان إلى الناس في فاس إثر موت أبيه مباشرة وبعد ما أغلقت كل أبواب المدينة، في وقت كان فيه كل قواد أحمد المنصور حاضرين داخل الأسوار(11)

إننا لن نجد في الكتابات والوثائق التي كتبت في السنوات الست التي تبعت موت أحمد المنصور أي نية أو مخطط للتدخل في صالح الموريسكيين الإسبان، وهو أمر بديهي بالنظر الى ما آلت اليه الأمور بين ورثة الملك الراحل. فسنجد زيدان يتراجع (حوالي 1609) عن وعده حتى لمساعدة بعض الموريسكيين المهجَّرين الذين أتوا اليه مرفوقين باليهودي سمويل بلاَتْشِي طالبين منه المساعدة بثمانية سفن وألفين من حملة البنادق للذهاب الى مالَقة والنزول في حي البِرْتشيل Los Percheles حيث خططوا لغزو المكان والسطو على الثروات وسبي السكان. وقد أعطى هؤلاء الموريسكيون لزيدان كل الضمانات بخصوص هذه المسألة ووعدوه بالربع من الغنائم إذا ما أتاهم بالسفن المطلوبة من هولندا وكذا بالأسلحة اللاّزمة لذلك (12).

يقول لنا خورْخي دي هانينْ الذي أورد هذا الخبر أنه اعتبارا للضرر الذي كان سيلحقه هذا الأمر بملكه (الإسباني) وسيده الطبيعي، ونظرا لخطر استرقاق العديد من المسيحيين، اتصل بأم مولاي زيدان وقال لها «سيدتي، إن الملك ابنك قد قرر تطبيق الاقتراح المعلوم وأنه أمر يمكن أن يتمخض عنه ضرر كبير. وقد بينت لها القوة الهائلة للملك الكاثوليكي لأخذ الثأر اذا ما ألحق الضرر المذكور وأن له (مع المغرب) حدوداً كثيرة يستطيع أن يضايقه منها وأن الضروف غير مواتية لإعطاء الفرصة لجار قوي جدا. وقد أرضيتها بهذا و بمبررات أخرى فوعدتني بأنها ستصرف (عزم) الملك عن هذه المحاولة.

وفي اليوم الموالي حملت الرسائل المكتوبة الى الممالك (المتحدة) بالصيغة التي كان قد أمرني المولى زيدان (كتابتها) وذلك من أجل توقيعها. فأجابني أنه راجع المسألة المقترحة من لدن الموريسكيين و سمويل بلاتشي وظهر عدم مناسبتها له»[13].

إن زيدان الذي كان على بينة تامة من الفرق الهائل الموجود بين امكانيات قواته وإمكانيات قوات ملك إسبانيا كان عليه أن يعطي جوابا مباشرا أو غير مباشر لمن كان ينتظر منه تدخلا ما لمد يد المساعدة للموريسكيين المغلوب على أمرهم في إسبانيا، خصوصا في اللحظات القاسية التي كانوا يعيشونها في تلك الأيام التي كانت فيها آلة الطرد المسيحية قد تحركت و بدأت تقذف بالآلاف منهم في الشواطىء المغربية والمتوسطية بوجه عام. لنتذكر هنا ما أورده أنطونيو دا شَالْدانْيا عن زيدان وقت مبايعته ملكا على فاس حيث قال إن التنبؤات كانت تعلنه محرراً وسيداً لممالك غرناطة ومُرْسية وبَلَنْسية. إن الجواب المنتظر من زيدان لن يختلف في الشكل والمضمون عن ذلك التنبؤ الذي بدأ به ملكه. وهذه المرة سنعثر في مذكرة خورخي دي هانين على ما يمكن أن نعتبره جوابا على ما ينتظر من زيدان. تقول المذكرة «عندما كان المولى زيدان في مخيمه الملكي على بعد أربعة فراسخ من مراكش، أمر بإحضار أهم الفقهاء في تلك المدينة. وفي المساء بعد غروب الشمس خرج من خيمه (القريبة) من مربط خيوله فأتى اليه الفقهاء ليتبادلوا الحديث معه. وبما أن حديثهم كان يدور حول العرائش، قال لهم المولى زيدان إنه قد قرأ طالعَه في تلك الليلة منجّم عظيم، فأُخبر بأنه سيفتح إسبانيا بأكملها وأن أَول معركة ستدور في قَرمونة[14]، وأن ملك إسبانيا سيفر هربا وسيحتمي بطليطلة حيث سيقبض عليه. وهكذا ستخضع اسبانيا كلها لحكمه، ومن أجل ذلك لن يعطي لملك إسبانيا سوى أجل ستة أشهر.

في اللحظة التي انتهى فيها من هذا الكلام أفلتت فجأة بغلتان من مربطهما وأتيتا ركضا الواحدة تلو الأخرى ومرّتا وسط الفقهاء والمولى زيدان. وعند مرورهما وسط الناس أخذ (الحاضرون) في رمي الأشياء في الهواء، وقد تركت وراءها هذه الحيوانات (من الفضلات) ما يتركه هذا النوع من البهائم، وذلك مرات عديدة. أما المولى زيدان المسكين فقد خجل كثيرا من جراء ذلك الإنذار السيء، الأمر الذي أسكته وقتا غير يسير. ومن أجل تسليته، قال له الفقهاء «يا مولاي ! لا تحزن، فإن الشيطان قد تقمص شكل هاتين البغلتين ليصرفك عن تنبؤك السعيد. ولما رأوه في ذلك الخجل الكبير، ودّعوه وانصرف المولى زيدان إلى بيته» [15].

بالرجوع الى بعض الوثائق الإسبانية كرسالة دوقِ مدينة سيدونيا إلى فليب الثالث [16] المؤرخة في 6 يوليوز 1609 سيتبين لنا أن المتاهات الخيالية التي يسبح فيها زيدان ومن يوحيها له كانت لها منطلقات في التطلعات الأخيرة التي كانت عند الموريسكيين الذين رغم كل شيىء لم يفقدوا أمل رؤية المسلمين يأتون للوقوف بجانبهم ضد مضطهديهم. فها هو الدّوق، بعد كلامه على الاتصالات التي كانت للموريسكيين مع المغاربة وعن اجتياز34 عائلة موريسكية إلى المغرب بعد مرورها عبر فرنسا وعن الترحاب الجيد الذي لقيه هؤلاء عند المولى زيدان الذي أعطاهم المنازل للسكن والمال، يتحدث عن الاقتراحات التي تقدم بها الموريسكيون من إسبانيا إلى زيدان ليأتي اليهم، وسينضمّون إليه بأعداد كبيرة من الناس المسلحين إذا أقدم على ذلك.

إذا كان زيدان قد التجأ الى ما وراء الطبيعة كمنهج لحل المشكل الموريسكي، وكان مع الموريسكيين بقلبه وكانت عينه بصيرة ويده قصيرة.

فكيف سيتحمس الشيخ المامون لاسترجاع أرض غيره وهو الذي سلم أرض بلده للنصارى؟

لقد كان للموريسكيين اتصالات بكل الأطراف المغربية التي كانت تتوفر على قسط ما من القوة عساها تقدم على القيام بشيىء في صالح هؤلاء المستضعفين الذين كانوا مستعدين لفعل المستحيل من أجل البقاء في بلدهم. لقد اتصل الموريسكيون بالشيخ المامون قبل لجوئه إلى إسبانيا وقبل تسليم العرائش. ففي سنة 1608 أو قبلها تتحدث لنا وثيقة [17] إسبانية عن "المبررات والخطط التي قدمها أحد الموريسكيين للشيخ المامون من أجل الذهاب إلى إسبانيا لاحتلالها. ومن الأسباب التي أعطاه وكذا الخطط التي تمكنه من إنجاز ذلك، أن الموريسكيين الموجودين في إسبانيا يضمنون له ربح إسبانيا وأنه بعدد قليل من الرجال الذين سيقدمون معه لهذا الغرض سيتمكن من احتلالها، لأن المسيحيين الموجودين في إسبانيا لا يتوفرون على السلاح ليدافعوا عن أنفسهم (ص. 3 من الوثيقة)" وفي مكان آخر تقول نفس الوثيقة: "إن موريسكيّي هذه الممالك (الإسبانية) قد تعاملوا في البداية مع مَلكَيْ فاس ومراكش من أجل مساعدتهما لهم بأسطول جيد عبر العرائش. و(كانوا يؤكدون له أنه) في أقل من شهر من بداية تحرك العساكر، سيكون هناك بجانبهم أكثر من خمسين ألف موريسكي مسلح، ولكن الملكيْن وهما أخوان أجابا بأنهما يوجدان منهمكين في الحرب الدائرة بينهما وليس في إمكانهما في الوقت الحالي «الاستجابة لطلبهم»، ولكنهما إذا فرغا (من الحرب) فبكل فرح (سيستجيبان)"

لقد كانت إقامة الشيخ المامون بإسبانيا تجلب إليه بعض الموريسكيين من حين لآخر ولكن لا أضن أن هذه اللقاءات كانت لتخطيط اجتياح ما من قبَله للأراضي الإسبانية. إن رسالة دُوقْ مدينة سيدونيا السالفة الذكر تتحدث عن وجود الشيخ بقرمونة مع 240 من المغاربة ويحيط به الموريسكيون من

كل جانب. ويضيف أنه رغم عدم احتمال أي خطر يأتي من هذا الشخص فإن الاتصالات والمخابرات مع من يرافقه لن تمنع محاولات (الموريسكيين)، لأنني (يقول الدوق) أعتبر مسلمين على قدم المساواة كل من الموريسكيين والمغاربة الذين أتوا من المغرب"

لا ندري هل كانت الأخبار عن معاملة الشيخ المامون للموريسكيين في المغرب تصلهم بأمانة إلى إسبانيا، لأنهم لو علموا ذلك لما اقتربوا منه بالشكل الذي تصوره هذه الوثيقة. فإلى تطوان كان قد وصل العديد من الموريسكيين قبل الطرد النهائي، وكانوا قد استقدموا معهم أكثر من ثمانية أو تسعة آلاف دوكادوس نقداً وذهباً استولى عليها المامون كلها، وأرسل الرجال للخدمة الحربية. والنساء يوجدن في تطوان ويصرخن للمجيىء إلى إسبانيا[18]. ويحكي ماركوس دي گوادالَخارا التصرف نفسه في تلك السنة[19].

إن الوضعية التي كان يعيشها المغرب من جراء الانقسامات والتطاحن بين أبناء المنصور لم تمنع تدخل المغاربة لمساندة الموريسكيين فحسب، بل شجعت الإسبان على التعجيل بطردهم من إسبانيا. فكما قال دُمينغاث أورتيث Dominguez Ortiz وبيرْنارْ فانْسان Bernard Vincent [20] «ففي نهاية سنة 1607 (لا أحد) كان يفكر في الطرد، على الأقل كإجراء آني. لقد كان الحديث في تلك الآونة يدور حول تعليم أصول الدين المسيحي للموريسكيين، و هي عملية كانوا يتصورونها طويلة جدا. ولكن بعد مدة قصيرة أي في 30 يناير 1608 اجتمع مجلس الدولة بأكمله وقرر بالإجماع طرد الموريسكيين من اسبانيا (...) إن اختيار التوقيت كان جيداً «نظراً إلى الحالة التي كان عليها الأتراك وكذا الأمور في المغرب».

وأخيراً يبقى لنا التذكير في هذا الصدد بمسألة تعلقت في نهاية المطاف بالمغرب وبطرد الموريسكيين من إسبانيا، ظهرت قبيل إخراج الموريسكيين من منطقة الأندلس.

لقد صادفت الأيام القليلة السابقة لتسليم مرسى العرائش اتخاذ الإسبانيين قرار الطرد النهائي في حق الموريسكيين الأندلسيين في الوقت الذي كان ما زال فيه الشيخ المامون موجودا في إسبانيا [21]، و يتأهب للرجوع إلى المغرب لتسليم العرائش. وقد كانت تحوم الشكوك حول الكيفية التي سيستقبله بها الإبن الذي لم يكن يقاسمه الرأي في مسألة التسليم. كما لم تكن حسابات الإسبانيين في هذا الخضم واضحة، خصوصا فيما يرجع إلى إمكانياتهم لمواجهة جبهتين معقدتين وصعبتين في آن واحد.

هنا سيطرح على الساسة الإسبان جدوى تقديم إحدى المسألتين الطرد أولاً ثم الاحتلال أم العكس. وسيكون حسم الأمر في مجلس الدولة المنعقد يوم 26 دجنبر 1609. وقد بيّن هذا المجلس كل التخوفات الإسبانية من ردود الفعل المحتملة وغير المنتظرة، خصوصا من قبَل الموريسكيين المطرودين ومن أولئك المرشحين للطرد إلى المغرب، وحتى من الشيخ المامون ومن عبد الله ومن المغاربة عموما، وذلك إذا ما تم الاستيلاء على العرائش بعد التهجير.

إن مجلس الدولة هذا يبين الأولويات التي كان يعتبرها كل عضو فيه بخصوص سياسة الدولة والأحداث الكبرى التي كانت تعيشها إسبانيا في تلك الظروف وقد أظهر هذا الاجتماع أن كل أعضاء المجلس، مع تفاوت في التشدد في الرأي العام، كانوا يرون أسبقية طرد الموريسكيين عن احتلال العرائش [22].

وبعد هذا سيبدأ فصل جديد وطويل في المسار المغربي للموريسكيين وفي العلاقة مع إسبانيا، وخلال سنوات طويلة سيحاولون الرجوع إلى بيوتهم بشتى الطرق ولكن تحجر السلطات المسيحية لن تسمح بذلك أبداً، حتى بالنسبة لحفدتهم [23].

ومن غريب الأمور التي ربما لم تكن في حسبان الموريسكيين هو أن يأخذ المغاربة مكانهم في إسبانيا يوما ما في الحِرَف التي كانوا ينفردون بها في هذا البلد كفلاحة الأرض مثلا. كما لم يكونوا يتصورون أن السبب الرئيسي الذي طردوا من أجله - وهو انتماؤهم الى دين الإسلام - سيتحول بعد سنوات قليلة الى أمر يستسيغه المسيحيون الإسبان ويقبلونه للمغاربة. إن أكبر ذنب اقترفه المطرودون هو كونهم موركسيون، أما المغاربة فرغم جهرهم بالإسلام وعدم إخفائه له عن المسيحيين، ليسوا موريسكيين ولم يكونوا يطالبون بأرض ولا بسيادة. ومن حاول من السلطات المسيحية الإسبانية مطابقة الحالتين (المغربية والموريسكية) دُعي إلى مراعاة النظام.

تتبعوا معي بعض الفقرات من الرسالة [24] التي بُعثت إلى ملك إسبانيا بخصوص هذا الموضوع في 28 نونبر 1626، أي ستة عشرة سنة بعد طرد الموريسكيين من الأندلس، والتي ختمها الملك بعبارة "حسنا. وبهذا آمر:
سيدي. إن جلالتكم قد أمرت (...) ببعث رسالة الى مجلس الدولة يشير فيها السيد ڤثينْثى سيرّانو سَبَاطا Vizente Serrano Çapata إلى وجود ما يفوق الستة آلاف مَغربي بالأندلس ومملكة غرناطة وكلهم مختنون، ومن وسائل حصولهم على الحرية إعطاءُهم أسيادَهم نسبة (من المال) حتى يفدون أنفسهم. ويوجد من بينهم ما يزيد عن ثلاثة آلاف قد أكملوا فديتهم وهم أحرار من جميع النواحي. وأغلب المتبقين قد اقتربوا من الحرية، وكلهم يعيشون علانية في دينهم، وهذه إساءة كبرى إلى الله (...). وبما أنه لا

يُسمح بوجود أي مسيحي في المغرب فسيكون من الإنصاف أن لا يُقبل هنا هؤلاء المغاربة الذين يمكن جمعهم وإرسالهم في السفن وترك من صلح لهذه الأخيرة، ومن لم يصلح فسيباع ويعطى مدخولهم لجلالتكم (...). ويوجد كذلك في الأندلس أكثر من ثلاثة آلاف عبد جُلّهم مختَّن يعيشون في دين الإسلام وهم متزوجون ولهم أطفال لا يعمدونهم. وثمن هؤلاء مرتفع جدا (...).

وبعد ما اطّلع المجلس على ما أشير إليه ارتأى أن ينهي إلى جلالتكم أنه لا يوجد في الأندلس أشخاص ليكونوا خدما، وإذا لم يُستعمل هؤلاء العبيد من قبل أصحاب المزارع، ستبقى دون من يخدمها و يحرثها ولا من يجني ثمارها. فنظرا لهذه الإعتبارات سُمح لهؤلاء الملاك أن يفعلوا ذلك، أي أن يقدّم لهم العبيد قدراً (ماليا) يوميا وبهذا يسمحون لهم بالذهاب إلى العمل. ومع مرور الوقت يحصلون عن حريتهم. إن هؤلاء ليسوا موريسكيين، وحتى ولو كانوا موريسكيين، فبعد طرد الأغلبية، يمكن التغاضي عنهم بسبب النقص الحاصل في الناس. لهذا يرى المجلس أنه لا يجب القيام بأي إجراء في هذا الموضوع بل (يجب) أن يحافظ على هذه العادة ولا يحدث أي تجديد فيها. وأما ما يشير إليه السيد بثانتا فهو أمر قد تمت المداولة بشأنه والحسم فيه في وقت سابق (...)".

الهوامش

1) A. Domínguez Ortíz y B. Vincent, Historia de los Moriscos, Madrid, Biblioteca de la Revista de Occidente, 1979, P. 179.

2) Cfr. Domínguez Ortíz y Vincent, Op. cit. p. 166, etc. Nuestro documento publicado en "Tetuán y la expulsión de los Moriscos", en colaboración con Gerard Wiegers en

«تطوان خلال القرنين 16 و17» تطوان كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 1996.

3) A. Domínguez Ortíz y B. Vincent, Op. cit p. 179 "La decisiòn se fundò en la seguridad del Estado; sólo en lugar secundario se aludió a la cuestión religiosa. Curiosamente, no se invocaron los tratos sostenidos por algunos Moriscos con los Franceses, sino la victoria de Muley Cidan, que acabada de apoderarse de Marruecos y mostraba intenciones agresivas hacia España. Claro está, que ninguno creería en serio que los Marroquíes pensaban invadir España; lo más que podrían hacer era hostilizar los presidios e intensificar los actos de piratería naval"

4) أنظر م رزوق «الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب خلال القرنين 16-17»، الدار البيضاء، إفريقيا الشرق، 1989. ص. 166 وما بعدها.

5) «يقول صاحب تاريخ الدولة السعدية» ...وكانت بينه، أي عبد الله الغالب وبين النصارى مكاتبات في ذلك ومراسلات وأنه استشار معهم وأشار عليهم أن يخرجوا أهل الأندلس إلى ناحية المغرب وقصده بذلك تعمير سواحله ويكون (لهم منه) منهم بمدينتي فاس ومراكش جيش عظيم ينتفع به في مصالح ملكه، فلما قاموا على النصارى عن إذنه وانشغلوا معهم بالقتال أرسلوا رؤساءهم وكبراءهم وذوي شأنهم إلى العدوة ليستغيثوا بالسلطان و بجماعة المسلمين في الإعانة وتركوا أهل الأندلس كلهم متمنعين في جبال غرناطة و هم يقاتلون النصارى ، فلما (وصل إليهم) وصلوا إليه تراخى عنهم وطول عليهم مقامهم فأتتهم المكاتبة من أهلهم بأنهم اطلعوا على مكاتبات بين السلطان وبين النصارى ومصادقة و تدبير على المسلمين فصح عندهم ذلك وظهر بالإمارات الدالة عليه من كثرة قعودهم ومرور الأيام عليهم بلا

فـائدة فـأمـروهم أن يصطلحـوا مع النصـارى عـلى أن يتـركـوهم يجـوزوا لهـذه العـدوة فـأجـابهـم النصـارى لذلك فـقطع جلهـم و تفـرقـوا في بلاد المـغـرب». «تاريخ الدولة السعدية»، نشر جورج كولان، الرباط 1934ص.38.

6) أنظر دراستنا (من العرائش إلى فضالة...)، الرباط «التاريخ العربي»، العدد 13، شتاء 2000، ص. 213 وما بعدها.

7) Archivo General de Simancas, legajo E 493.

8) A.G.S., legajo E2636 "Bartolomé de Llanos y Alarcón escrive a V Md. de Tetuán en carta de los 15 de 9bre. passado (...) que ha savido por muy cierto que los Moriscos de España se quieren Alcar, para lo qual se corresponden con el Rey de Marruecos. Y que agora quedava en Argel un Morisco de los de Córdova que viene de hazer embaxada al turco facilitando la empresa de España por aver en ella 500U (=500.000) Moros que aunque al priniçipio fue allá bien recivido, le despidieron después con desgusto por parecer negocio difícil. Qu el dho (=dicho) Morisco haze muchos viajes. Y También entran en esta conferencía los de Aragón y Valencia, de donde van cada día a argel los que quieran (...)"

9) أنظر الهامش السابق.

10) António de Saldanha, Crónica de Almançor, Sultao de Marrocos (1578-1603), estudo crítico, introdução e notas por António Dias Farinha. Lisboa, Instituto de Investigação Científica Tropical. 1997, p. 367 e Deus lhe pusera em seu poder todo o necessário pera isso pois via diante dos olhos toda a gente de guerra que ele detriminava acrecentar e granjear de maneira que esperava cumprir, antes de muitos dias, o pronóstico que dele se dera de libertador e senhor dos reinos de Granada, Múrcia e Valença que, sem os seus tesouros, soldados práticos que tinha, havia ganhado Tarif contra o pensamento de todos os homens e sem ter mais de cem mil soldados no mesmo coração de Espanha...

11) idem, ibidem.

12) Jorge de Henin, Descripción de los reinos de Marruecos (1603-1613), Introducción crítica y anotación de Torcuato Pérez de Guzmán, Rabat, Publicación Instituto de Estudios Africanos, 1997, 107.

13) المصدر السابق ص، 107-108.

14) إذا حاولنا أن نتجرد قليلا من الصبغة العلمية التي يجب أن يتسم بها الموضوع التاريخي و نحاول أن نبحث عن تبرير نفسي ما لاختيار مدينة قرمونة من قبل المنجم المزعوم لتكون مسرحاً لأول معركة ستدور بين المسلمين والنصارى في إسبانيا فسنجد شرح هذا اللغز في كون هذه المدينة هي مكان استقرار الشيخ المامون في هذه الآونة التي يوجد فيها في إسبانيا. لهذا يمكن أن نقول إن زيدان تمنى لو وضع في إسبانيا، لا لمحاربة الإسبانيين المتفوقين عليه عدة وعدداً، بل لقتال أخيه الذي ذهب فاراً منه وقد قام بتسليم العرائش للنصارى. رسالة دوق مدينة سيدونيا المشار إليها في الهامش 16 من هذا البحث تتحدث عن إقامة الشيخ المامون بقرمونة.

15) Op. cit. p.p. 109-110

16) A.G.S. legajo, E2639 Las licencias que éstos tienen tan estendidas y permisiones son de mana., y las correspondençias en Berv(erí)a, que desde Antequera, Eçija y Granada, salieron 34 cassas de Moriscos pasando desde estas partes del Andaluçía y por Castilla a dar a Yrún, por donde entraron en françia con sus familias, y llegaron a Have de Garçia, a donde fletando un navío frangés, pasaron al cavo de Aguer y de hallí a Marruecos, do fueron muy bien rreçibidos de Muley Çidan que oy Reina el la Bebvería y les dio sus entretenimi(en)tos y cassas en do avitassen. Y esto vio Juan Castellanos de Herr(er)a, vez(in)o de Cádiz que de halló a la sazón hallí, y otros mercaderes. Y los ofreçimientos que le hiz(ier)on de parte de los Moriscos de estos Reinos de acudirle con gran can(tida)d de genre desta naçión y armada como pasase y pusiese pie en estos Reinos...

17) أنظر وثيقة أرشيف سيمانكاس في الرزمة E 2639 التي نشرناها مع زميلنا Gerard Wiegers في "Tetuán y la expulsión de los Moriscos" ضمن أعمال ندوة «تطوان خلال القرنين 16 و17»، تطوان، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 1996، ص، 84 و85.

18) Op. cit. p. 82. Vid. 76.

19) Marcos de Guadalajara, Prodición y destierro de los Moriscos, Pamplona,1614, pp. 118v-119r.

Vid. nuestro "Tetuán y la expulsión de los Moriscos" Op. cit. p. 76.

20) Op. cit. p. 171.

21) فر الشيخ إلى إسبانيا بعد هزيمة ابنه عبد الله أمام زيدان بجوار نهر أبي رقراق يوم 27 يناير 1609.

22) A.G.S, legajo E 493.

23) أنظر دراستنا السالفة الذكر "من العرائش إلى فضالة" ص، 219 وما بعدها.

24) أنظر دراستنا "Tetuán y la expulsión de los moriscos" بالمشاركة مع G. Wiegers، وكذا Georges S. Colin

"Projet de traité entre les morisques de la Casba de Rabat et le Roi d'Espagne en 1631, HESPERIS, T.XLII, Rabat, 1955, p. 21.

25) A.G.S. Legego E 2645. Acta del Consejo de Estado del 25 de noviembre de 1626.

الموريسكيّون والجِهاد البحري في المغرب الكبير

محمد حجّي

قبل أن نتطرق إلى موضوع هجرة الموريسكيين والجهاد البحري في بلاد المغارب أود أن أشير بإيجاز إلى نقطتين تمهيديتين

1- قضية الإسم أو اللقب "الموريسكيين" أي العرب الأصاغر الذي نبز به الإسبانيون الأندلسيين المسلمين المغلوبين على أمرهم بعد سقوط حاضرتهم غرناطة، كما نبزوا قبل ذلك الأندلسيين الذين رضوا بالمقام تحت النفوذ المسيحي بعد احتلال مدنهم بالموديخار، أو بالأحرى كرّسوا هذا الوصف القدحي المحرف عن المدجنين الذي عيّر به الأندلسيون العرب إخوانهم الذين آثروا الديار والأموال على الالتحاق بإخوانهم في المنطقة الإسلامية بالجنوب، ومنهم الهورنتشيون الذين سنتحدث عنهم بعد قليل، بل سحب الإسبان المتعصبون لقب الموريسكيين على جميع الأندلسيين حتى المدجنين القدامى بل وحتى أبي عبد الله آخر ملوك بني نصر الذي لُقب بالملك الصغير El Rey chico. ولم يكن الأندلسيون المهاجرون أو الباقون في شبه الجزيرة الإيبيرية يقبلون هذا اللقب، أو يستعملونه وإنما يسمون أنفسهم أندلس - دون ياء النسب - أو أهل الأندلس، أو غرناطيين أو أهل غرناطة، كما نجد ذلك في كُتب الحسن الوزان وأحمد بن قاسم الحجري أفوقاي ومحمد بن عبد الرفيع المرسي، وإبراهيم غانم الر باش وغيرهم، وكلهم

أندلسيون مهاجرون. وكذلك في الوثائق والكراريس التي عُثر عليها هناك في القرون التالية باللغة العربية أو الخاميّايدية. مَثَلُ ذلك مثل القرصنة والقراصنة التي أطلقت على الجهاد والمجاهدين في البحر.

فهل يجمل بنا أن نكرس بدورنا هذه الألقاب الشائنة كلما تحدثنا عن إخواننا المعذبين والمهجَّرين في العدوة القصوى ؟

2- هجرة المجاهدين لم تكن بمعزل عن هجرة غيرهم من المجتمع الفكري الأندلسي، وإنما جازوا جميعاً إلى العدوة الجنوبية، فالتحق رجال الفكر والفن بالحواضر العلمية كتونس وبجاية وتلمسان وفاس، حيث أصبحوا يمثلون عنصراً ثقافياً مهماً إلى جانب العنصر المغربي في جامع القرويين وغيره، وتكونت بهم مدارس مغربية ـ أندلسية في القراءات والإلهيات والطب والأعشاب والفلك والموسيقى، تطورت عبر العصور إلى قريب من أيامنا هذه.

فلنرجع إلى الهجرات الأندلسية التي انبثق عنها الجهاد البحري في المغرب الكبير، وهي الهجرات التي تمت خلال النصف الثاني من القرن التاسع، والقرنين العاشر والحادي عشر (15 و16 و17 م). بدأت هذه الهجرات المكثفة قبل سقوط غرناطة بنحو عشرين سنة. حين تمثل للأندلسيين الفاكرين سوء المصير الذي ينتظرهم بعد أن غرقت البلاد في الخلافات والحروب الأهلية وسقطت الثغور المحيطة كمالقة والمنكّب والمرية، وأُحكم الحصار على الحاضرة وأرباضها.

تطّوان

كان عدد المهاجرين الأولين إلى المغرب الأقصى نحو أربعين أسرة على رأسهم القائد الغرناطي المجاهد أبو الحسن علي المنظري (من المنظر

حصن بضاحية غرناطة) نزلوا بجوار تطوان القديمة - وكانت قد خربت منذ نحو سبعين سنة - فرأوا أن يجددوا بناءها ليستقروا فيها، فاتصلوا بأمير المنطقة الشمالية علي ابن راشد (تـ.1511/917) في شفشاون فقبل، ثم استأذنوا الملك محمد الشيخ الوطاسي (876 - 910 /9 - 1471 - 1504) بفاس فأذن لهم وأمر ناظر القرويين "أن يسلفهم من وفر الأحباس أربعين قنطاراً أي أربعين ألف مثقال ووجه معهم أربعين من أهل فاس وأربعين من أهل الريف ليحموهم من كل اعتداء يقع عليهم من سكان القرى المجاورة" (سكيرج تاريخ تطوان) وبذلك قام عليّ المنظري ومن معه من مهاجرة الأندلس بتجديد مدينة تطوان عام الأثمان 888 /1483 على أشهر الأقوال، واستقروا فيها وتوالت وفود المهاجرين عليها من الأندلس.

لم يكد يستقر مقام علي المنظري بتطوان حتى كوّن فرقتين جهاديتين برية كان يسير على رأسها - إلى جانب مجاهدي شفشاون - لمهاجمة البرتغاليين المحتلين لمدن سبتة وطنجة وأصيلا. وأخرى بحرية أخذت تهاجم السفن والسواحل الإسبانية وتحمل إلى تطوان من تستطيع حملهم من الأندلسيين المحاصرين والأسرى الاسبانيين.

وقد زار الحسن الوزان، وهو غرناطي كما نعلم، مدينة تطوان أكثر من مرة، أولاها في حدود سنة 1508/914 وحاكمُها يومئذ حفيد علي المنظري. وتحدث في كتابه وصف إفريقيا عن صدى الحركات الجهادية البرية لعلي المنظري فقال إنه "كان معه دائماً ثلاثمائة فارس كلهم غرناطيون من نخبة أهل غرناطة فجعل يجوب أنحاء البلاد بهذا الجيش ويأخذ العديد من المسيحيين يحتفظ بهم كأسرى ويستخدمهم في أعمال التحصين. ولقد شاهدت في إحدى المرات التي ذهبت فيها إلى هذه المدينة ثلاثة آلاف أسير مسيحي لابسين جميعاً سترات من الصوف، ينامون ليلاً مقيدين في الأصفاد داخل سراديب تحت الأرض . (1 : 391).

بادِس

وثاني مركز جهادي بحري في شمال المغرب زاره الحسن الوزان وتحدث عنه بشيء غير قليل من التفصيل ولو أنه لم يتعرض للعنصر الأندلسي فيه، هو مدينة بادس في الريف الشرقي، وكانت قد اكتسبت أهمية خاصة بعد سقوط سبتة في يد الإسبان. الجبال حول بادس شاهقة وعرة، فيها خشب جيد صالح لبناء الزوارق والسفن الشراعية الحربية، يقول الوزان إن سكانها قسمان، "صيادون، وقراصنة يذهبون في زوارقهم لنهب السواحل النصرانية وفي خارج القصبة بجوار البحر دار صغيرة تصنع فيها الزوارق والسفن الشراعية وبعض المراكب. وقد اعتاد الأمير والمدنيون أن يسلحوا زوارق ويرسلوها إلى بلاد النصارى فيلحقوا بها الكثير من الأضرار. لذلك قام فرديناند الثاني ملك إسبانيا بإرسال أسطول قوى احتل جزيرة قبالة بادس على بعد ميل من المدينة وبنى فيها قلعة على صخرة (حجرة بادس أو البستيون)، شحنها جنوداً ومؤنا ومدفعية قوية.وقد تكرر هجوم المغاربة على الصخرة وطردُ الإسبانيين منها، ورجوع هؤلاء وهجومهم على المدينة أزيد من قرنين.

المرسَى الكبير

أما الأندلسيون المهاجرون الأولون إلى المغرب الأوسط فجاؤوا إلى تلمسان قريباً من التاريخ الذي حل فيه المنظري وصحبه بتطوان. فساعدهم ملكها الزيّاني على بناء بلدة بالمرسى الكبير القريب من وهران، سكنها المهاجرون الأندلسيون ومعهم عرب تلك الناحية. وبذلك "أصبحت البلدة والمرسى من أهم مراكز القرصنة الإسلامية ضد السفن المسيحية التابعة للأعداء". (حرب الثلاثمائة سنة، 102).

غير أن مُقام الأندلسيين بالمرسى الكبير لم يطل، إذ هاجمتهم أساطيل فرديناند الثاني وتغلبت عليهم بعد حصار دام 50 يوماً لقلة عددهم (500 مجاهد)، واحتلها الإسبان يوم 23 أكتوبر 1505 ونصبوا فوقها راياتهم.

مُسْتغانم

انتقل الأندلسيون إلى مدينة مستغانم، وكان معظم سكانها القدامى قد هجروها بسبب اضطراب حبل الأمن حواليها وتدهور سلطة ملوك تلمسان. فعمروها وحوّلوا ميناءها الصغير الذي كان يستقبل السفن التجارية الإيطالية إلى ميناء حربي ترابط فيه اثنتا عشرة سفينة "يركبها مهاجرو الأندلس الثغريون. ولقد هاجموا انتقاماً من الإسبان مدن بَلَنْسِية وأليكانتي وغيرهما وغنموا منها" (حرب الثلاثمائة سنة، 151).

وقد توجه الأسطول الإسباني إلى مستغانم بقوات لا قبل لهم بها فوقّعوا وثيقة استلام (22 ماي 1511).وتفرق الأندلسيون في مختلف الجهات لبضع سنوات إلى أن تكونت مراكز جهادية تركية جديدة فالتحقوا بها كما سنرى.

تطورت الأوضاع خلال القرن العاشر (16 م) سواء في شبه الجزيرة الإيبيرية أو في بلاد المغرب الكبير. فقد شَغَل عرشَ إسبانيا خلال هذا القرن كله ملكان فقط هما شارلكان (1516-1556) وفيليب الثاني (1556-598). كان شارلكان مهتماً بمشاكل وراثة العرش في امبراطوريته الشاسعة الممتدة عبر ايطاليا وألمانيا والبلاد الواطئة وجزء من فرنسا، إضافة إلى إسبانيا وممتلكاتها في الدنيا الجديدة، وحركة الاصلاح الديني وما نشأ عنها من تيارات وثورات. لذلك لم يعد يولي اهتماماً كبيراً لمشاكل الأندلسيين المتنصرين وقضاياهم مع محاكم التفتيش أو علاقاتهم بالبلاد الإسلامية في العدوة الأخرى، ولو أنه ظلّ خاضعاً للقساوسة المتعصبين يؤيد تصرفاتهم

تأييداً مطلقاً ويهاجم كل من يحاول مساعدة أولئك المغلوبين على أمرهم أو تخليصهم من سجون المحققين ومحارقهم.

وورث فيليب الثاني عن أبيه هذه المشاكل ولو أن شارلكان تنازل عن بعض تيجانه لأخيه فرديناند الذي أصبح إمبراطوراً للدولة الرومانية المقدسة، وأصبحت النمسا وبوهيميا والمجر في حوزته، لكن فيليب الثاني ملك إسبانيا كان من نصيبه أيضاً الأراضي الواطئة التي عرفت مضاعفات خطيرة بسبب حركة الإصلاح الديني، واندلعت فيها ثورات اختلط فيها النضال الديني بالنضال السياسي فكانت أعظم كارثة لإسبانيا وانتهت باستقلال الولايات الشمالية عنها برآسة وِلْيَمْ أورانْج.

وفي المغرب الأقصى استهل القرن العاشر (16 م) ومعظم الثغور على البحر المحيط محتلة من طرف البرتغال من طنجة إلى وادي ماسة بساحل السوس الأقصى، علاوة على سبتة ومليلية على البحر المتوسط، والدولة الوطاسية في فاس عاجزة عن ضبط الأطراف البعيدة، وبلاد ما وراء الأطلس سائبة موكولة إلى نفسها.

غير أن بارقة أمل لاحت في الجنوب حين التفت قبائل بلاد درعة وسوس، بإيعاز من شيوخ الزوايا، حول عميد الشرفاء السعديين محمد بن عبد الرحمن وبايعوه سنة 1509/915 أميراً للجهاد ولقبوه بالقائم بأمر الله، فهاجم البرتغاليين في الثغور المحتلة بسوس وحاحة وحقق انتصارات كان لها صدى واسع - رغم محدوديتها - حتى في الشمال. وبعد موت القائم بأمر الله سنة 923 /1517 خلفه ولداه أحمد الأعرج ومحمد المهدي الشيخ. بقي هذا الأخير في سوس يجاهد البرتغاليين حتى أخرجهم من ثغورها المحتلة، وطلع أحمد إلى الشمال فتمكن بعد حروب طويلة من طرد البرتغاليين من مدن أسفي وأزمور. ولم تحلّ سنة 1556/961 حتى كان محمد المهدي الشيخ قد

وحّد المغرب تحت سلطته وألجأ البرتغاليين إلى الانكماش وراء أسوار الثغور التي مازالوا يحتلونها. إلى أن وقع الحسم بالانتصار المغربي الساحق في معركة وادي المخازن أو الملوك الثلاثة (قرب مدينة القصر الكبير) عام 1578/986 حيث صرع ملك البرتغال دون سيبستيان وكبراء قومه وغيرهم من نبلاء دول أوربا، وفقدت البرتغال بذلك شخصيتها السياسية كدولة، وضُمت بلادها وممتلكاتها إلى ملك إسبانيا.

لم تنقطع هجرة الأندلسيين (الموريسكيين) خلال هذا القرن إلى المغرب، لكن ظروف قيام دولة الشرفاء وحركاتهم الجهادية الداخلية لم تتح للمهاجرين الجدد فرصة التجمع في مدينة أو منطقة معينة. وإنما استقروا حيث أمكن في المدن والقرى حتى وصلوا إلى السوس الأقصى، وكان لهم حي خاص في مدينة المحمدية (تارودانت) التي جددها محمد المهدي الشيخ في النصف الأول من القرن العاشر.

وقد استخدم السعديون الأندلسيين (المورسكيين) في جيشهم النظامي. وتكاثر عددهم على عهد عبد الله الغالب (1573-1556/981/964) وأصبح منهم قواد مرموقون شاركوا بفعالية في معركة وادي المخازن. وفي عهد أحمد المنصور (1603-1578/1012-986) أصبح الجيش الأندلسي يكوِّن أحد الجيوش الأربعة الكبرى للدولة، إلى جانب جيش السوس والشراگة والموالي العلوج. وكانت ترفع على كل قائد منهم الألوية والرايات، ويحفه عسكر باكباشيات. وشارك الأندلسيون بكثرة في حملة فتح السودان برآسة قائدهم جوذر باشا عام 1519/999.

ولما بنى أحمد المنصور أسطولا حربياً في دار الصناعة برباط سلا أسند رياسته إلى قائد مجرّب يوحي اسمه إبراهيم الشط بأنه أندلسي، وحلاه في تقليده "بالرايس الأمجد الأوجه الأسعد أبي سالم إبراهيم الشط... ولمّا كان

ممن عُـلمت كفايته، واشتهرت في الجهاد عنايته رأى أيده الله أن يقلده قيادة الاسطول فقدمه قائداً على العمارة البحرية والقطائع الجهادية" (مناهل الصفا، ص 244) ثم استبدل به الرايس شعبان، ولعله أيضاً من مهاجرة الأندلس.

أما الجهاد البحري في هذه الفترة فقد اختصت به مدينة تطوان التي نما أسطولها وكثر رجاله، وقد أبقى عليها السعديون تحت نظر زعمائها الأندلسيين لتظل شوكة في جنب الإسبانيين، ونقطة استقبال متقدمةً للمهاجرين. كما أبقوا على شفشاون تحت نظر المجاهدين الشرفاء آل ابن راشد إلى أن أجلاهم عنها عبد الله الغالب عام 1562/969. ولما اشتد النزاع بين رؤساء تطوان سنة 1568/975 اكتفى السعديون بإبعاد القائد حسين وإصلاح ذات البين بين الأطراف المتنازعة.

لم يفتأ مجاهدو تطوان طوال هذا القرن، إلى جانب حملاتهم البحرية الموفقة، يغيرون براً على الثغور المحتلة بجوارهم ويحاصرونها. ومن أشهر غاراتهم على سبتة هجومهم المفاجئ يوم 22 محرم 11/997 دجنبر 1588 على حامية سبتة وساكنتها، وقد خرجوا إلى ظاهر المدينة، فأمعن المجاهدون فيهم قتلاً وأسراً وسبياً "وكادوا أن يستولوا على سبتة بما أتيح لهم من الظهور (مناهل الصفا، ص 50) وحمل المجاهدون سبي سبتة إلى المنصور بفاس فكان يوماً مشهوداً.

مدُن سَلا

في خضم الاضطرابات التي عرفها المغرب بعد وفاة أحمد المنصور تمت الهجرة الأندلسية الكبرى بعد صدور قرار فيليب الثاني بإبعادهم جميعاً (1614-1609/1023-1018) حط المهاجرون رحالهم عند مصب أبي رقراق. وبعد

استئذان السلطان زيدان بمراكش جددوا بناء الرباط والقصبة، واختص الهورناتشيون المدجنون المعروفون بصدق عقيدتهم وثراتهم الواسع بسكنى القصبة. وبعد قليل بويع محمد العياشي بسلا أميراً للجهاد على إثر احتلال الإسبانيين للمهدية وتضييقهم على السلويين في مسارحهم.

بادر الأندلسيون (الموريسكيون) بتسليح سفن والخروج بها إلى عرض المحيط مع بعض الملاحين السلويين، يعترضون طريق سفن العدو من وإلى أميركا الجنوبية، فيحصلون على غنائم عظيمة منها سفن تجارية وحربية بحُمولها وعتادها. في حين كان العياشي منصرفاً إلى حصار الإسبان في المهدية ومهاجمتهم حتى كادت تفتح له، وامتنع الأندلسيون من إعانته فاتهمهم بالتواطؤ مع العدو وقاتلهم ولم يقبل شفاعة الدلائيين فيهم، فكان في ذلك هلاكه غدراً في قبيلة الخلط وهو عائد من غزو طنجة.

جاء الدلائيون إلى سلا، وبسطوا نفوذهم على شمال المغرب فيما بين نهر أم الربيع وملوية إلى تطوان وبلاد الهبط، وكوَّنوا تحت سلطتهم ديواناً من ممثلي سلا والرباط والقصبة، لتسيير شؤون المدن الثلاث والنظر في قضايا أسطول الجهاد وعوائده الوفيرة، حتى إذا قامت دولة الشرفاء العلويين أصبح أسطول الجهاد بمصب أبي رقراق تحت إشرافهم المباشر. وقد ذكر الأسير مُويطْ في رحلته - وهو يومئذ بِسَلا - أن السلطان الرشيد ابن الشريف قضى شهر رمضان (من عام 1082) بمدينة سلا ينظر في شؤون الجهاد في البحر والأسرى المسيحيين. ويظهر أن السلطان تمكن خلال هذه المدة من أن يستبدل بالرياس القدامى رياساً جدداً من السلويين والأندلسيين لا تصادم عقليتهم الخدمة مع المخزن، ومنهم الرايس الشهير عبد الله ابن عائشة، وهو يومئذ مازال في ريعان الشباب. وبذلك أخذ أسطول الجهاد وجهته الجديدة واستمر نشاطه بين مد وجزر إلى أوائل القرن الثالث عشر (19 م).

وفي المغربين الأوسط والأدنى انحلت دولة بني زيان بتلمسان والحفصيين بتونس واختلّ نظامهما وأصبحت المنطقة لقمة سائغة للإسبانيين الذين استطاعوا في ظرف ست سنوات أن يحتلوا الساحل الشمالي الغربي للبحر المتوسط كله فاستولوا على المرسى الكبير سنة 1505 كما رأينا، وعلى وهران سنة 1509، وعلى بجاية وعنابة وطرابلس سنة 1510، واستسلمت لهم الجزائر ومستغانم دون قتال سنة 1511. غير أن عنصراً جدّ في المنطقة غيّر الأوضاع رأساً على عقب، أعني الوجود التركي مع الأخوين عروج وخير الدين اللذين قاما بتحرير الثغور المحتلة، وإنشاء مراكز جهادية جديدة استقبلت أفواج الأندلسين المهاجرين.

حلق الوادي

لا يُعرف على وجه التحقيق هوية هذين الرجلين (باربروس)، ولا دواعي انتقالهما من جزر بحر الأرخبيل إلى جزيرة جربة جنوب تونس. إلاّ أنهما كانا بمنزلة من الشجاعة والمهارة في البحر، شديدين على الكفار رحيمين بالمسلمين لاسيما المضطهدين بالأندلس. أعجب الملك الحفصي أبو عبد الله بشجاعتهما فأقطعهما مرسى حلق الوادي سنة 1560 ليكون منطلق عملياتهما الجهادية، فقاما على الرغم من ضعف أسطولهما خلال سنتين بعدة عمليات ناجحة مكنتهما من غنائم ثمينة قدما خمسها للملك الحفصي.

استغاث بعروج وخير الدين أهل بجاية، فسارا إليها وتغلبا على عبارة بحرية إسبانية كانت مرابطة بمرساها، ونزل عروج إلى البر مع فريق من رجاله الأشداء مستطلعاً، فأصيب بطلقة نارية كسرت ذراعه فبتر. وحاول الأخوان مرتين أخريين دون جدوى فتح بجاية.

جضور جيجل

اتجه عروج بعد ذلك إلى مدينة جيجل (على بعد 102 كلم غربي بجاية) بعد أن استنجد به أهلها المشردون، وكان الجنويون يحتلونها منذ ثلاثة قرون ويستعملونها لأغراض تجارية إلى أن اكتسحها الإسبان في حملتهم الأخيرة. وقد تغلب الأتراك ومن انضم إليهم من الأهالي، على الحامية الإسبانية ودخلوا المدينة (1514) وبعث الأخوان التركيان حظهما من الغنيمة الثمينة هديةً للخليفة العثماني سليم الأول الذي لم يلبث أن ردّ على هذه الهدية الرمزية بأربع عشرة سفينة حربية تحمل رجالاً أشداء وعتاداً حربياً كثيراً. وتلاحق الأندلسيون المهاجرون بجيجل للعمل في الاسطول الإسلامي. فأصبحت بذلك مركزاً جهادياً طلائعياً في المغرب الأوسط.

الجزائر

ورغب أهل الجزائر مع شيخهم سالم التومي في أن يساعدهم مجاهدو جيجل على طرد الإسبانيين المحتلين لحصن الصخرة المشرف على مدينتهم. فساروا إليها براً وبحراً بقيادة عروج وخير الدين في 18 سفينة ودخلوها دون قتال سنة 1516/920. فنظم عروج المدينة وما حولها وقضى على الشيوخ المتطلعين إلى السلطة وبايعه أهل الحل والعقد أميراً على الجهاد. ولم تلبث مدينة الجزائر، لوفرة من التحق بها من المهاجرين الأندلسيين أن أصبحت المركز الجهادي الأول في المنطقة. وقام عروج بتحرير مدينة تَنَس بجيش بري وآخر بحري معظمُه من مهاجري الأندلس قبل أن يتوجه إلى تلمسان استجابة لرغبة أهلها، لكنه قُتل هناك سنة 922 / 1518 بتآمر بين الإسبان وعملائهم الزيانيين.

خلف خيرُ الدين أخاه عروج في إمارة الجهاد بطلب من أعيان الجزائر، لكنه اشترط عليهم أن ينضموا إلى الخلافة العثمانية، فبايعوا السلطان سليم

الثاني وخطبوا باسمه وأصبحت الجزائر بذلك ولاية عثمانية. وقد سمّى الخليفة خير الدين باي لرباي حاكماً عاماً وبعث إليه بأسطول قوي أزعج الإسبانيين والأوربيين عامة.

وجه الإسبان ضد مدينة الجزائر هجومين ساحقين، أولهما سنة 1519 بقيادة ملك الصقليتين هوگو دي مُندادي Hugo de Mondadé في أربعين سفينة، فهزمهم خير الدين براً وبحراً شر هزيمة. وترأس الهجوم الثاني الإمبراطور شارلكان نفسه سنة 1541 في غزوة صليبية كبرى ضمت نبلاء إسبانيا وألمانيا وإيطاليا وحفيد الباب ورهبان مالْطَة الفُرسان. بلغ عدد الجيش 24.000 رجل و2000 فرس و450 سفينة نقل و65 سفينة حربية كبرى. وخير الدين يومئذ في اصطنبول بعد أن سُمي "قابودان باشا" أمير البحر للأسطول العثماني. كانت الحامية التي واجهت هذا الجيش العرمرم تتركب من 800 تركي و5000 من الأندلسيين مع بعض الأعراب. بقيادة حسن أغا. وقد انكسر شارلكان وجنده شر انكسار براً وبحراً، وتحطم معظم أسطوله على الساحل بسبب عاصفة بحرية هوجاء.

ثم كانت حملة الصدر الأعظم سنان باشا سنة 1573/981 آخر الحملات التركية الكبرى لطرد الإسبانيين من تونس وإخراجهم من مرسى حلق الوادي والحصن البستيون، وبذلك استرجع حلق الوادي مكانته كمركز أول للجهاد في الساحل الشرقي بسبب الأندلسيين المتوافرين فيه، وكانوا يعملون تحت نظر الدايات الأتراك في مجال بحري فسيح يمتد من صقلية ومالطة إلى جزر البليار وسواحل إسبانيا الجنوبية.

وفي أيام عثمان داي (تـ. 1610/1019) وصلت إلى تونس جالية الأندلس الأخيرة بعد قرار الطرد النهائي "وكانوا خلقاً كثيراً فأوسع لهم عثمان داي في البلاد وفرّق ضعفاءهم على الناس وأذن لهم أن يعمّروا حيث شاؤوا، فاشتروا

الهناشير وبنوا فيها واتسعوا في البلاد فَعَمرت بهم واستوطنوا في عدة أماكن" (المونس، ص. 204) وبلغ عدد القرى التي أنشأوها أو عمروها أزيد من عشرين، وصارت لهم مدن عظيمة وغرسوا الكروم والزيتون والبساتين ومهدوا الطرقات بالكراريط للمسافرين، وصاروا يعدون من أهل البلاد.

ومن الشخصيات الأندلسية البارزة التي وردت على الداي عثمان المجاهدُ العارف بفن المدفعية إبراهيم غانم الرِّباشي من إقليم غرناطة مؤلف كتاب « العز والرفعة والمنافع للمجاهدين في سبيل الله بالمدافع »، أهم كتاب ألّف وترجم إلى العربية في هذا الفن. ذكر المؤلف في مقدمته أنه وجد بتونس كثيراً من الأصحاب والأحباب الأندلسيين وأن حاكم المدينة عثمان داي أقبل عليه وقدّمه على مائتي رجل من الأندلسيين المهاجرين وأعطاه خمسمائة (دينار) سلطاني ومائتي مكحلة ومائتي سكين وغير ذلك مما يحتاج إليه في سفر البحر وأركبهم في إحدى سفنه فبقوا في البحر نحو ستة شهور رجعوا بعدها إلى تونس بغنيمة قليلة، وإبراهيم غانم مجروح من حرب الأعداء حتى أشرف على الهلاك.

وبعد أن استراحوا واندملت جراح إبراهيم ركبوا البحر أيضاً وقصدوا ساحل مالقة فاعترضتهم هناك إحدى عشر سفينة للعدو، وجرى قتال عنيف هلك فيه العديد من الجانبين ومات من الأعداء أكثر من ستمائة، من بينهم أكثر من عشرين من أكابرهم، وأُثخن إبراهيم بالجراح وأُسر وبقي أسيراً سبع سنين، ثم رجع إلى تونس فأمره يوسف داي بالمكوث في حصن حلق الوادي لاستصلاح الأسلحة وخاصة المدافع فوجدها إبراهيم فرصة لإتمام خبرته وتطبيق معلوماته.

وكان قد تعلم صَنْعة المدافع - نظرياً وعملياً - على يد كبار الرياس الإسبان في رحلاته معهم على ظهر سفن كبرى تأتي بالفضة من الهند الغربية

(أميركا) محروسة بأسطول حربي مزود بأصناف المدافع. وفي الطريق الطويل يتناقشون ويُحضرون كتباً أعجمية كثيرة في هذا الفن، فكان إبراهيم غانم يجالسهم ويحفظ ما يقولون ويباشر العمل بيده وهم غافلون عن كونه أندلسياً لسحنته الأوربية. ثم رأى في حلق الواد أن المجاهدين لا يحسنون استعمال المدافع ويفسدونها. فألف هذا الكتاب ليكون لهم دليلا يسترشدون به في أعمالهم الجهادية.

ولما كان المؤلف لا يحسن الكتابة إلا باللغة الإسبانية التي نشأ عليها قسراً، فإنه كان يرجو أن يجد من يعرب الكتاب ليعمّ النفع به وتنسخ منه نسخ يُبعث بها لمختلف جهات العالم الإسلامي. "ولا قصدت به نفعا دنيوياً بل الإخلاص لله تعالى - يقول المؤلف - وتذكر فيه ما يحصل (به) النفع من وجوه، وللمدافعين القائمين بما وجب عليهم من الحقوق فيما تصدروا إليه وتكلفوا به من خدمة أمراء المسلمين ويحصل لهم الأجر عنه من الله سبحانه بتفريج المسلمين بإتقان أعمالهم وتخويف أعدائهم الكافرين"

لا تقتصر أهمية كتاب « العز والمنافع » على قيمته العلمية المتمثلة في أبوابه الخمسين، ولكنه أيضاً نموذج لتشبث هذه الطائفة المومنة الماجدة المدعوة ظلما موريسكية، بدينها الحنيف ومُثلها السامية بالرغم على عيشها عقوداً من السنين في بيئة موبوءة لم تتورع عن أن تلحق بها كل ضروب العسف والمسخ والإهانة، وإيمانها الراسخ بضرورة مجاهدة تلك الفئة المتعصبة الباغية.

ونجد نفس الروح الجهادية عند مترجم الكتاب إلى العربية أحمد بن قاسم الحجري أفوقاي فهو نموذج آخر لأولئك الأندلسيين (الموريسكيين) النبلاء العلماء الأتقياء، التحق أيضاً متنكراً بمراكش على ظهر سفينة نقل، واشتغل مترجماً في بلاط السعديين، وفي طريق رجوعه من الحج مرّ بتونس

واطلع على هذا الكتاب بالعجمية وقرر ترجمته إلى العربية لأمرين نية مؤلفه الصالحة وعدم رغبته في أي نفع دنيوي إلاّ أن ينتفع به المسلمون ويستعينوا به على أعدائهم الكافرين، وإيمان المترجم بضرورة الجهاد الذي هو أحد الأركان الأساسية للإسلام ما تواطأ قوم على تركه إلاّ ابتلاهم الله فيما بينهم. وأضاف في مقدمة الترجمة فصلا مطولاً عن أهمية الجهاد مستشهداً بعدد وافر من الآيات والأحاديث، وأخبار المجاهدين اقتبسها من «نفح الطيب» لأحمد المقري وغيره من كتب التاريخ. ويتسع مفهوم الجهاد في نظر المترجِم ـ فهو كما يكون بالسيف والمدفع، يكون باللسان والقلم، أكّد له ذلك مفتي مراكش عيسى السكتاني. لذلك حرص أفوقاي على مناظرة القسيسين والرهبان وأحبار اليهود في سفارته إلى فرنسا وهولندا. وكان يعرف التوراة والانجيل فضلاً عن القرآن والحديث، وقد سجل هذه المحاورات الدينية في كتابه « ناصر الدين على القوم الكافرين» الذي نشره زميلنا الأستاذ محمد رزوق.

استنتاج

تزامن انهيار دولة بني الأحمر بالأندلس مع انحلال دول بلاد المغارب واحتلال أهم الثغور المغربية على البحرين المحيط والمتوسط من طرف الإسبان والبرتغال، فلم يستطع المغاربة تلبية نداء المستغيثين بالأندلس، حتى إذا حُم القضاء وهاجر الأندلسيون إلى العدوة الجنوبية كوّنوا مراكز جهادية بحرية للانتقام ممن اضطهدوهم وأخرجوهم من ديارهم بغير حق، وعزّزوا الجيوش النظامية المحلّية في حملاتها لطرد المحتلّين الإيبيريّين، فنصرهم الله على أعدائهم وشفى صدورهم، وعاشوا على الرحب والسعة بين أظهر إخوانهم المومنين.

الموركسيّون في المجتمع المغربي : اندماج أم انعزال؟

عبد المجيد القدّوري

يدخل موضوع الموركسيين ضمن اهتمامات أكاديمية المملكة لما له من علاقة بالأهداف السامية التي تبنتها من أجل معالجة ومناقشة المواضيع التي شكلت وما زالت تشكل قضايا كبرى في تاريخ المغرب في علاقاته مع العالم الخارجي. ومن أهم هذه الثوابت الإسلام والتعايش والتسامح، ومناهضة الانغلاق والإقصاء في جميع أشكاله، والعمل على التحسيس بأهمية الانفتاح على "الآخر لما لذلك من نفع وفائدة من أجل بناء شخصية مغربية مندمجة في محيطها المحلي والإقليمي والعالمي.

حرك موضوع الموركسيين الأقلام والأبحاث واستطاعت هذه الأعمال أن تظهر العناصر الدينية والاجتماعية والثقافية التي حددت سلوك فئة مهمة من المغاربة وأبرزت بطرق مختلفة ذهنية المهاجر الذي عانى من وحشية الطرد وظلم المستبد كما ألحت على ذلك شهادة الباحثين الإسبانيين أنفسهم فلم يترددوا في استعمال النعوت المعبرة "الموركسيون وعنصرية الدولة" تزعمت الدولة الإسبانية عملية الإقصاء وحركته الكنيسة، هذا الطرد الذي أدمى الذاكرة الإسلامية. لقد قدمت إسبانيا على أعلى مستوى سياسي الاعتذار سنة 1980 وكان اعتذاراً رسمياً لليهود بسبب ما تعرض له هؤلاء من

إهانات وويلات خلال هذه الفترة، مع العلم أن معاناة المورسكيين كانت مماثلة إن لم تكن أشد وأقصى.

لا نرمي من هذه المساهمة إشعال نار الحقد والكراهية أو تسميم العلاقات الإسبانية المغربية بل نريد فقط إثارة الانتباه، من زاوية البحث الرصين، إلى الأخطار الملوحة في الأفق تلك التي تأخذ الهجرة مطية لتغذي حقدها واحتقارها المطلق "للآخر المختلف والمزعج. نتوخى من هذا العمل فضح إديولوجيات التعصب الأعمى.

شكلت الهجرة إحدى الروابط الأساسية في علاقات المغرب بإسبانيا عبر الأحقاب والأزمنة، لا ننسى أن الأسطورة التي كانت وراء حفر مضيق جبل طارق،و التي رددتها كتب الأخبار إلى غاية القرن العشرين، قد انبنت في جوهرها على عملية الهجرة والتهجير كما أشار إلى ذلك إبراهيم التادلي عندما ردد هذه الأسطورة قائلاً "وكانت طنجة متصلة ببر واحد، فكان أهل الأندلس، يغيرون على أهل المغرب الأقصا وينهبونه فشكوا ذلك إلى ذي القرنين... وكان زمن سيدنا إبراهيم عليه السلام، فحفر ما بين طنجة والأندلس من البر حتى صار بحراً واحداً ممتداً إلى الاسكندرية والشام وأرض الروم"[1].

تعتبر الهجرة والحنين من الثوابت في العلاقات المغربية الإسبانية وتشكل العنصر الأساسي في التواصل سواء كانت هجرة مسموح بها أو هجرة مرفوضة وسرية إذ يمكن الحد منها. فالأساس هو العمل على فهم الدوافع والسعي إلى الانطلاق من الهجرة من أجل بناء غد أفضل يحرم فيه الإقصاء والتعصب والحقد الذي تحركه أيادي طامعة في الاستحواذ والسيطرة قصد فرض الرأي الأحادي والنظرة المظلمة المتعالية.

نود مقاربة موضوع المورسكيين من زاوية لا زالت مهملة ولم تحظ بعد بما تستحقه من تنقيب. ننطلق من فرضية مَفادُها أن الطرد قد شمل فئات مختلفة وأديان مختلفة. واتجه المطرودون إلى مناطق كثيرة من العالم نحو المشرق والمغرب، ثم نحو الشمال والجنوب. فكيف تعاملت هذه الفئات مع واقعها الجديد؟ لماذا استطاعت بعض الفئات الاندماج وساهمت في تحريك عجلة الاقتصاد في حين فشلت فئات أخرى؟ كيف حاولت أن تتجاوز العوائق والصعاب التي كانت تواجهها؟ ما هي الأسباب التي جعلت المورسكيين يلجؤون إلى الانكماش والانعزال في المغرب؟ لماذا لم يلعب هؤلاء دور المحرك الاقتصادي على غرار ما وقع في هولندا مثلاً؟ كيف نفهم انعزال المورسكيين اجتماعياً ونجاحهم في جعل ثقافتهم الثقافة النموذج في سلوك المغاربة خصوصاً مغاربة الحواضر؟

ملاحظات أولية

لاشك أن المتمعن في تاريخ المغرب سيلاحظ أن الهجرة كانت وما تزال من الثوابت المحددة للشخصية المغربية. يقال في مثل شائع أن الجغرافيا عنيدة: يقع هذا البلد في مفترق الطرق البرية والبحرية وبسبب هذا الموقع كان المغرب قبلة لاستقبال عدد هائل من المهاجرين ونقطة انطلاق لأفواج كثيرة. وقد خلدت كتب الأخبار بعض أسمائها (الإدريسي - ابن بطوطة - الوزان) إلا أن الأغلبية لم ولن تعرف لأنها لم تكن مرموقة ولم تترك آثاراً تسمح بالحديث عنها.

شكلت التجارة الصحراوية أساس التواصل البري لمدة قرون واعتبر هذا النسق نظاماً اقتصادياً مندمجاً، وكانت القوافل بمثابة مدن متحركة تمر عبر

محطات مرسومة وتخضع لإجراءات معهودة ومعلومة استفادت منها فئة التجار بالتأكيد إلى جانب القبائل كما كانت تسمح بتنقل العلماء، وفوق هذا وذاك، فإنها عمقت التواصل الكلي بين المناطق والشعوب والحضارات [2]. وكانت الطرق التجارية المألوفة تخترق أهم المدن المغربية: سجلماسة وفاس ومراكش وتصل إلى أهم الموانئ أكَدير والصويرة وطنجة وسبتة؛ وانطلاقاً من هذه الموانئ كانت تنطلق البضائع ويمتد التواصل عبر الطرق البحرية نحو الشمال لتشمل وتكتسح البحر المتوسط في أبعاده التاريخية على حد قول فرناند بروديل، وهكذا كان المغرب ـ ويجب أن يبقى ـ بوابة إفريقيا وأوروبا والمختبر الذي تلاقحت فيه الثقافات والحضارات والأجناس.

ساهم هذا الانفتاح في تكوين شخصية متميزة آمنة بالأخذ والعطاء ومقتنعة بالتعدد والاختلاف وحريصة على التعايش والتسامح. فهل أدرك المغاربة هذه المعطيات وحاولوا توظيفها وتعزيزها أم أغفلوها وتركوا المجال للكتابة الأجنبية عموماً والاستعمارية على الخصوص. هذه الكتابة التي قدمت قراءات وأفرزت نظريات صارت كلها في اتجاه معاكس لمصالح المغرب لضرب هذه الشخصية وتشويهها. لقد نسجت الاسطوغرافيا الاستعمارية خطاباً حقوداً وركزت في تحاليلها على طمس العناصر الحيوية المساهمة في بناء هذه الشخصية ذات الوعي التاريخي. فالمغرب في هذه الكتابة أرض خلاء ومجال تجاذبته حضارات ومجموعات بشرية من الشرق والشمال عبر الأحقاب والعصور، وأدت إلى تراسبات حضارية وثقافية متوازية الأصل البربري فالمد الفينيقي ثم الوندال فالرومان فالغزو العربي ثم الإيبري فالأوروبي. دخلت هذه المجموعات لكنها لم تستطع - في رأي الكتابة الاستعمارية - أن تُكوّن وعياً تاريخياً لأن هذه المجموعات التي كانت تتقاسمه لم تكن ملتحمة ومتراصة وانعدم فيها الشعور بوحدة المصير

والآمال. بسبب هذا غاب الاستقرار في هذا البلد ولم يتمكن من خلق كيان سياسي قادر على صيانة المصالح ونشر الأمن والطمأنينة لأن القبائل كانت في تطاحن دائم والمخزن كان في هذه الكتابة مجرد كيان قبلي مبني على العصبية والنهب ليس إلا(3).

المزعج، هو استمرار الباحثين الأجانب في الاعتماد على هذه الكتابة وبالتالي ترديد أطروحاتها. ويرجع ذلك إلى عدم معرفتهم للعربية وإلى إهمال المغاربة لعملية الترجمة فلا زلنا نجد أصواتاً تتحدث عن مجتمع جامد تنقصه الحركة وتغيب عنه شروط الحداثة. ومما دعم هذا الاتجاه لجوء المغاربة إلى الرد على هذه الكتابة بخطابات وطنية أدخلت البحث في متاهات التبرير والتمجيد وأغفلت التركيز على البحث وفق مناهج عصرية لإبراز العناصر الحقيقية المكونة للشخصية المغربية هذه الشخصية التي تومن بالانفتاح لا بالانغلاق وتأخذ بالتنوع والاختلاف. لاشك أن تجنب المغاربة البحث في قضايا اعتبروا الخوض فيها خطراً على هويتهم قد دعم الطرح الأجنبي ومن ضمن المواضيع المهملة في تناولنا: الأقليات وأدوارها في تكوين هذه الشخصية المتعددة.

الظاهرة المورسكية الذاكرة والتاريخ

يعتبر موضوع الأقليات من المواضيع الجديدة في الدراسات التاريخية. وقع اهتمام المؤرخين بذاكرة الأقليات المنبوذة والمهمشة من أجل إعطائها المكانة التي تستحقها وإخراجها من العزلة والتهميش. أود في هذه المحاولة أن أقف عند نماذج من هذه الأقليات قبل الوقوف مطولاً عند المورسكيين.

استطاعت بعض الأقليات قلب الموازين لصالحها، فحولت الأغلبية إلى أقلية قهراً. فالاكتشافات الجغرافية الكبرى مكنت الغزاة الإيبيريين، وكانوا

قلة، من السيطرة على أمريكا الجنوبية مهد الهنود وحضاراتهم واستطاعت هذه الأقلية الإيبيرية بفضل مشروعها الاستعماري واعتماداً على أسلحتها أن تستحوذ قهراً على هؤلاء الهنود الذين كانوا أغلبية. وبتواطئ مع الكنيسة تمكن الغزاة من إلحاق أضرار جسيمة بالسكان الأصليين. واعتماداً على مخطط سياسي اقتصادي واجتماعي حاولت هذه الأقليات الأوروبية تهميش ثم إقصاء الهنود الذين كانوا يشكلون الأغلبية وتحويلهم بالتدريج إلى أقلية. ولم يتوقف المشروع عند هذا الحد بل صار إلى أبعد من ذلك فاستعمل كل السبل لمحو الشخصية الهندية بالتدريج ودمجها في الشخصية اللاتينية. لقد نجحت الأقليات الإيبيرية في مشروع التحويل هذا رغم المقاومة اليائسة للهنود الذين لا زالت تحدوهم رغبة في المحافظة على ما تبقى من وعيهم التاريخي وهويتهم المدمرة.

أما النموذج الثاني الذي يسترعي الانتباه فيتعلق بالأقلية اليهودية المطرودة إلى جانب المورسكيين من إسبانيا تلك الأقلية التي استقرت في العمالات المتحدة أي هولندا. لقد استطاع هذا البلد الصغير أن يحصل على استقلاله من إسبانيا في منتصف القرن السادس عشر. وبعد الاستقلال فتح الهولنديون الباب أمام المضطهدين من جميع الديانات فتمكن الكيان الجديد من توظيف واستغلال كل الطاقات وكل الكفاءات التي كانت تتوفر عليها الأقليات المستقرة بهولندا بعدما هيأت لها الجو الملائم الذي كان ينبني على الحرية والتسامح والتعايش وفق قوانين مضبوطة ومعلنة. فاندمجت هذه الأقليات بسهولة وأعطت الكثير لهذا البلد بل ساهمت في بناء شخصيته الصلبة ودعمت مسيرته الاقتصادية فأصبح في نهاية القرن السادس عشر القوى التي يحسب لها الحساب بل صار من أكبر الدول وأقواها خلال النصف الأول من القرن السابع عشر، باستطاعته منافسة أكبر الدول (إسبانيا

وإنجلترا). فهل نجحت هولندا لأنها كانت حديثة العهد بالاستقلال ولم تكن تتوفر على قوالب ومؤسسات صلبة وعرفت كيف تستفيد من خبرة وكفاءات الأقليات؟ أم أن حماس الأقليات ومساهماتها الفعالة قد وجد الإطار السياسي والأمني بالإضافة إلى المشروع الاجتماعي الجاهز القابل للإنجاز المومن بالتشارك والمبادرة الخلاقة [4]؟

تربط المغرب بالأندلس علاقات وطيدة ومُنذ أقدم العصور، ترتبت عنها عدة أحداث، وشكلت في الأساس تاريخاً مشتركاً بين العدوتين. جاءت إلى المغرب جالية أندلسية عبر فترات واستقرت به، ولم تكن تشعر بالغربة لأنها ازدادت في الأندلس المسلمة على عكس الموريسكيين الذين أتوا إلى المغرب إما هرباً أو مطرودين من الأندلس بعدما عادت مسيحية، بالإضافة إلى هذا فإن هؤلاء المطرودين قد حلوا بالمغرب في ظرفية تاريخية صعبة. لاشك أن هذه العناصر المُميزة ثقافياً ستصطدم بصعوبات وعراقيل لأن الجو العام كان مشحوناً بالقلق والتخوف.

لا زلنا نجهل الكثير عن تاريخ الموريسكيين بالمغرب لأن الموضوع لم يحظ بعد بدراسات كثيرة. توجد بعض المحاولات إلا أن عددها لا يتجاوز ثلاثة أو أربعة أعمال قام بها كل من الحسين بوزينب، ومحمد رزوق وأحمد بوشارب. لاشك أن الظاهرة الموريسكية تحتاج إلى معالجة من زوايا مختلفة. وقد اخترنا أن نتناولها هنا من منظور الشخصية الوطنية. فما هي الظروف والملابسات التي عرفها المغرب زمن هذه الأقلية؟

عاش المغرب زمن سقوط غرناطة أزمة خانقة عرفت بأزمة نهاية القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر. تميزت بالمد الأوروبي والانكماش المغربي. لقد وصلت السفن التي قادها كريستوف كلومب إلى العالم الجديد

كما أشار إلى ذلك هو بنفسه في الرسالة التي بعث بها إلى إيزابيلا وفردناند عندما قال "أصحاب الجلالة! ‎!لقد استطعتم خلال هذه السنة أن تستعيدوا غرناطة وتطردوا اليهود من مملكتكم، وبعدما حققتم ذلك الحلم كلفتموني بالخروج في أسطول من إسبانيا قصد التوجه إلى الهند غرباً لا شرقاً كما جرت العادة"[5]. ففي هذا الجو المتميز باكتساح أوروبا وامتداد آفاقها، كان المغرب يعاني من ويلات أزمة حادة فرضت عليه الانكماش والانزواء وتسببت في خلخلة هياكله وضربت في العمق ذهنية الإنسان المغربي الذي سلم أمره للتأثيرات الغيبية التي قادتها الزوايا.

وصادف قرار الطرد النهائي للموركسيين في مطلع القرن السابع عشر (1609) وضعية تأزم جديد في المغرب. بدأت هذه الشدة في نهاية القرن السادس عشر واستفحلت بعد موت أحمد المنصور حيث لم تبق الصراعات منحصرة في النزاعات التي تزعمها أبناؤه بل تسربت هذه الحروب لتشمل كل الأطراف وكل الفئات الاجتماعية وازدادت شدتها بسبب طول المدة التي فسحت المجال لكل الحماقات والمغامرات فتعددت مراكز القرار وعظمت الفتنة التي اعتبرها الوفراني مصيبة عظيمة نزلت بالمغرب فانتهبت الأموال وهتكت الحرمات فأصبح المغرب عرضة للأطماع الأجنبية[6].

لقد عانى المغرب من أزمة يتحمل المسؤولية فيها الجميع، فتمزق وتعددت الفرق والشيع وغاب الأمن وكثر الدمار والخراب وكادت الشخصية المغربية أن تضمحل ويعفو رسمها على حد قول الناصري، فلم يكن من السهل على الأقلية الموركسية التي تركت أوطانها وممتلكاتها لتتخلص من عذاب الكفر والكفار فهل كان هذا الطرد خلاصاً كما ألحت على ذلك بعض المصادر، أم أنها كانت خيبة أمل.

المورسكيون في المغرب اندماج أم انعزال ؟

انطلاقاً مما سبق تبدو الظاهرة المورسكية ظاهرة معقدة تتطلب معالجتها من الباحث تحديد الزاوية التي يريد الانطلاق منها. لقد تسرعت بعض الدراسات فاعتبرت الأقلية الأندلسية بمثابة "طبقة بورجوازية مدنية"[7]. لا نعتقد أن هذا الزعم صحيح إلا أنه يدفعنا إلى طرح التساؤلات الآتية: لماذا لم تلعب هذه الأقلية دور القاطرة المحركة في التاريخ الاجتماعي المغربي رغم المهارات التي كانت تتوفر عليها؟ ثم، كيف استطاعت من جهة أخرى أن تجعل من الثقافة الأندلسية الثقافة النموذج؟

أشار المقري إلى المساهمات المورسكية حيث أظهر أن الطرد دفع بعدد كثير منهم إلى الاستقرار بالمغرب فمال المنحدرون من البوادي إلى الأنشطة الفلاحية وشاركوا أهل البوادي المغربية في هذا النشاط وعرفوا بطرق الري وأبدعوا فيها، وغرسوا الأشجار وأحدثوا الأرحى الطاحنة بالماء واستقر أهل الحواضر بالمدن المغربية ولعبوا فيها أدواراً أساسية وأما أهل الأدب والعلم فقد شكلوا أساس القاعدة الفكرية فوصل عدد كبير منهم إلى قمم المجد في هياكل الدولة المغربية. لقد أدخل الأندلسيون الناعورة إلى المغرب ومَدوا قنوات الري فيه واستغلوا ضيعاته على الطريقة التي ألفُوها في الأندلس وعرفوا بتربية دودة القز وبصناعة الحرير والصوف. وقد لاحظ الوزان ومارمول أن صناعة الأقمشة بفاس كانت من عمل الأندلسيين. كما أبرزوا أهمية صناعة الأسلحة ولا سيما الأسلحة النارية. ولقد ألح إبراهيم غانم الأندلسي في كتاب «العز والرفعة» على أهمية هذه الصناعة وبين بالملموس أن قوة وعظمة الدول ترتبط بها فأوصى بطرق بيداغوجية أصحاب القرار وحثهم على الاهتمام بهذا القطاع حتى تكون لهم المكانة المسموعة في العالم

"واعلم أن صناعة الحرب البارودية هي الآن أفضل من جميع الأسلحة الموجودة الآن لأن الناس تخاف منها أكثر [8].

فالتأثيرات الأندلسية على المغرب لا زالت واضحة في كل المجالات، حيث أصبحت بعض العادات المستوردة من جوهر الشخصية المغربية يبدو أن السلهام ذو أصل قشتالي حسب بعض الاجتهادات التي رأت أن الكلمة تنحدر من كلمة ZULAME، وكذلك الصدرية والمضمة. كما أخذ المغاربة الكثير من الأكل الأندلسي وما زالت الموسيقى الأندلسية والطرب الغرناطي يحتلان فضاء متميزاً بل يعتبران من أسس الذات المغربية. يكفينا أن نشير إلى المناسبات والأوقات التي تداع فيها هذه الموسيقى في الأعياد والأفراح وثبتها الإذاعة المغربية منذ سنوات مباشرة بعد وجبة الغذاء.

وإذا ما وقفنا عند المعمار المغربي فإننا نلاحظ أن القصور والرياضات والمساجد والمدارس قد أخذت الكثير وأن هذه المعالم تذكرنا بما كان يوجد في غرناطة وقرطبة. لاشك أن تأثيث المغاربة لمنازلهم مأخوذ بدوره عن الأندلس [9]. فالمصادر والمراجع واضحة في هذا الباب لأن الأندلسيين جاؤوا إلى المغرب واستقروا فيه مشحونين بعادات وتقاليد اكتسبوها في أوطانهم الأصلية. والسؤال هو كيف استطاعت هذه العادات وهذه التقاليد أن تهيمن لتصبح الثقافة النموذج في المغرب؟ وهل عمت كل الفضاءات وكل الفئات أم بقيت منحصرة في النخبة؟

يبدو أن عملية التأثير هذه آتية من بعيد، إلا أن الطرد الموركسي قد غير المعتاد وأظهر اختلافات بين الأندلسيين والمغاربة. كيف حصل ذلك؟ ولماذا؟ وما هي النتائج؟ لقد أفرز الطرد اتجاهين في الكتابة الإسبانية عن الموركسيين: اتجاه ديني متشدد ناصر الطرد واعتبره بنوع من التهكم

والغلظة، أمر عادي ما دام المورسكيون قد اختاروا الإسلام على المسيحية، واعتبر دعاة هذا الاتجاه ما وقع للمورسكيين عقاباً من الله والمسيح وأشاعت الكنيسة ذلك رغبة منها في تقوية مكانتها لأنها كانت تعاني من الإسلام الديني وتخاف الإسلام. وأما الاتجاه الثاني الذي كان اتجاهاً اجتماعياً واقتصادياً فقد عالج أصحابه الطرد من زاوية المصلحة الإسبانية فأبرزوا الظرفيات التي صاحبت عملية التهجير وركزوا على الخسارات الاقتصادية والاجتماعية التي أصابت إسبانيا بسبب ذلك. حيث خسرت إسبانيا كفاءات ومهارات كانت في أمس الحاجة إليها لإعطائها لأعدائها الأتراك والمغاربة.

غادرت هذه الأقلية بهدف الاستقرار على أمل ممارسة شعائرها، إلا أن الواقع المغربي قد خيب آمالها. لا نعرف بالضبط عدد الوافدين على المغرب وتقدر المصادر عددهم بأربعين ألف وقد فضل هؤلاء الوافدين الاستقرار في شمال المغرب حتى يكونوا على مقربة من أوطانهم أملاً في العودة [10]. لقد وصل هؤلاء المورسكيون بعاداتهم وبلغتهم الخاصة ومزجوا أسماءهم النصرانية بأسماء وألقاب إسلامية [11].

على عكس الفترات السابقة لم يعد المغاربة يشعرون بالثقة اتجاه المورسكيين على إثر عملية الطرد وصاروا يسمونهم "بنصارى قشتالة" ومما زاد من حقد الناس عليهم بعض التصرفات التي لم تكن مألوفة وإقحام السلطة لهم في الصراعات الداخلية خصوصاً زمن الفتنة بين أبناء أحمد المنصور. بالإضافة إلى كل هذا فإنهم كانوا يشعرون بنوع من التميز، وكانوا يظهرون تفوقهم الحضاري بل كانوا يرمون بالتعالي، كما صدرت منهم أحكام قدحية واحْتقارية في حق المغرب وملوكه وسكانه وصاروا يصيحون بحسرتهم

وخيبة آمالهم وكانوا يأسفون لمجيئهم. واستفحلت هذه الظاهرة فأثارت غضب الفقهاء فلم يترددوا في بلورة أسئلة حولها واستفتاء علماء الوقت. وتبقى الفتوى التي جاءت على لسان الونشريسي الفتوى الرمز في هذا المجال: أسنى المتاجر في بيان أحكام من غلب على وطنه النصارى ولم يهاجر وما يترتب عليه من العقوبات والزواجر[12]. توحي قراءة السؤال الوارد في الفتوى تسجيل الملاحظات التالية: استعماله لكلمات تشعر القارئ بأنه أمام حدث تكرر وتفاحش حتى أصبح ظاهرة اجتماعية تتطلب التدخل الشرعي. كما استعمل كلمات توحي ببهتان المورسكيين وتشكك في نواياهم (زعموا أنهم فروا إلى الله). فتشكك السائل ينبني وينطلق من الاطمئنان المعتمد على الآلة الشرعية ويغيب الظروف الاجتماعية ليرفض سخط المورسكيين الرافض لظروف المعاش اليومي الضاغط. فهم يشتكون من قلة الأمن وقلة العيش والسائل والمجيب لا يعطيان أهمية لهذا الجانب. لقد رفض السائل الطرح المورسكي ، هذا الطرح الساخط لا على الإسلام بل على واقع المسلمين فالشتم الذي نسب إليهم كان موجهاً لا ضد الإسلام بل ضد واقع المسلمين وان مدحهم لم يكن لصالح المسيحية بل للواقع الذي يعيشه المسيحي. لم تتكيف هذه الأقلية مع واقعها الجديد لأنها أضاعت كل الامتيازات والممتلكات التي كانت تستفيد منها في أوطانها وصارت نادمة لأنها اصطدمت بأوضاع لم تعوضها على كل ما ضاع منها. هذا ما يبرر ما جاء على لسان سائل الونشريسي عندما تكلم عن ندم المورسكيين فأورد قولتهم المشهورة :"إلى ها هنا يهاجر من هناك بل من هنا تجب الهجرة إلى هناك" [13].

لقد ركزت الدراسات على خيبة آمال المورسكيين وألحت على فكرة التعالي والشعور بالتفوق لدى هذه الأقلية اتجاه المغاربة. ويمكن اعتبار قيام

جمهورية الرباط أوج هذا الانزواء والانعزال في المجال السياسي وقد تقوى هذا الكيان الدخيل بالتحاق القراصنة الأوربيين بهم بعدما طردتهم إسبانيا من المعمورة. فشاع خبرهم والتحقت بهم الوفود واهتموا بصناعة السفن وقادوا الحروب التي أزعجت المسيحيين وأقلقت التجار، فرفضهم المغاربة واتهموهم بدعم الدخول الأجنبي إلى المغرب، وشكل مشروع معاهدة 1631 بين هذه الجمهورية وملك إسبانيا الحد الفاصل فيما بينهم وبين المغاربة. فقد أعلنوا عن رغبتهم في العودة إلى أوطانهم وصرحوا بكراهيتهم واحتقارهم للمغاربة وبينوا أنهم على استعداد لتسليم القصبة لإسبانيا ومدوا ملكها بالمعلومات اللازمة عن المغرب وكان لهذا المشروع وقع كبير على الذهنية المغربية. لا نعرف مآل هذه المعاهدة والأكيد أنها لم تقبل بسبب الشروط التي تضمنتها. والواضح أن المورسكيين كانوا مصدراً أساسياً لمعرفة واقع المغرب، وقد عملت الجاسوسية الأوربية على الاستفادة منه، وفي هذا الإطار يمكن وضع تحرك كل من العياشي والدلائيين مما أدى إلى فشل المحاولة وعمق الجراح بين هذه الأقلية وباقي سكان المغرب وزاد من انعزالها وانكماشها كما يظهر ذلك من الدراسة التي تقدم بها محمد بركَاش [14] وأعطاها عنواناً معبراً "عائلة في قلب التاريخ" لم يحدد عن قصد أي تاريخ لأنه يعتقد أن تاريخ عائلة بركَاش يتجاوز تاريخ المغرب لأنها تحملت من هذا المنظور مسؤوليات تجاوزت الحدود المغربية "في هذا الموضوع سوف أقدم - يقول المؤلف - تاريخ بعض الأندلسيين، أولئك الذين استطاعوا تجاوز الأغلبية وتميزوا بالمُساهمات الفعالة، أولئك الذين نظموا المورسكيين بالرباط وحاولوا أن يهيؤوا لهم الظروف ليعيشوا عيشة هنية على غرار أجدادهم في الأندلس يوم كانت في عظمتها"[15]. فالهدف الذي يجري من ورائه هو إظهار مساهمات هذه العائلة من أجل صيانة السيادة المغربية والمشاركة في النهضة الرباطية،

غايته إعطاء المكانة اللائقة بالرباطيين والعمل على التعريف بهم حتى يعترف لهم بما أنجزوه ويعرفون على حقيقتهم. لم يتردد في الرجوع إلى الوثائق العائلية ليستخرج أصل الأسرة المنحدر من عائلة نبيلة إسبانية. وجاء الكتاب كله لرد هذا الاعتبار.

والمثير في المؤلف هو استعمال صاحبه لدراسة باحثة كندية عن الرباطيين اعتمدت فيها على الرواية الشفوية لتظهر فيها بناء على عمل إيتنوغرافي أنتروبولوجي أن الرباطيين يميزون ما بين الرباطي الأصيل ويقصد به الرباطي المنحدر من الأصل الأندلسي ذو القامة القصيرة واللون الأشقر المومن بأنه متميز عن باقي السكان، يشعر بالتعالي والتفوق ويومن بأنه أكثر حضارة وأنه متأصل ثقافياً ويحتقر الآخرين ولا يود الاختلاط بهم. أسر مغلقة لا تتزوج إلا فيما بينها وتسهر على تلقين أبنائها هذا السلوك حتى تستمر العادة ويستمر الانعزال.

استنتاجات وخلاصات

يبدو لي أن الهجرة أمر معهود في تاريخ المغرب وأن المغاربة قد قبلوا بالاتصالات والتلاقحات الثقافية ورفضوا الخضوع والسيطرة بالقهر. استطاعت الثقافة الأندلسية أن تصبح الثقافة النموذج لأنها انبنت على الإرادة السياسية المغربية على عهد المرابطين والموحدين وتجدرت في النخبة مع المرينيين عندما بدأ المغرب يبتعد عن الأندلس وتخلت الدولة عن اتخاذ المبادرة في هذا القطر الإسلامي فازدادت الهجرة من جراء الخوف وانتقلت مجموعات بشرية هائلة إلى المغرب وعن طريقها تعمق النموذج الأندلسي الذي كان نموذجاً إسلامياً. بحكم تعامل هذه الأقلية وتحالفها مع السلطة

استطاعت أن تجعل من ثقافتها ثقافة المركز رامية إلى الأطراف الثقافات المحلية.

لكن الطرد الموريسكي الذي عاصر زمن الشدة في المغرب أحدث تغيرات في الذهنية المغربية التي أصبحت لا تثق في هذه العناصر لأنها جاءت مشحونة بأحكام مسبقة واتخذت مواقف معادية للمغرب والمغاربة فانعزلت هذه الأقلية وتحصنت لكن تأثيرها استمر بحكم مهاراتها وكفاءاتها ولجوء السلاطين إلى خدماتها فاتجه النموذج الأندلسي إلى النخبة. مع مرور الوقت تجدرت النخبة الموريسكية في الجهاز وفي المؤسسات ومن تم استطاعت أن تجعل من عاداتها ومن ثقافتها المرجع. فالحنين إلى الأندلس المُغَنَّى به إلى اليوم يدخل في إرادة التمجيد لهذه النخب ولثقافاتها على حساب الثقافات الأخرى. يوحي هذا المسار المبسط إلى المراحل التي قطعتها ثقافة الموريسكيين والسبل التي استعملتها لتفرض بالتدريج وعن طريق التقليد للحكام وللنخبة، أسلوب عيشها على الواقع المغربي. لا ننسى أن هذه الثقافة هي جزء لا يتجزأ من هويتنا وعنصر أساسي في تكوين شخصيتنا إلا أنها ليست الوحيدة ومن تم يكون بناء الشخصية الوطنية مشروطاً بالانفتاح على الثقافات الأخرى المهمشة تاريخياً.

الهوامش

1) عبد المجيد القدّوري، «المغرب وأوروبا ما بين القرنين الخامس عشر والثامن عشر» (مسألة التجاوز)، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء/ بيروت، 2000، ص، 344.

2) أبو سالم العياشي، الرحلة العياشية، ماء الموائد، الرباط، 1977 في جزءين.

3) يمكن التمييز بين ثلاثة اتجاهات في هذه الكتابة:

- الاتجاه الإيتنوغرافي الذي انبنى أساساً على الأعمال الميدانية فجمع معلومات هامة عن المجتمع المغربي، يمكن الرجوع مثلاً إلى اعمال إديموند دوتي.

- الاتجاه الإديولوجي الذي وجه المادة ووظفها وفق المشروع الاستعماري، ميشو بلير أو هنري تيراس.

- الاتجاه الجامعي الذي أعطى دراسات جيدة: لويس ماسنيون.

4) ركز بروديل على أهمية الأقلية اليهودية في بناء القوة الهولندية.

" Ce ne fut qu'en 1612 qu'à l'imitation des juifs réfugiés chez eux, qui avaient dit-on établi des comptoirs partout, les hollandais commencèrent à en former et à naviguer dans toute la Méditerranée "

F.BRAUDEL, "La Méditerranée et le monde méditerranéen à l'époque de philippe II", Paris, 1966, Tome 2, p. 578.

للمزيد يمكن الرجوع إلى الكتاب الجيد:

Simon SCHAMA, The Embarrassement of Riches an Interpretation of DUTCH Culture In the Golden Age. Fontana - Press, 1988

5) CRISTOPHE Colomb, La decouverte de l'Amérique Journal du bord 1992-1993, Paris, 19984, TI p, 31-1.

6) الإفراني، «نزهة الحادي»، 1881، ص. 227.

7) أنطونيو هورتز وبرنارد بنثنت، «تاريخ مسلمي الأندلس: الموريسكيون... حياة ومأساة أقلية»، ترجمة عبد العالي صالح طه، الدوحة، دار الإشراق، 1988ص. 270.

8) إبراهيم بن أحمد غانم بن محمد بن زكريا الأندلسي، «العز والرفعة والمنافع للمجاهدين في سبيل الله بالمدافع»، مخ، خ. ع. ج 87، ص. 22، ترجمه إلى العربية أبو القاسم الحجري الأندلسي.

9) يمكن الوقوف عند النوافذ على الشوارع أو عند الأبواب المزينة بالمسامير فهذه عادات لم تكن معروفة من قبل.

10) Miguel Angel De Bunes IBARRA "La imagen de los musulmanes y del Norte de AFRICA en la espana de los sigles XVI y XVII, los caracteres de una hostalidad" espa Consejo Superior de Investigaciones Cientificas, Madrid, 1989, p. 131.

11) نماذج من البيوتات الرباطية وإن كان البعض منها قد انقرض: بركاش - بلانبو - بيريس - بيرو - بلانكو - كيليطو - الرندة - كراكشو - لميرو - لباريس - مارسيل - مولاطو - مرينو - تمورو - جوريو - فنجيرو - سباطة - الأبيض - فنيش.... إلخ.

12) أبو العباس أحمد بن يحي الونشريسي، «المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب» بيروت، 1981، ج 2، ص. 119.

13) الونشريسي، المعيار، ج 2، ص. 119.

14) Mohammed BARGACH, "Une famille au cœur de l'histoire", Casablanca, 1998.

15) محمد بركاش، المرجع نفسه، ص. 7.

أوْلاد النقْسيس، الأسرة الأندلسية التي حكمت تطّاون حوالي قرن

(من خلال وثائق إسبانية معاصرة للأحداث)

محمد ابن عزّوز حكيم

اختياري لموضوع هذه المداخلة يعود إلى أسباب ثلاثة

أولاً لأن اهتمامي بالتاريخ ينحصر في شمال المغرب اعتقاداً مني بأن إعادة كتابة تاريخ المملكة ككل يحتاج إلى إيجاد دراسات مونوغرافية تخص ناحية من نواحي المغرب أو أسرة من أسره أو شخصية من الشخصيات التي ساهمت في صنع تاريخنا الوطني.

ثانياً لأنني أريد إقامة الدليل على أنه لا مفر لنا من الاعتماد على المصادر والمراجع والمستندات والوثائق الأجنبية التي نجد فيها معلومات مفيدة وفريدة لم نجد لها ذكر في المصادر والمراجع والمستندات والوثائق المغربية أو نجدها غامضة أو غير مدقّقة أو مغلوطة.

ثالثاً لأنه لا يصح تعميم ما يردّده عامة الباحثين في موضوع الأندلسيين الذين هاجروا إلى المغرب حيث يقولون إنهم استقبلوا بالرفض وتعرضوا للنهب والتقتيل، والحالة هذه أن الأندلسيين الذين تعرضوا لذلك هم الذين انخرطوا في الجيش المغربي أو اشتغلوا بالسياسة، ومن جراء ذلك

كانوا يتدخلون في النزاعات القائمة بين المغاربة للحصول على مناصب حكومية وحتى الاستيلاء على العرش، وجلهم كانوا ممن لجأوا إلى جنوب المغرب.

وأما الذين اختاروا شمال المملكة مقراً لهم فجميع القرائن تدل على أنهم لم يتعرضوا لأي نوع من أنواع المضايقات، بل أنهم استقبلوا من لدن سكان الناحية بحفاوة وعطف، خصوصاً منهم الذين استوطنوا البادية بحكم أنهم كانوا من سكان البادية بالأندلس.

ولدينا من الأدلة ما يفيد أن الفلاّح منهم وجد أراضي بور تولى إحياءها ووجد الكساب منهم مجالاً لتربية الماشية، كما وجد الصانع منهم ميداناً لمزاولة حرفته.

بل نتوفر على عدة تقاييد تفيد أن الفضل يعود إلى الأندلسيين في تحضير وتمدين كثير من القريات الواقعة على شاطىء البحر المتوسط مثل: الفنيدق، المضيق، الملاليين، مرْتين، أمسا، وادي لاو، قاعسراس، ترغة، تيگساس، تاغصا، الجبهة، مسطاسي، بادس، قلعة صنهاجة، تمسمان، وغصاصة.

والأندلسيون هم الذين شيّدوا أو رمّموا الأبراج الواقعة على ضفة البحر الأبيض المتوسط، مثل برج الفْنيدَق، رأس الطرف، القلاّلين، وادي لاوْ، قاعسراس، ترغة، تاغصا، الجبهة.

وهناك حجج تثبت أنهم تمكّنوا من الانصهار مع سكان القبائل الشمالية وبخاصة قبائل غمارة لدرجة أنهم أثروا في حياة القبائل المذكورة، في عاداتهم وأعرافهم وطقوسهم، بل وحتى في لهجتهم الدارجة.

وخير دليل على أن الأندلسيين الذين اختاروا شمال المغرب لاستقرارهم لم يتعرضوا للمحن التي تعرض لها غيرهم في مناطق أخرى، هو أن الفقيه الغماري - وهو من أصل أندلسي - محمد بن العباس بن عبد الله برهون الذي توفي بقرية تاغصا سنة 1826/1241 يقول في مخطوطه «زبدة التقاييد الجلية في أخبار الهجرة الأندلسية» [1] أنه وجد في القبائل الخمسة الموالية للبحر الأبيض المتوسط 143 أسرة أصلها من الأندلس وجلّها تحمل أسماء عائلية إسبانية [2]، في حين أنني عندما قمتُ سنة 1951 ببحث ميداني بالقبائل الغمارية العشرة [3]، وجدت أن الأسر الميسورة والتي لها مكانة مرموقة وكلمتها مسموعة في تلك القبائل أصلها أندلسي وجل أسمائها العائلية إسبانية وعددها 385 عائلة.

ولم يكن وضع الأندلسيين الذين اختاروا مدن الشمال لاستقرارهم يختلف عن وضعية الذين استقروا بالبادية، بدليل أننا نجد الأمير مولاي علي ابن راشد مؤسس مدينة شفشاون سنة 1471/876 [4] قد اعتمد على الأندلسيين الذين غادروا غرناطة قبل سقوطها سنة 1483/888 في إعادة بناء تطاون المخربة من طرف البرتغاليين سنة 1437/841.[5] كما اعتمد عليهم في إنشاء حومتي الخرازين وريف الصبانين بمدينة شفشاون [6].

والجدير بالذكر أن عناصر الهجرة الأندلسية الثانية التي جرت على إثر سقوط غرناطة [7] هم الذين قاموا بتوسعة مدينة تطاون - حومة البلد - سنة 1493/898 بقيادة القائد الغرناطي سيدي علي المنظري [8] في حين تولت فرقة أخرى منهم إنشاء حومة ريف الأندلس بمدينة شفشاون [9].

وأما الهجرة الثالثة التي جرت نتيجة لقرار الطرد الذي أصدرته الملكة إيسابيل الكاثوليكية يوم 14 فبراير 1502 [10] فقد تولى عناصرها إنشاء حومة الرباط السفلي بتطوان وحومة العنصر بشفشاون [11].

وعناصر الهجرة الرابعة التي وقعت على إثر ثورة البشارات سنة 1571/979 [12] هم الذين أنشأوا حومة الطرانكات بتطاون [13].

وأخيراً كانت هجرة الأندلسيين الذين طردهم الملك فيليبي الثالث سنتي 1018 /1609-1610 وهم الذين أسسوا حومة رباط الأندلس التي تعرف اليوم بحومة السانية [14].

وإذا كانت الأدلة التي سبق ذكرها غير كافية لإقامة الدليل على أن الوضع الذي كان عليه أهل الأندلس الذين استقروا بشمال المغرب يختلف عما كان عليه الذين اختاروا نواحي أخرى من البلاد، فهناك دليل قاطع على صحة ذلك وهو موضوع مداخلتي هذه.

أعني بذلك وضعية أسرة أندلسية حكمت تطاون وناحيتها لمدة قرن من الزمن من سنة 985 إلى سنة 1578/1084-1673 وهي أسرة أولاد النقسيس، هذه الأسرة التي كان من الضروري أن نلجأ إلى المصادر والمراجع والمستندات الإسبانية لنتمكن من تصحيح ما يوجد حولها من أخطاء وتناقضات في المصادر والمراجع المغربية.

وهنا يجب أن نقول إن أقدم مصدر مغربي تناول تاريخ أسرة أولاد النقسيس هو مخطوط «نزهة الإخوان وسلوة الأحزان في الأخبار الواردة في بناء تطوان» [15] للفقيه التطاوني عبد السلام بن أحمد السكيرج الذي لم يذكر لنا المصدر أو المصادر التي اعتمد عليها، وهذا ما يجعلنا نعتقد أنه اعتمد فقط على الرواية الشفوية، والحالة هذه أنه توفي سنة 1834/1250، أي بعد انقراض أسرة النقسيس بـ 160 سنة.

والمصدر الثاني هو مخطوط «عمدة الراوين في تاريخ تطاوين» [16] للعلامة أحمد بن محمد الرهوني المتوفى سنة 1953/1373 الذي يعترف صراحة

بأن مصدره الوحيد في موضوع أولاد النقسيس هو مخطوط السكيرج حيث يقول :«لم اطلع على شيء مبين تمام التبيان عند غير السكيرج بخصوص أولاد النقسيس، فلذا نقتصر على نقل ما عنده في ذلك».

والمصدر الثالث هو كتاب «تاريخ تطوان» [17] للأستاذ محمد بن أحمد داود، المتوفى سنة 1984/1404 الذي يقول ما يلي [18] «لم نقف على كلام جامع لأسمائهم وأخبارهم».

والحق يقال أنه لم يكن في وسع كل من السكيرج والرهوني وداود الإتيان بأكثر مما جاؤوا به لعدم توفرهم على المصادر والمراجع والمستندات والوثائق الأجنبية ، خاصة منها البرتغالية والإسبانية، التي بدونها لا يمكن بحال من الأحوال إعادة كتابة تاريخ شمال المغرب في القرن الخامس عشر والسادس عشر والسابع عشر الميلادي.

وشاء القدر أن تمكّنت من الاطلاع على كمية مهمة من الوثائق والمستندات التي دلني على وجودها سنة 1957 كل من الدكتور كيير موگو اسطافينو، مدير الخزانة الوطنية الإسبانية، والدكتور كارلوس خوليا الباحث بالأرشيف العام بسيمانكاس، والدكتور ماريانو اريفاس الباحث بالأرشيف التاريخي الوطني بمدريد.

يتعلق الأمر بوثائق إسبانية فريدة ومهمة للغاية تخص عمليات افتداء الأسرى النصارى التي قامت بها 25 بعثة مسيحية زارت تطاون في عهد أولاد النقسيس، وهي عبارة عن تقارير ومحاضر ومراسلات توجد ملفاتها

1- بالخزانة الوطنية بمدريد [19]، قسم المخطوطات وتحمل الأرقام التالية

رقم 6569، سنة 1579

رقم 3870، سنة 1615

رقم 3588، سنة 1583

رقم 3628، سنة 1635

رقم 2791 ، سنة 1607

رقم 6160 ، سنة 1640

رقم 4390، سنة 1609

رقم 4365، سنة 1645

رقم 3862، سنة 1612

رقم 3631، سنة 1648

2- بالأرشيف التاريخي الوطني بمدريد [20] قسم المخطوطات القديمة حيث تحمل الأرقام التالية

رقم B124 ، سنة 1614

رقم B134 ، سنة 1646

رقم B121 ، سنة 1621

رقم B137 ، سنة 1654

رقم B127 ، سنة 1625

رقم B136 ، سنة 1656

رقم B123 ، سنة 1632

رقم B142 ، سنة 1669

رقم B129 ، سنة 1633

رقم B134 ، سنة 1673

رقم B129 ، سنة 1636

رقم B143 ، سنة 1674

رقم B130 ، سنة 1637

رقم B144 ، سنة 1677

رقم B131 ، سنة 1639

3- مخطوط فريد للمؤرخ البرتغالي أليخاندرو كوريا ذي فرانكا، عنوانه: «Historia de Ceuta» «تاريخ سبتة»، يحمل رقم 9741 في قسم المخطوطات بالخزانة الوطنية بمدريد، اطلعت عليه سنة 1957، وقد توصلت منذ أسبوع بصورة منه تحتوي على 570 صفحة.

والجدير بالذكر أن بعض الوثائق المذكورة سبق أن استثمرها الباحث الإسباني مانويل سيرانو سانث في بحث يحمل عنوان La redencion de cautivos por los religiosos mercedarios durante los siglos XVII Y XVIII «تحرير الأسرى من لدن الرهبان خلال القرنين السابع والثامن عشر» المنشور بمجلة Revista Contemporanea الصادرة بمدريد سنتي 1893 و1894.

كما سبق للباحث الإسباني گييرمو گوتالبيس بوسطو أن اطلع على الوثائق المذكورة واستغلها في تحرير الفصل السابع من كتابه : Los Moriscos en Marruecos «المورسكيون بالمغرب» طبع بغرناطة سنة 1992، غير أنه لم يستثمر تلك الوثائق كما يجب ، والسبب في ذلك كما صرح لي به هو أنه لم يكن لديه الوقت الكافي ليتمكن من قراءة جميع المحاضر والتقارير والمراسلات التي تشتمل عليها الملفات المذكورة وهذا صحيح لأنه عندما قمت قبله سنة 1957 بدراستها ووضعت لها مآت الجدادات لمعلوماتها الدقيقة والمفيدة كلفني ذلك تسعة أشهر.

وفيما يلي حصيلة المعلومات التي استخرجتها من الوثائق المذكورة والتي لم نجد لجلها ذكر في أي مصدر أو مرجع مغربي

1- إن أسرة أولاد النقسيس أصلها أندلسي وهي حقيقة يشك في صحتها جل الباحثين دون الإتيان بأية حجة وثائقية تثبت كلامهم، في حين نجد في بعض تقارير الرهبان الذين باشروا عملية افتداء الأسرى النصارى بتطاون أنهم يصفون أولاد النقسيس بالمورسكيين [21].

يستنتج من ذلك أن أولاد النقسيس عندما هاجروا من الأندلس فضلوا الاستقرار أول مرة بالبادية حيث اختاروا قبيلة بني يدر [22] وبها أسّسوا مدشر النقاقسة [23]، وحوالي سنة 1572/980 انتقل فريق منهم إلى تطوان.

2- إن الشجرة الحقيقية لأولاد النقسيس البارزين هي التي قمت بوضعها اعتماداً على وثائق الرهبان وسوف تلاحظون أنها تختلف تماماً عن الشجرات التي جاء بها كل من السكيرج والرهوني وداود وجبور [24] وبوسطو[25]

3- إن منطقة نفوذ أولاد النقسيس كانت تضم قبائل الحوز، أنجرة، الفحص، وادراس، بني منصور، جبل حبيب، بني يدر، بني حزمر، بني سعيد.

4- تمكنت من ضبط التواريخ التي حكم فيها تطاون وناحيتها كل فرد من أفراد الأسرة وعددهم 13 مقدم [26]، الأمر الذي مكنني من تصحيح كثير من الأخطاء التي وقع فيها السكيرج والرهوني وداود ومن اعتمد عليهم فيما بعد

5- إن المقدّم أحمد بن عيسى النقسيس الأول ساعد مساعدة كبيرة الأندلسيين الذين طردهم الملك الإسباني فيليبي الثالث سنتي 1609 و1610 وهم الذين أنشأوا الحومة التي كانت تعرف برباط الأندلس وتسمى اليوم حومة السانية بتطاون [27].

6- إننا تعرفنا على طبيعة علاقة أولاد النقسيس مع السلطات المركزية من جهة ومع أمراء الجهاد المحلّيين مثل المجاهد العياشي [28] والمجاهد الخضر غيلان [29]، والزاوية الدلائية [30] من جهة أخرى.

7- إننا عرفنا أسماء القواد الذين كانت تعينهم السلطات المركزية وأمراء الجهاد بجانب كل واحد من الحكام النقسيسيين طيلة قرن من الزمن[31].

8- إننا تمكنا من ضبط طبيعة العلاقات التي كانت لبعض حكام النقسيسيين مع الدول الأجنبية مثل هولاندا وأنكلترا وإسبانيا من جهة ومع الحكام البرتغاليين بمدينتي سبتة وطنجة من جهة أخرى [32].

9- إننا استطعنا تسجيل الأحداث والحوادث التي جرت بتطاون وناحيتها في عهد أولاد النقسيس، والتي لم نجد لها ذكر في المصادر المغربية المعاصرة للأحداث، وبذلك تمكنا من ملء الفراغ الموجود في تاريخ المغرب في القرن السادس عشر والسابع عشر الميلادي [33]

10- إننا اطلعنا على المجهود الجبار الذي بذله أولاد النقسيس في الدفاع عن حوزة الوطن حيث تمكّنوا من محاصرة ومهاجمة الثغور المحتلة من طرف البرتغال وإسبانيا، لدرجة أنهم حاولوا إقامة حلف مع أنكلترا من أجل استرجاع مدينة سبتة السليبة من يد إسبانيا، وهذا ما جعلهم يستحقون لقب «مقدمين» أي مقدمي الجهاد [34].

وأهمية المجهود الجبار الذي بذله أولاد النقسيس في الدفاع عن حوزة الوطن تكمن في الظروف الخطيرة والمضطربة التي عرفها المغرب بعد وفاة المنصور الذهبي حيث انهارت الدولة السعدية وعاشت البلاد اضطرابات كبيرة حيث لم يعد هناك استقرار بسبب نزاعات أبناء المنصور على الحكم ، وكان

الشعب يتخبط في مشاكل اجتماعية واقتصادية لا حدّ لها من جراء الجفاف والأوبئة والمجاعة، وكان ذلك في وقت كانت فيه البلاد تحتاج إلى من يدافع عن حوزتها ووحدتها المهددة بالخطر الذي تكونه تدخلات الأتراك من جهة والإسبان من جهة أخرى.

11- ومن أهم نتائج الجهاد الذي أخذه أولاد النقسيس على عاتقهم أنهم تمكنوا من تحرير القبائل المجاورة للمدن المحتلة، سبتة وطنجة بصفة خاصة، من أداء الجزية التي كانت مفروضة عليهم من طرف الحكام البرتغاليين والإسبانيين نتيجة اتفاقيات الهدنة التي كان السلطان محمد الشيخ الوطاسي قد أبرمها مع البرتغال منذ أن سقطت مدينتي أصيلا وطنجة سنة 1471 (35).

12- إن أولاد النقسيس قد أولوا اهتماماً بالغاً لأمرالجهاد البحري حيث اتخذوا من بعض المراسي مثل المضيق ومرتين وأزلا وأمسا وقاعسراس وترغة وتيكساس قواعد لسفنهم الجهادية ينطلق منها الأندلسيون الذين استقروا بالقبائل الشاطئية لمطاردة السفن الإسبانية والبرتغالية والقيام بحملات عديدة ضدّ المدن الإسبانية الشاطئية (36).

13- وقد نتج عن النشاط الجهادي البحري المكثف ازدهار تجارة الرقيق الأبيض، حيث نعلم أنه في عهد أولاد النقسيس تمت على الأقل 25 عملية افتداء الأسرى النصارى بتطاون من سنة 986 إلى سنة 1084/1578-1673، وقد فاق عدد الأسرى الذين تم تحريرهم 3000 نفر.

14- إننا استخرجنا من وثائق الرهبان التي نحن بصددها مآت الأسماء العائلية للأسر الأندلسية التي كانت بتطاون وناحيتها في عهد أولاد النقسيس، هذه الأسر التي انقرض جلها حيث لم نجد لها ذكراً في الوثائق المغربية التي نتوفر عليها (37).

15- إننا تعرفنا على كثير من المهن والحرف التي كان يزاولها سكان تطاون في عهد أولاد النقسيس مثل صناعة الأسلحة النارية والبيضاء، وصناعة الورق والحرير والجلد وإصلاح السفن [38].

وفيما يلي قائمة أفراد أسرة النقسيس الذين تولوا حكم تطاون وناحيتها من سنة 985 إلى سنة 1084/1578-1673

1- عيسى الأول
2- أحمد بن عيسى الأول
3- محمد الأول
4- عبد الله بن أحمد بن عيسى الأول
5- أحمد الثاني بن أحمد بن عيسى الأول
6- الحاج محمد الثاني بن أحمد بن عيسى الأول
7- عيسى الثاني بن أحمد بن عيسى الأول
8- عبد الكريم الأول بن أحمد بن عيسى الأول
9- محمد الثالث بن عيسى الثاني بن أحمد بن عيسى الأول
10- عبد الكريم الثاني بن عيسى الثاني بن أحمد بن عيسى الأول
11- أحمد الثالث بن عيسى الثاني بن أحمد بن عيسى الأول
12- أحمد الرابع بن عبد الكريم بن عيسى الثاني بن أحمد بن عيسى الأول
13- مفضل بن أحمد الثالث بن عيسى الثاني بن أحمد بن عيسى الأول

الهـوامش

1) مخطوط يوجد في خزانة ابن عزوز حكيم

2) أنظر دراستي في كتاب Historia del paso de Gibraltar سنة 1995 صفحة 255-269

(3) وهذه القبائل هي بني گرير، بني سميح، بني رزين، متيوة، بني خالد، بني منصور، بني زيات، بني سلمان، بني بورزة، بني زجل.

(4) أنظر كتابي «مولاي علي ابن راشد، مؤسس شفشاون»، الجزء الأول من تاريخ شفشاون، تطاون 1998.

5) أنظر كتابي «الجديد في تاريخ تطاون»، الجزء الأول الخاص بحكام تطاون، تطاون 2000، صفحة 25.

6) كتاب «مولاي علي ابن راشد»، صفحة 81.

7) نفس المرجع ، صفحة 108.

8) «الجديد في تاريخ تطاون»، صفحة 52.

9) كتاب «مولاي علي ابن راشد» صفحة 112.

10) نفس المصدر صفحة 132.

11) نفس المرجع.

12) كتاب «الجديد في تاريخ تطاون»، ص، 94.

13) توجد بتطاون حومة خارج السور تعرف بحومة بوجراح وهو تحريف لكلمة Alpugarras وهو اسم ناحية بغرناطة بالأندلس.

14) أنظر «الجديد في تاريخ تطاون» ، صفحة 101.

15) مخطوط يوجد جزء منه بخزانة الأستاذ داود وجزء آخر بخزانة ابن عزوز حيكم، وقد قام بترجمته إلى الإسبانية الترجمان كيمينطي ثيرديبرا في الثلاثينيات ويوجد تحت الطبع بمدريد.

16) مخطوط لم يطبع منه إلاّ الجزء الأول بتطاون سنة 1998، وقد سبق لابن عزوز حكيم أن وضع ترجمة موجزة للمخطوط إلى اللغة الإسبانية، طبعت بتطاون سنة 1953.

17) طبع منه تسعة أجزاء بتطاون.

18) الجزء الأول صفحة 173، طبع بتطاون سنة 1984.

19) Biblioteca Nacional-Madrid

20) Archivo Historico Nacional-Madrid

21) ورد ذلك في كثير من المحاضر المحررة من طرف الكتاب الذين كانوا يرافقون الرهبان.

22) هناك من يقول خطأ أنهم أتوا إلى تطاون من قبيلة بني حزمر.

23) تجدر الإشارة إلى أن هناك فريق استقر بقبيلة البدور بالقرب من أصيلا وأسس هناك مدشر يعرف بالنقاقشة (بالشين).

24) في دراسة له حول أولاد النقسيس اعتمد فيها على السكيرج والرهوني.

25) في كتابه Los Moriscos en Marruecos.

26) «المقدم» هو اللقب الذي كان يعرف به حكّام من أولاد النقسيس، ولا زالت الزنقة التي كانوا يسكنون بها تعرف بزنقة المقدم.

27) أنظر تعليق 14.

28) «الحركة العياشية» عبد اللطيف الشاذلي، الدار البيضاء 1982.

29) كتاب El Jadir Gaylan cabecilla del Norte de Marruecos لابن عزوز حكيم، تطوان 1972.

30) الزاوية الدلائية، محمد حجي، الرباط 1964.

31) أنظر كتاب «الجديد في تاريخ تطاون».

32) أنظر مجموعة S.I.H.M

33) تفاصيل الحوادث المذكورة نوردها في الجزء الثاني من كتاب «الجديد في تاريخ تطاون» الذي يوجد تحت الطبع.

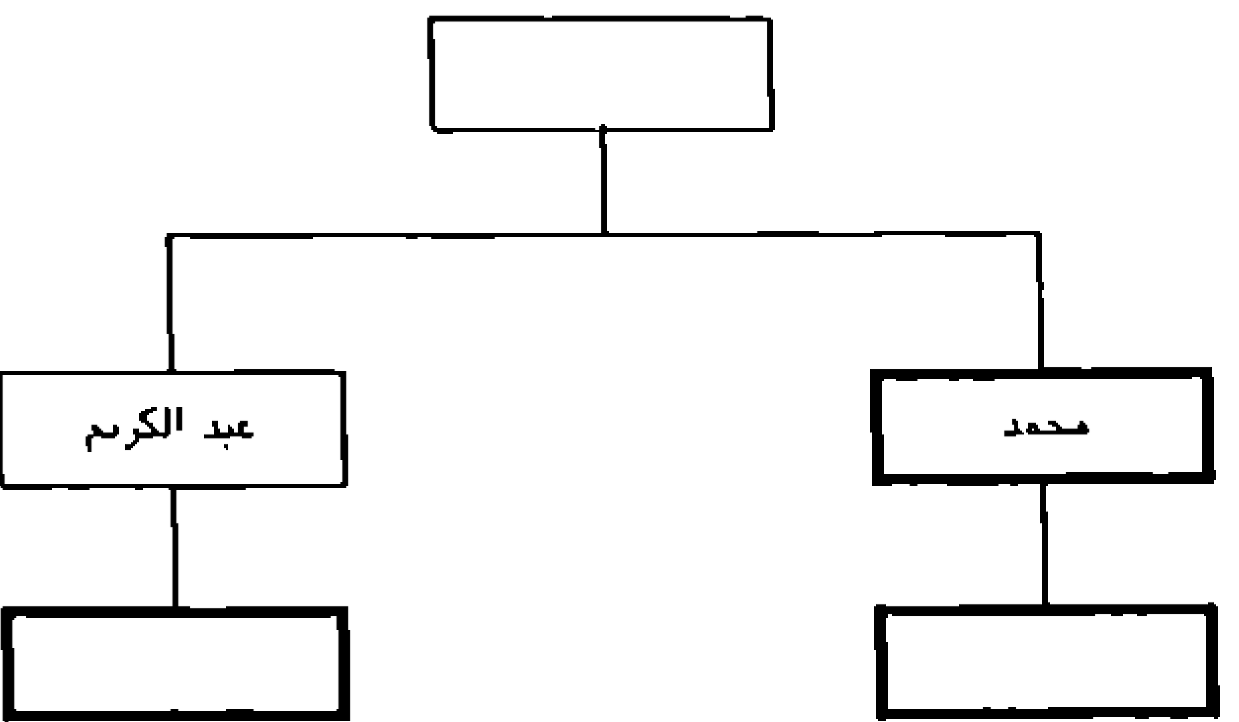
34) أنظر تعليق 26

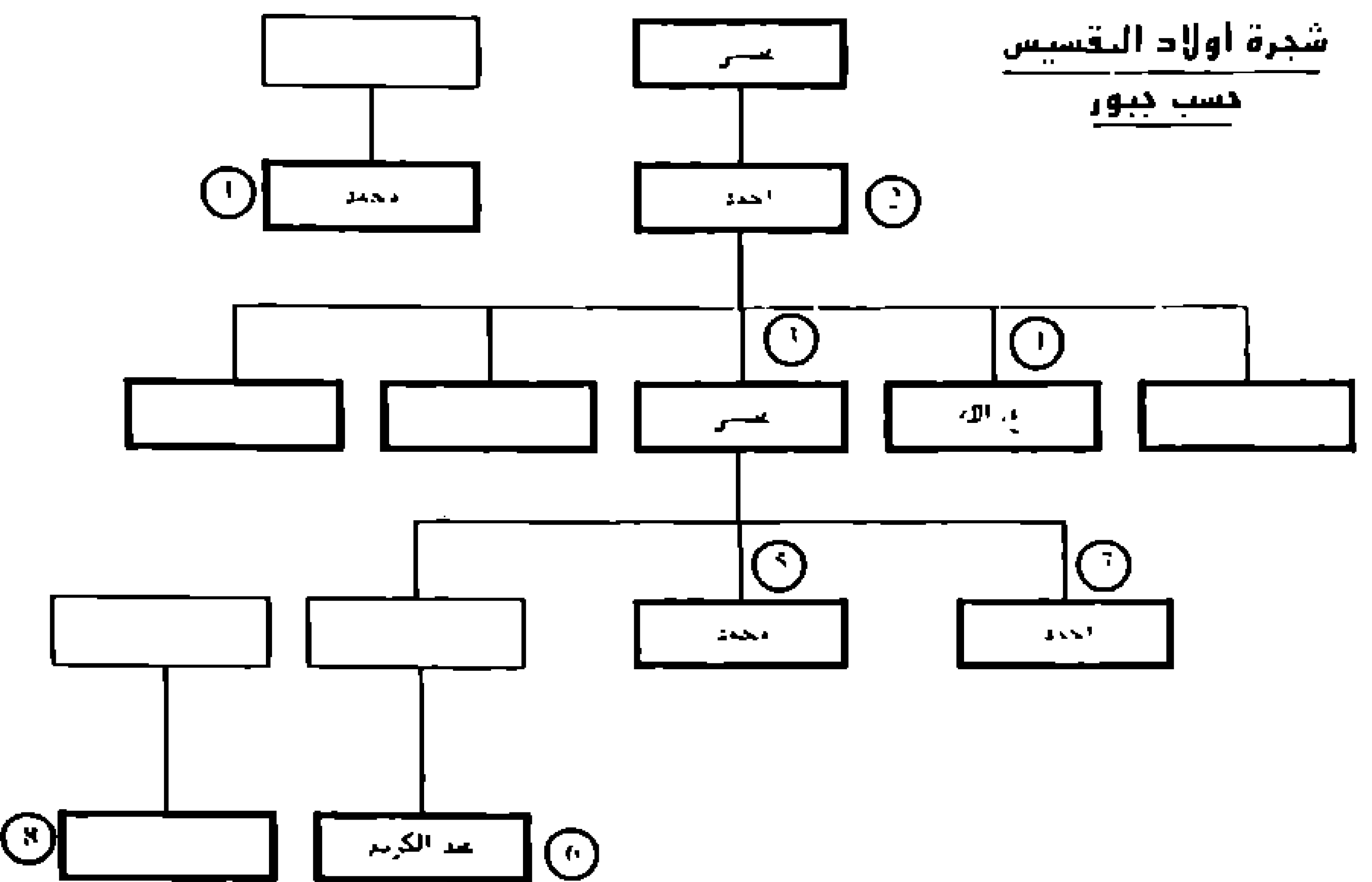
35) أنظر كتاب «مولاي علي ابن راشد» صفحات 46 و94 و129.

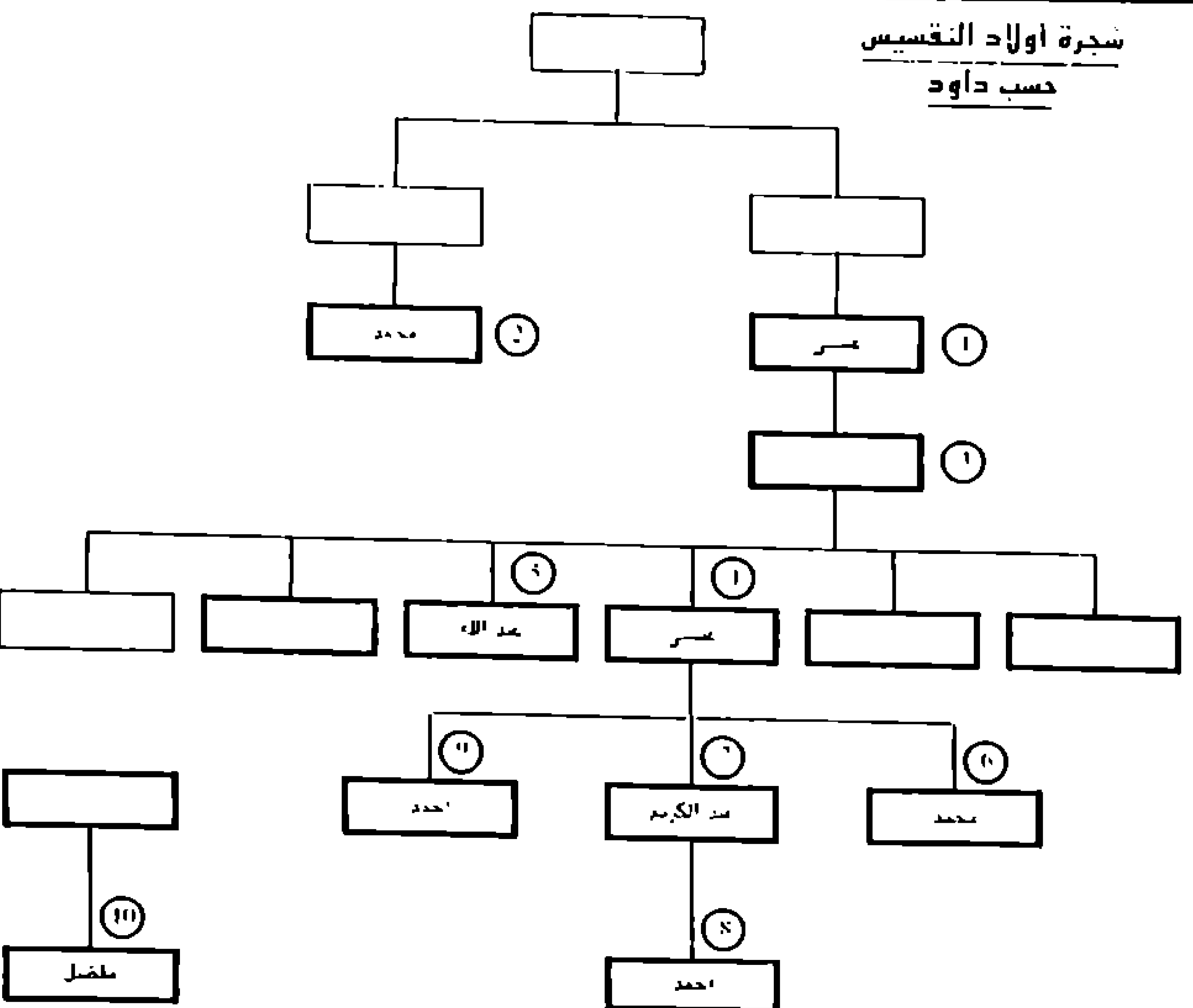
36) مخطوط بالخزانة الوطنية بمدريد رقم 9741

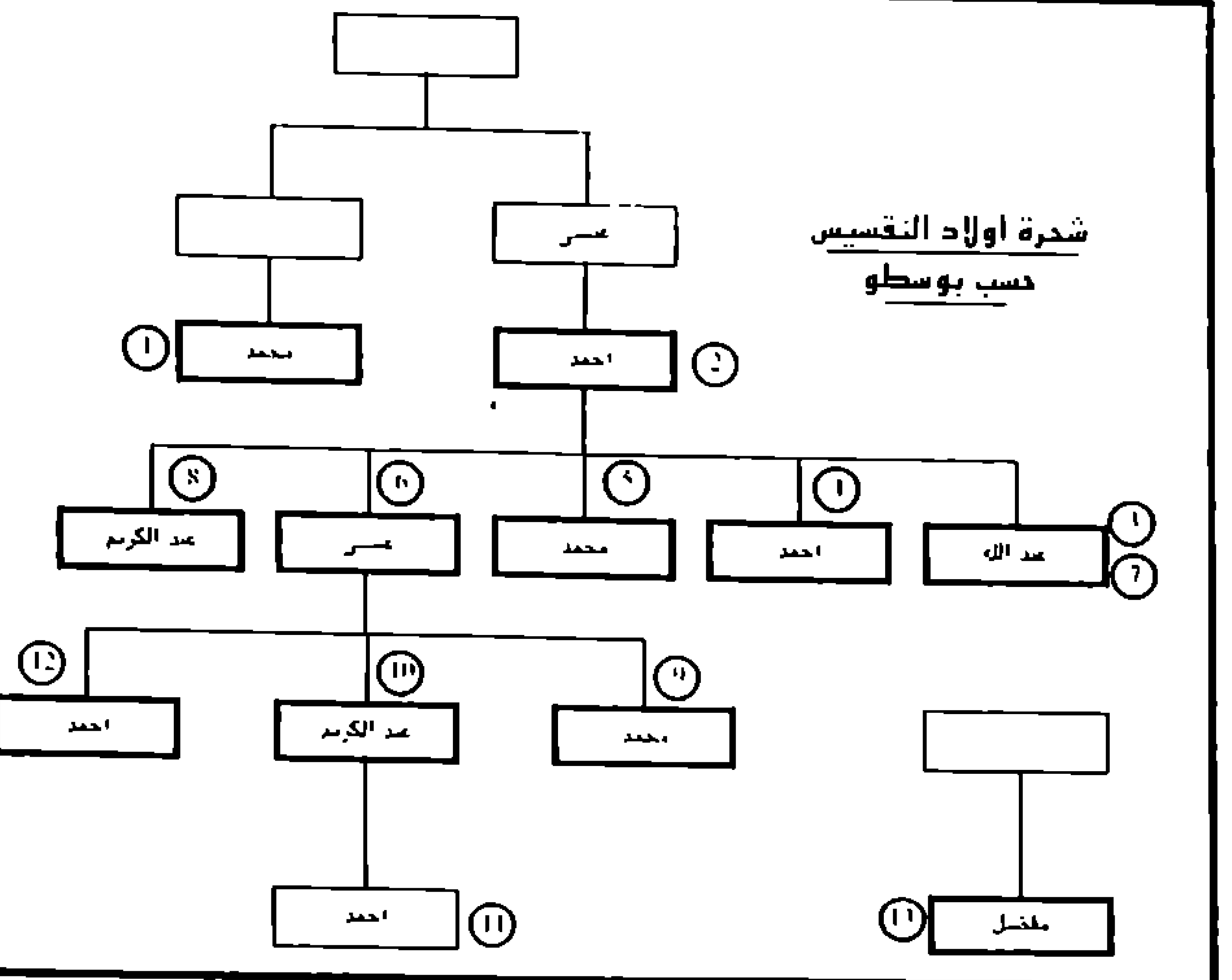
37) أنظر كتاب «كشاف أسماء عائلات تطاون» ابن عزوز حكيم، تطاون 1999.

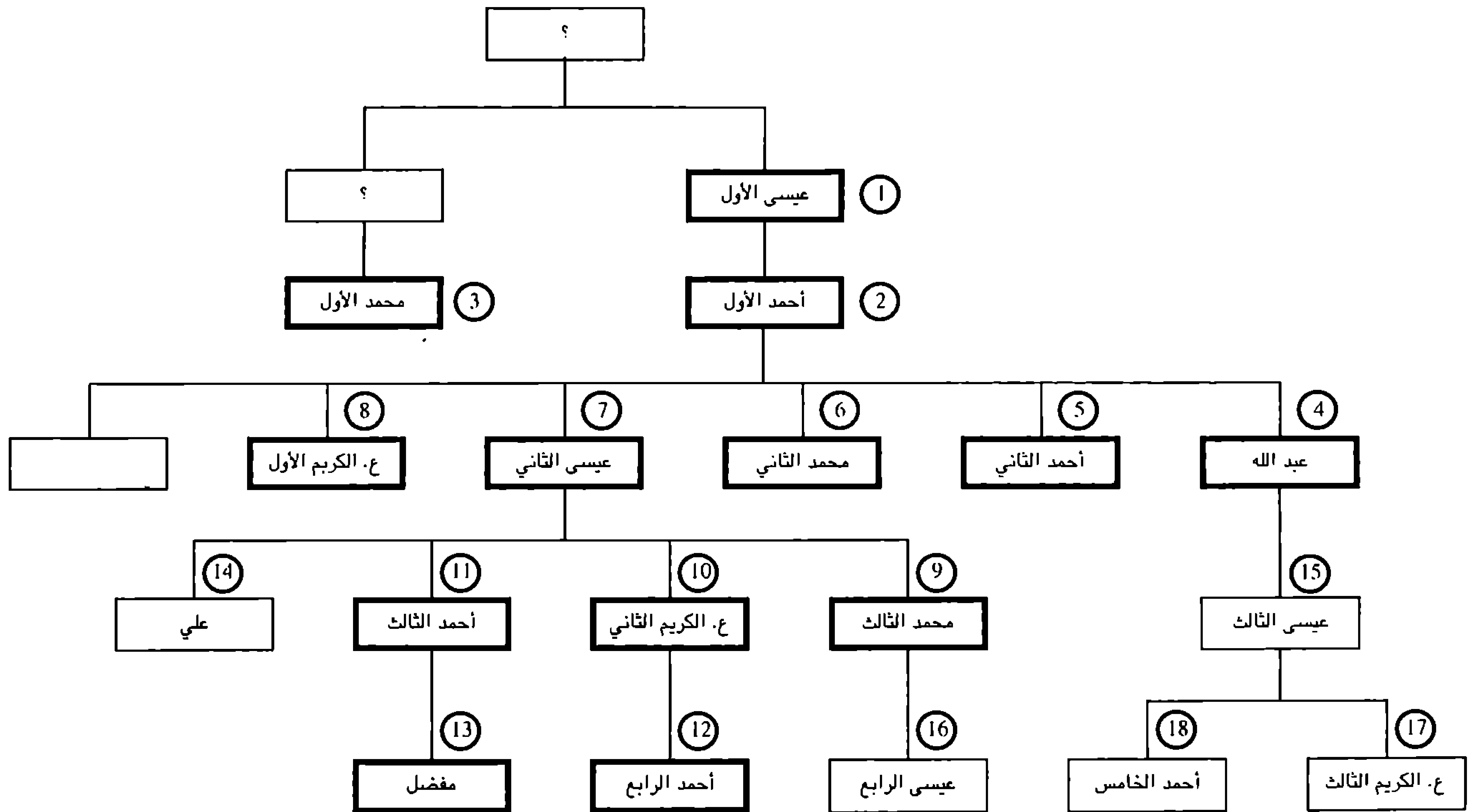
38) موضوع أتناوله بتفصيل في «معلمة تطاون» التي توجد تحت الطبع


شجرة أولاد النقسيس
حسب السكريج والرهوني
عبد الكريم
محمد


شجرة أولاد النقسيس
حسب جبور
عيسى
أحمد
محمد
عبد الكريم


شجرة أولاد النقسيس
حسب داود
محمد
عيسى
عبد الله
عبد الكريم
أحمد
مفضل


شجرة أولاد النقسيس
حسب بوسطو
عيسى
محمد
أحمد
عبد الكريم
عبد الله
مفضل



شجرة أولاد النقسيس
؟
1 عيسى الأول
؟
2 أحمد الأول
3 محمد الأول
4 عبد الله
5 أحمد الثاني
6 محمد الثاني
7 عيسى الثاني
8 ع. الكريم الأول
9 محمد الثالث
10 ع. الكريم الثاني
11 أحمد الثالث
14 علي
15 عيسى الثالث
16 عيسى الرابع
12 أحمد الرابع
13 مفضل
17 ع. الكريم الثالث
18 أحمد الخامس

حول الطائفة الأندلسية
في عهد السّعديّين

محمد بنْشريفة

كان للطارئين على المغرب في عهد السعديين من أندلسيين وشراگة وسودان وغيرهم تأثيرات اجتماعية وسياسية ومذهبية في مجتمع المغرب السّعدي يستطيع الدارس أن يتتبعها في المصادر التاريخية، والذي يعنيني منها في هذه الكلمة هو بعض ما يتعلق بالتأثير المذهبي، ومن ذلك ما دعاه بعض المؤرخين ببدعة الطائفة الأندلسية التي ابتدعها فقيه اسمه محمد الأندلسي فمن هو هذا الفقيه؟ وما هي هذه البدعة؟

أما محمد الأندلسي فلم تذكره المصادر إلا باسمه ونسبته، ولا يعرف له أب ولا جد، ولا يعرف له نسب ولا بلد، ولا يعرف له تاريخ ميلاد، وكل ما ذكره معاصره ابن عسكر في كتابه دوحة الناشر أنه «الشيخ أبو عبد الله محمد الأندلسي نزيل مراكش» [1].

ومعنى «نزيل مراكش» أنه كان من الطارئين عليها وليس من أهلها، لكننا لا نعرف متى نزل بمدينة مراكش، ولا من أين جاء إليها، كما أننا لا نعرف شيئا عن نشأته ودراسته.

ويقول ابن عسكر في ترجمته إنّهُ «أخذ عن أشياخ جمة، وعوّل على الشيخ أبي الحسن علي بن أبي القاسم»[2] ولسنا نعرف من هم هؤلاء

الأشياخ الكثيرون، ولا ندري لماذا لم يُسمّهم ابن عسكر، وهو قد عاصر الرجل ولقيه مرارا، وتكلم معه.

أما الشيخ الذي ذكر ابن عسكر أن الأندلسي عوّل عليه فهو شيخ من شيوخ التصوف، وولي من أولياء الله الصالحين، عرف في زمنه وبعده بسيدي أبي سجدة، وقبره بمراكش معروف إلى يومنا بهذه الكنية [3].

كان الأندلسي يتردّد على شيخه أبي سجدة ويبدو أنه ظل يأوي إلى منزله بعد وفاته، فمن هذا المنزل أخرج إلى مصرعه فيما بعد، وقد روى عنه ابن عسكر خبرا يتعلق بأبي سجدة لعله يصلح أن يكون مدخلا إلى معرفة هذا الأندلسي، قال ابن عسكر «حدثني الشيخ أبو عبد الله محمد الأندلسي قال لي دخلتُ على الشيخ أبي الحسن علي ابن أبي القاسم وهو في عرَيْسة له فوجدت عنده جماعة من الجن المومن يأخذون عنه العلم.. فقال لي: هل كوشف لك عن هؤلاء؟ فقلتُ نعم ، قال إنهم يطلبون مثل ما تطلبه ثم قال الشيخ الأندلسي لم يكن بالمغرب قاطبة ولا بغيره مثل الشيخ أبي الحسن في وقته، قال وكان له من الأتباع أزيد من سبعين ألفا من الجن وقال: ولما توفي تفرقوا في أقطار الأرض يطلبون مثله فما وجدوه قال: وكنت صحبت أربعة نفر منهم، قال ولقد سألت واحدا منهم وهو أفقههم على أنفع عُقّار في الطب عندهم من النبات بحيث يكون جامعا للمنافع ونافعا من جميع الأذى، قال لي ليس في النبات أنفع من الكُبّار فإنه اجتمع فيه ما افترق في غيره، ولو علم الناس ما فيه ما احتاجوا لغيره».

قال ابن عسكر: وكان الشيخ الأندلسي المذكور يزعم أن الشيخ أبا الحسن هذا بلغ مقام القطبانية ومقام الشيخ عبد القادر الجيلاني»[4].

ولكنّ الأندلسي الذي يبدو في هذا النص مريدا معولا على شيخه، معتقداً في قطبانيته، كان كما يقول ابن عسكر: «مولعا بعلم الاقتباس وسر الحرف وعلم الكيمياء والرياضة والطلب وعلم الهيئة والطبيعة»[5].

وكان من جهة أخرى كما يقول ابن عسكر أيضا ينحو منحى ابن حزم الظاهري «ويظهر التمسك بالسنّة والإضراب عن القول بالرأي والقياس ويعيب طريقة الفقهاء»[6].

وهذه المعلومات التي دوّنها معاصر للرّجُل عارف به تجعلنا نقف محتارين في تحديد شخصيته، فهل نعتبرُه صوفيا أم حزْميّاً أم أنه مجرد ساحر منتحل كما ذهب إلى ذلك بعضهم [7]. وواقع الأمر أننا لا نستطيع إثبات أي من هذه الصفات أونفيها، إذ لم يصل إلينا شيء مما قد يكون كتبه الأندلسي أو أصحابه، وكل ما بأيدينا هو أقوال خصومه وردودهم عليه وعلى أتباعه، وقد وصف ابن عسكر بعض ما قيل عن الرجل بأنه إشاعات وتشنيعات، وذكر أنه كان يتبع طريق الجادة في المعاملات ثم استدرك قائلا: «ولكنه كان كثير الوقوع في الأئمة، فنحا منحى ابن حزم الظاهرى، وشاع ذلك عن أصحابه»[8].

ويبدو أن ابن عسكر يشير إلى كلام لابن خلّكان في ترجمة ابن حزم جاء في أوله: «وكان كثير الوقوع في العلماء المتقدمين لا يكاد يسلم أحد من لسانه» [9] ونستنتج من هذا أن الأندلسي كان يقلد ابن حزم في مذهبه، وفي طعنه على الأئمة عموما، والمالكية خصوصا، وإذا كنا نعرف أن الحزمية ظلت تظهر في جميع العصور إلى يومنا، فإننا نتوقف شيئا مّا في ظهورها وانتشارها بمراكش في العهد السعدي، فقد كان الشأن الديني يومئذ موزعا بين رجال الزوايا ورجال الفقه المالكي، كما أننا نتوقف كذلك في أن يكون هذا الأندلسي المجهول النسب والبلد على معرفة حقيقية بابن حزم

وكتبه. فقد رأيناه فيما سبق معولا على شيخه معتقدا قطبانيته، فكيف يكون مع هذا حزميا وابن حزم وصف الصوفية في بعض كلامه بالنوكى[10]، كما أن اشتغاله بسر الحرف والكيمياء وما أشبه هذا لا يلتقي مع الحزمية في شيء.

وإذا كان الزميل الدكتور حجّي قال إن محمد الأندلسي يعتبر «من جهابذة علماء عصره تضلعا في العلوم الشرعية ومشاركة في العلوم العقلية»[11]. فإننا لا نجد له آثاراً مكتوبة تدل على هذا، ولعلّ الزميل اعتمد على كلام ابن عسكر الذي سبق ذكره.

وقد ترجم ابن القاضي في «دُرّة الحجال» لمحمد الأندلسي، واعتبره صاحب بدعة وبالغ في ذمّه وذم أصحابه، وقال إن البدعة التي دعا إليها «قال بمثلها بعض الأندلسيين قبله، بل حذا حذوه في أقواله كلها وأفعاله، وشنع عليه ابن العربي في العارضة»[12]. وابن القاضي يقصد بهذا الكلام ابن حزم وإن لم يسمه كما فعل ابن عسكر، وقد أحالنا على ما قاله ابن العربي في كتابه عارضة الأحْوذي ، ولما رجعت إلى هذا الكتاب وجدت كلام ابن العربي في الجزء العاشر من هذا الكتاب عند شرح حديث «ستفْترقُ أمّتي»... وفيه يحمل على المذهب الظاهري ويقول إن أمره «استشرى داؤه، وعز عندنا دواؤه، وأفتى الجهلة به فمالوا إليه، وغرهم رجل كان عندنا يقال له ابن حزم، انتدب لإبطال النظر، وسد سبل العبر، ونسب نفسه إلى الظاهر اقتداء بداود وأشياعه، فسود القراطيس، وأفسد النفوس»[13]. ثم أورد بعد هذا قصيدة له في الرد على الظاهرية، وردُّ ابن العربي على ابن حزم في عارضة الأحوذي وفي العواصم من القواصم كان كما هو معروف في سياق الصراع بين المالكية والظاهرية في بداية عصر الموحدين»[14].

ولقد نعت ابن القاضي أقوال محمد الأندلسي وأقوال أصحابه بالخزعبلات والشناعات [15]. وتحاشي ذكر شيء منها، وأحال على تاليفين

في الرد عليها، قال :«ومن أراد الوقوف على شناعاتهم جملة وتفصيلا، وما قيل في هذه الطائفة الملعونة فليطالع تأليف الفقيه الخطيب أبي القاسم بن سلطان القسنطيني نزيل تطوان، فقد أبدع فيهم، وزيف أقوالهم وبين فسادهم وهو في نحو مجلدين.

وصنف أيضا في الردّ عليهم في وريقات أبو العباس أحمد الصغير[16]. أحد تلامذه المنجور وكان يؤذيهم كثيرا فغضبوا لذلك وعظم الأمر لديهم فقتلوه رحمة الله عليه وأخزى طائفتهم» [17].

وقد وقفت على التأليف الثاني، ولعله - على اختصاره أهم من التأليف الأول لأن مؤلفه يعرف خبايا الطائفة الأندلسية، إذ أنه كان من أتباعها، ثم خرج منها وأصبح من خصومها الألداء.

وقد رأيت أن آتي بمضمون هذا التأليف فيما يلي نظراً لأهميته يبدأ الورياجلي تأليفه بالحمدلة والتصلية والترضية «عن أئمة الإسلام، القائمين بأمور الدين أشد قيام، المحافظين على سنته عليه الصلاة والسلام، من جلّى الله بهم غياهب الظلام، وأهّلهم لاستنباط الأحكام، التي يعرف بها كنه الحلال والحرام، وهو المراد من قول خير الأنام (إن الله يقيم لهذا العلم من كل خلف عدوله، ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين) فاتّباعنا لهم فرض واجب، والمخالفة لهم بدعة وضلالة من أعظم الرّزايا والمصائب، وقد حض الله الجاهلين على سؤالهم فيما لا يفقهون، قال تعالى ﴿فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون﴾ [18].

بدأت بهذه الديباجة لأن فيها ما يعرف ببراعة الاستهلال، فالمؤلف يشعرنا من البداية أن الأمر يتعلق بطائفة تطعن في أئمة المذاهب، وقد ذكر بعد هذا أنه لما رأى الأندلسي وأصحابه يكيدون للدين، ويلبّسون بذلك على بعض عوامّ المومنين، وتواترت أخبارهم عند الحاضر والباد، خالطهم من أجل

أن يعرف أقوالهم، وذلك لكي يشهر ببدعتهم، ويحذر الناس منهم ومن اعتقادهم الفاسد، ويبدي الحق لمن لَبّسوا عليه من العوام، معتمدا على أدلة وبراهين ما خوذة من الكتاب والسنة، وما نص عليه الآئمة الأعلام [19].

وقد بدأ الورياجلي ردّه بإيراد رسالة كتبها إلى إبراهيم الراشدي [20] من أصحاب محمد الأندلسي وصفه في بدايتها بقوله «الفقير الزّاعم بوهمه أن الناس في عمى من صغير وكبير، وأنه قد انفرد مع شيخه بصحة الدين من غير شبيه ولا نظير، وأن من تقدم من أئمة الهدى القائمين بسنّة البشير النذير، كمالك والشافعي وأبي حنفية وأحمد بن حنبل رضي الله عنهم ممن أجمعت على فضلهم الأمة في ضلال وتخسير» [21].

ولما أشار الورياجلي بعد هذا إلى أن إبراهيم المذكور كان يبغض الإمام مالك ويفر عند ذكر اسمه والترضية عنه تعجب مما أصابه وأُورد له طائفة من مناقب الإمام مالك وبعض ماقيل في فضائله.

إن تأليف الورياجلي هذا هو عبارة عن رسالة تتألف من فصول في الرد على الطائفة الأندلسية وسنوردها باختصار فيما يلي

أولاً في الردّ عليهم في عدم اقتدائهم بمالك وقولهم إن غالب أقواله ظنية. وقد ردّ الورياجلي على هذا القول بذكر الأصول التي بنى عليها مالك مذهبه وهي اثنان وعشرون أصلاً كلها مأخوذة من الكتاب والسنة وقال قبل عدها «لو قيل لكم ما الأصول التي بنى عليها مالك مذهبه ما علمتوها ولو بُيّنت لكم ـ لغباوة عقولكم ما أدركتموها».

ثم قال بعد عدّها :«قد سّول - والله - لكم الشيطان، في ذمٍّ من ظهر فضله وعلمه وورعه للعيان، فصرتم بمنزلة من قيل له : ماذا حفظت من الشلحة ؟ فقال أغنان» [22].

ثانيا في الرد عليهم في طعنهم على العلماء من أجل اختلافهم في المسائل، وقولهم لو كان مالك وأصحابه على الحق ما اختلفوا في مسألة. ومما جاء في هذا الرّد قوله «وأما ما ذكرتم من عدم اقتدائكم بالعلماء لاختلافهم في المسائل فيلزمكم ذلك في الصحابة، وقد صح منهم الاختلاف في عدد من النوازل مع الإجماع على عدالتهم. وصلاح حالِهم، والاقتداء بهم»[23] ثم ساق أمثلة على ذلك كمسألة عدد الجلد لشارب الخمر وقصة عمر رضي الله عنه في أمر الوباء وقصة أبي بكر رضي الله عنه في قضية أبي قتادة وقصة سعد في بني قريظة.

ثالثا في قولهم القرآن عربي وأنهم لايحتاجون إلى ما نقل عن الراسخين.

وكلام الورياجلي في هذا الفصل - كما في الفصلين السابقين - يدل على أنه عالم متمكن، ومما جاء فيه قوله «لا شك أن القرآن عربي مبين، وأما مع الكلمة بعدها ادعيتم من عدم الاحتياج، فهاتوا برهانكم إن كنتم صادقين، فلفظٌ واحد لو سئلتم عنه من القرآن، لظهر للعوام والله كذبكم بالعيان»[24]

وقد ساق بعض الأمثلة التي تبيّن أن استنباط الأحكام من القرآن الكريم يحتاج إلى أدوات وشروط لا توجد لدى أصحاب المقولة المذكورة، وتوجه إليهم قائلا «فكيف بكم تطمعون في الاجتهاد، مع أنكم لا تقدرون على ما تقوم به في المكاتب الأولاد»[25].

وهذه المقولة التي تعمل بها بعض الجماعات في وقتنا وجدناها منسوبة إلى ابن حزم.

فقد ذكر الباجي «أنّ أخاه إبراهيم لقي ابن حزم فقال له ما قرأت على أخيك؟ فقال : لي زمن كثير أقرأ عليه ! فقال : ألا اختصر لك العلم فيقرئك

ما تنتفع به في الزمن القليل في سنة أو أقل، فقال له لو صحّ هذا، فقال غيره ينفعك بذلك في سنة، فقال أنا أُحبُّ ذلك، فقال له أو في شهر، فقال: ذلك أشهى إلي فقال أوفي جمعة أو دفعة ! فقال ذلك أشهى إلي من كل شيء، فقال له إذا وردت عليك مسألة فاعرضها على الكتاب، فإن وجدتها فيه، وإلا فاعرضها على السنة، فإن وجدت ذلك فيها، وإلا فاعرضها على مسائل الاجماع، فإن وجدتها وإلا فالأصل الإباحة.

قلت له ما أرشدتني إليه يفتقر إلى عمر طويل، وعلْم جليل، لأنه يفتقر لمعرفة الكتاب ومعرفة ناسخه ومنسوخه، ومؤوّله وظاهره، ومنصوصه ومطلقه وعمومه، إلى غير ذلك من أحكامه، ويفتقر أيضا إلى حفظ الأحاديث ومعرفة صحيحها من سقيمها ومسنَدها ومرسَلها ومعضَلها، وتاريخ المتقدّم والمتأخر منها إلى غير ذلك، ويفتقر إلى معرفة مسائل الاجماع، وتتبعها في جميع أقطار الإسلام، وقل من يحيط بهذا »[26].

رابعا إنكارهم الصلاة على النبي المختار. وقد بين الورياجلي في هذا الفصل مافي الصلاة على النبي من كرامات، وقال إنه لا ينكرها إلا زنديق، وهذه المقولة ذكرها أيضا ابن عسكر في الدَّوحة، ولكنه ساقها على أنها من تشنيع خصوم الطائفة، قال «ثم شنعوا عليه أيضا أنه يقول الاشتغال بالصلاة على النبي ﷺ فتور عن الذكر»[27].

وفي رأي الزميل الدكتور محمد حجي أن هذه المقولة كانت موجهة إلى شيوخ الطريقة الجزولية الشاذلية المستغرقين في محبة رسول الله المتخذين من الصلاة عليه أورادا لمريديهم يتلونها آناء الليل وأطراف النهار[28].

هذا وقد ذكر عبد الكبير عليوات مؤلف كتاب سراج الغيوب أن هذه الطائفة كانت تستنكر ذكر النبي عليه السلام مع الله تعالى في الشهادة وغيرها وقالوا : «ذكر المحدث لا يفيد، ولا يفيد إلا ذكر الله القديم

سبحانه، وقالوا أيضا «الإكثار من ذكر النبي حجاب عن الله»، وقد نعتهم هذا المؤلف بالطائفة الخاسرة الخبيثة، والزمرة الفاجرة، وساق مناظرة وقعت بينه وبين بعض أكابرهم [29].

خامسا إنكارهم الدعاء والابتهال إلى الله في أدبار الصلوات.

وهذا الانكار ليس خاصّاً بهذه الطائفة فقد قال به غيرهم ووقع خلاف حوله بغرناطة في القرن الثامن الهجري بين ابن لُبّ وأتباعه والشاطبي وأنصاره[30] وإذا صح أن محمد الأندلسي هاجر من غرناطة بعد سقوطها، [31] فلعله نقل منها هذا الخلاف إلى مراكش.

ومهما يكن فإن الورياجلي بدأ كلامه في هذه المسألة قائلا لهؤلاء المنكرين «عجبا منكم، الْقُرُبات إلى الله أنكرتموها، والإجارة على الصلاة أكلتموها، والغيبة في العلماء أحللتموها، فصرتم تومنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض فما وافق أهواءكم أكلمتوه، وما خالف أهواءكم أنكرتموه»[32] وقد أتى بعد هذا بكلام ابن حجر في فتح الباري وابن القيّم في الهَدْي النبوي وما ورد في بعض كتب الحديث والتفسير وختم ذلك بكلام لابن عرفه يصف من ينكر الدعاء بأنه جاهل غير مقتدى به وجاء في آخر كلام ابن عرفه «والله حسيب أقوام ظهر بعضهم ولا يعلم له شيخ ولا لديهم مبادئ العلم الذي يفهم به كلام العرب والكتاب والسنة يفتون في دين الله»[33]. ولعلي أقول ما أشبه الليلة البارحة، فقد ظهر أمثال هؤلاء في وقتنا.

سادسا في الرَّد عليهم في إجازتهم أكل الحرام.

قال : «وقد بلغني أنه لمّا قيل لكم مابال شيخكم مع منْ تزعمون أنه من أكابركم لا يبالون بأكل الحرام أجبتم بأن الحلال معدوم رأسا، وأنه قد

ارتفع، وأن الدنيا بحر من ظلام» [34]. ثم سفه هذا القول ورد عليه بالآيات والأحاديث وبين ما ينشأ عنه لدى العوام من ارتكاب الشرور وقطع السبل وأكل أموال الأيتام.

ومما انتقده الورياجلي على شيوخ هذه الطائفة أنهم كانوا يترددون على ديار القواد، ويأكلون ما عندهم من السحت والحرام، مع زعمهم أنهم من أهل الورع كما انتقد عليهم اشتغالهم بالغِيبة والوُقوع في العلماء، وقال لهم: «زعمتم أنكم أهل الصراط المستقيم، وأَهل سلوك طريق الولاية القويم، فمن أين تحل لكم الغِيبة على الدوام، في مصابيح الدين أئمتنا الأعلام» [35].

وثمة مسألة لم أجدها في ردود الورياجلي وهي قولهم بعدم وجوب إعادة الصلاة إذا خرج وقتها [36] وهذا هو قول ابن حزم الذي أفاض ابن العربي في الرد عليه في كتابه العواصم، وبدأ ذلك بقوله وقال أي ابن حزم منتهكا للشريعة، مستخفا بطرق الملة، إن من ترك الصلاة متعمداً حتى خرج وقتها، فقد سقط عنه فرضها، ولم يتوجّه عليه خطاب بها، وقد رَأى أصول الشريعة ثابتة في الذمّة تُقْضَي متى تعذر عملها من صوم وزكاة وحج، فهل ارعَوَى، ولم يغوَ فيمن غَوَى، ولا ضجّ على الدّين وعوى، فإن قيل فقد قال الله تعالى :﴿إن الصلاة كانت على المومنين كتابا موقوتا﴾ فربطها بوقت كما ربطها بطهارة، فإذا زال رباطها سقط الأمر بها، فالجواب عن ذلك من خمسة أوجه [37]. ثم ذكر الوجوه بتفصيل.

وبعد فتلكم هي ردود الورياجلي، على أقوال الطائفة الأندلسية وقد حرصت على عرضها - ولو باختصار - لكونها ما تزال مخطوطة، وهي تقدّم لنا مثالاً من الجدل الديني في العصر السعدي، ويبدوأنه كان لها تأثير في تحذير الناس من شيوخ هذه الطائفة، ولهذا غضبوا على الورياجلي «وعظم الأمر لديهم فقتلوه رحمة الله عليه» [38].

لم يكن الورياجلي هو الفقيه الوحيد الذي تصدى للرد على هذه الطائفة وزعيمها فقد ردّ عليهم - كما أسلفنا - فقهاء آخرون، وفي دوحة الناشر أنه لما شاع خبر الأندلسي «أفتى فقهاء مراكش بتضليله وأنهوا ذلك إلى السلطان فأمر بسجنه، وبقي فيه مدة ثم آفرج عنه، ثم شَنَّعوا عليه أيضا أنه يقول الاشتغال بالصلاة على النبي - ﷺ - فتور عن الذكر، وأشياء مستغربة، فسجن أيضا، ثم خُلِّي سبيله، فانتشر صيتها، وبَعُد ذكر ه وكَثُر أتباعه، ووقع بينهم وبين الفقراء خَطْب عظيم، وانتشر بسبب ذلك شغَبٌ في العامة، وكثر التعصب، ووقعت المجاهرة بالقتال، وسفك الدماء، وتَلَقّبت شيعته بالمحمدية وسَمَّوا من خالفهم بالمالكية، نسبة إلى الإمام مالك» [39].

أتينا بهذا النص لأنه غني بالمعطيات، ومنها الإشارة إلى أطوار هذه الطائفة التي بدأت بفرد واحد، ثم مازالت تنمو حتى كثر عددها، وأصبحت تثير الشغب والفتن، ويفهم من النص أن أفراد هذه الطائفة كانوا يواجهون الفقهاء والفقراء معاً في مدينة مراكش، ويبدو أن جل أتباع الطائفة أو كلهم كانوا من الأندلسيين الذين لجأوا إلى مراكش في عهد عبد الله الغالب السعدي وقبله، وقد ظل محمد الأندلسي وطائفته يثيرون الفتن في أيام هذا السلطان وأيام ولده محمد المتوكل، ولعلهما كانا يتساهلان في أمر هذه الطائفة لحاجتهما إلى العنصر الأندلسي، إذ كان في جيش المتوكل ألف وثمانمائة من أهل الأندلس [40].

ولما كان الصراع بين محمد المتوكل وعبد الملك المعتصم ظهر من محمد الأندلسي والجماعة الأندلسية ميل إلى عبد الملك، وفي أثناء ذلك تمكن المتوكل من العودة إلى مراكش بعد أن أخرج منها فأمر بقتل الأندلسي «فاعتصم بالعامة، ووقعت عليه فتنة إلى أن قتل، وصلب بباب داره من رياض الزيتون» [41]. وكان ذلك في ذي الحجة من سنة 985هـ.

ويقول ابن القاضي إن قتل المتوكل له «ليس هو على بدعته وإنما قتله لكونه رئيس الأندلس الذين غدروه وكان ذلك سبب خلعه» ويذكر مؤلف تاريخ الدولة السعدية أن الأندلسيين في الجيش السعدي يومئذ كانوا يكرهون عبد الله الغالب وولده محمد المتوكل لخيانة الأول لهم -كما يقولون- في الاتفاق معهم لما كانوا بالأندلس «على القيام على النصارى وخَذْله لهم بعده، فكانت عداوتهم له ومكرهم به في قلوبهم إلى أن يجدوا فرصَتهم فيه أو في ولده» [42].

ولم ينته نشاط الطائفة الأندلسية بمقتل شيخها المؤسس بل لعله ازداد وانتشر في سلا ومكناس وفاس علاوة على مراكش مركز الطائفة، ومما يدل على ذلك أن ابن القاضي ترجم في درة الحجال لعبد الخالف الأمغاري وقال «وهو رأس الطائفة الأندلسية الملعونة، ولقد شاهدت بمدينة مكناسة ثلمة عظيمة في الدين أجلسوه على كرسي بجامعها الأعظم، وهو يتكلم في التصوف بزعمه، ويُضل العامة بمذهبه الشنيع،أهلكها الله من طائفة مُضرَّة بالسنّة السمحة بمحمد وآله» ثم قال :«وهو حي من أهل هذا العصر، وله نَظْم لم أذكره بغضاً في جانبه وطريقته وغيرة على أهل السنة» [43]. وقد سَمَّى في موضع آخر بعض شيوخ هذه الطائفة الذين تمسكوا بها بعد مقتل الأندلسي فقال كعبد الله الومغاري... وكإبراهيم الراشدي وكابراهيم رفيق ومن تبعهم» [44].

ويبدو - كما يقول الزميل الدكتور محمد حجي - «أن البدعة الأندلسية استمرت ظاهرة إلى عهد المولى إسماعيل بن الشريف ثم أخذت تلجأ إلى التقية والتستر وانحصرت كالفرقة العكازية في بعض جهات البادية بعد أن تصدى المولى اسماعيل للتنكيل بالمبتدعة على إثر ماكتبه المؤلف المجهول في تبصرة الرئيس الأمين، في ذكر شروط إمام المسلمين وعبد الكبير اعليوات في سراج الغيوب والحسن اليوسي في رسالة العكاكزة» [45].

وبعد، فقد شككنا في بداية هذه الكلمة في حزمية محمد الأندلسي، ولكن لعلنا نجد في أقواله شيئا منها وإن كانت ممزوجة بعناصر أخرى، أما الرد عليها ومتابعة القائلين بها فقد وجدناه قديما في كل زمان ومكان سواء في المغرب أو في المشرق، ونذكر من ذلك على سبيل المثال المرسوم المملوكي المؤرخ بسنة 784هـ والذي ورد في تاريخ قاضي ابن شهبة وجاء فيه: «وبلغنا أن بدمشق جماعة ينتحلون مذهب ابن حزم وداود الظاهري ويدعون إليه ويظهرون مقالته ومرسومنا يتقدم بطلب المذكورين فإن ثبت عليهم شيء من ذلك عُمل معهم ما يقتضيه الشرع الشريف من الضرب والنفي»[46].

وسواء أكانت دعوة محمد الأندلسي حزمية أو فوضوية، ومهما تكن حقيقة هذه الطائفة وهدف مؤسسها فإنها تعتبر مظهرا من مظاهر تفاعل الأندلسيين والمورسكيين مع مجتمعهم الجديد وأثرا من آثار تأثيرهم فيه وتأثّرهم به. وهذا هو الذي تطمح إليه هذه الندوة والتي قبلها وبالله التوفيق.

الهوامش

1) دوحة الناشر 109 تحقيق محمد حجّي 1976.

2) نفسه وأصل هذا الشيخ مشنزائي دكالي، وهو جد سيدي اسماعيل المعروف في الدكالة

3) الإعلام للعباس بن إبراهيم 9 :183- 184، ودوحة الناشر: 101 وممتع الأسماع 53.

4) دوحة الناشر 102

5) نفسه 109.

6) نفسه

7) G . DEVERDUN , MARRKECH.. I:424

8) نفسه.

9) وفيات الأعيان 327:3 تحقيق إحسان عباس.

10) الفصل 5 21.

11) الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين 1 241.

21) درة الحجال 2 36 تحقيق محمد الأحمدي أبو النور.

13) عارضة الأحوذي 10 109- 112- ط. م الصاوي 1353هـ

14) أنظر فتح العي المالك للشيخ عليش 100- 103 ط. مصطفى الحلي 1378هـ.

15) درة الحجال 2 36.

16) هو أحمد بن حسن الورياجلي المعروف بالصغير له ترجمة في سلوة الأنفاس 3 251 والحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين 2 489 وأعلام المغرب العربي 5 207. وتآليفه أو رسالته عنوانها رد على الطائفة الأندلسية الضّالة، توجد ضمن مخطوط بالخزانة العلمية الصبيحية بسلا تحت رقم 3/333.

وهي تتألف من 7 ورقات، وقد أصابها محو في بعض أطرافها. وتاريخ نسخها يوم الأحد لستٍّ خلون من ربيع الثاني عام 1084 هـ. راجع فهرس الخزانة الصبيحية للدكتور م. حجي ص 598

17) نفسه 2 36- 37. وكان اغتياله حوالي 999هـ

18) رد الطائفة الأندلسية 1 و.

19) نفسه 1 و.

20) لم نقف على ترجمته ، وهو مما يستدرك على أعلام المغرب العربي.

21) نفسه 92.

22) نفسه 3 ظ.

والشلحة لهجة أمازيغية، وأغنان العناد والاصرار على الرأي ولوظهر غلطه، ويبدو أن العبارة من الأمثال المغربية .

23) نفسه 3 ظ.

24) نفسه 4 ظ.

25) نفسه.

26) ابن حزم خلال ألف عام 3 130-131 جمع وتحقيق أبي عبد الرحمن الظاهري، ط. دار الغرب.

27) دوحة الناشر 109.

28) معلمة المغرب 3: 826.

29) سراج الغيوب 622-623 مخطوط الخزانة العامة رقم 455 ك وقد أورد الزميل الدكتور حجي نص المناظرة في الحركة الفكرية.. 1: 244- 245.

30) أنظر فتاوي الإمام الشاطبي 127- 128 تحقيق محمد أبو الأجفان. ونفح الطيب 5 514 والمعيار 1: 280 - 284.

31) الحركة الفكرية 1 241 والمعلمة 3: 826.

32) رد على الطائفة الأندلسية الضالة 5ظ.

33) نفسه 6 وكلام ابن عرفة الذي أورده الورياجلي هو من جواب له عن سؤال جاءه من مدينة سلا. أنظر المعيار 1 280 - 281.

34) نفسه 6 و

35) نفسه 7 و

36) الحركة الفكرية 1 242

37) العواصم من القواصم 351- 356 تحقيق عمار طالبي ط الجزائر 1981.

38) درة الحجال 2 35.

39) دورحة الناشر 109.

40) تاريخ الدولة السعدية لمؤلف مجهول 48 نشر جورج كولان 1934.

41) نزهة الحادي 107 تحقيق عبد اللطيف الشاذلي.

42) تاريخ الدولة السعدية 48.

43) درة الحجال 3 168.

44) نفسه 2 36.

45) معلمة المغرب 3 828.

46) تاريخ ابن قاضي شهبة 1 : 89 تحقيق د. عدنان درويش دمشق 1977.

الموريسكيّون في الفكر التاريخي : قراءة في الأبحاث والدراسات الموريسكية الإسبانية

ميلودة الحسناوي

أصبحت الدراسات الموريسكية، أو الموريسكولوجيا كما يسميها المهتمون بها، في العقود الأخيرة، علما قائما بداته، وهو علم تاريخي بالأساس يتناول، بجميع فروعه، بالدرس والتحليل العنصر الموريسكي في فضائه الواسع، واتجاهاته المتعددة، وتفكيره ولغته وعاداته وتقاليده. ويعتمد أساسا على عناصر العلوم التاريخية من مصادر ومناهج متنوعة ومكملة لمعرفة دقيقة للموريسكيين في واقعهم الاجتماعي وفي زمانهم. وتعد الموريسكولوجيا حاليا أكثر من مائة باحث مختص، موزعين على كليات ومعاهد ومراكز بحث مختلفة، يعملون على نشر أعمالهم في حقول علمية مختلفة قاسمها المشترك جميعها الموريسكي [1].

وإذا كانت الموريسكولوجيا مصطلحا جديدا، لا ندري إلى أي حد يمكن قبوله أو رفضه من المعجميين العرب، فإن التأريخ للموريسكيين شهد بدايته مع محنتهم. ولحسن حظ المهتمين فقد وصلت أغلب تلك الكتابات إليهم. إذ من الصعب أن نجد في تاريخ إسبانيا كله قضية كقضية الموريسكي، فهي لم تثر اهتمام المؤرخين فحسب ولكن أثارت، وبنفس

الحدة، اهتمام الشعراء والكتاب المسرحيين والقصاصين والكتاب السياسيين الذين كتبوا، كل من تصوره ومنطلقه، عن التعميد القسري، وثورة وطرد الموريسكيين وأحداثهما وظروفهما [2] ونتج عن ذلك الاهتمام التراكم العلمي الذي يتمحور حول الموريسكيين، بعضه كان معاصرا لفترة فليب الثاني، وهي المرحلة التي انهزم فيها الموريسكيون الغرناطيون الثائرون وأبعدوا إلى كل من قشتالة و Extremadura ومناطق أخرى في إسبانيا.

وقبل إلقاء نظرة على راهن الدراسات والأبحاث الموريسكية الإسبانية فضلنا أن نلم ولو بعجالة بالأعمال القديمة التي تناولت وعالجت قضايا الموريسكي، لأن الانطلاقة الحقيقة لهذا التاريخ بدأت قبل القرن العشرين بأربعة قرون. ويمكن أن نقسم تلك الأعمال كرونولوجيا وإيديولوجيا إلى مرحلتين متميزتين

1- الإسْتُغرافية الموريسكيّة
في القرنين السادس والسابع عشر

تشمل هذه المرحلة تاريخيا من حرب غرناطة وحولياتها [3] إلى سنة تهجير الموريسكيين 1609. وإذا كانت مواقف أصحاب الحوليات تتأرجح بين المعارضة والتأييد للقضية الموريسكية دون اقتراح الحلول المتطرفة كالطرد، فإن الكتابات التي عاصرت الحدث، قبل وبعد وقوعه، طبعت كلها بالطابع التبريري، محاولة إثبات أحقية قرار التهجير واعتباره عملاً لا يتعارض والقيم الإنسانية لأنه ضرورة حتمية، وخصوصا في نظر أولئك الذين نشروا مؤلفاتهم قبل سنة 1609. فقد عايشوا تغيير الوضعية العالمية التي تزامنت مع وصول فليب الثاني إلى العرش. ففي العقد الخامس من نفس

القرن كان الأتراك والبرابرة يسيطرون على حوض البحر الأبيض المتوسط، وبات الموريسكي يشكل خطرا في نظرهم على العرش الإسباني. في هذا الجو الذي طبعه العداء للموريسكي ولكل ما له علاقة به، أصدرت قرارات نذكر منها قرار 1567 الذي يقضي بمنع الموريسكيين من استعمال لباسهم ولغتهم، وكان هذا القرار الفتيلة الأساسية التي قادت إلى حرب غرناطة (1568-1571) حتى أصبح التعايش بين الجانبين مستحيلا.

وبعد هذا الحدث الحاسم وإخماد الثورة وانهزام الموريسكيين [4] فكرت السلطات في نقلهم إلى قشتالة [5] وهو الأمر الذي لم يزد الوضع إلا تعقيدا حيث نقلت الثورة إلى مناطق بعيدة عن الصراع، انعدم فيها التعايش وزادت الصراعات حدة، ومما يؤكد ذلك عدد الموريسكيين المتابعين من محاكم التفتيش [6]. وفي هذا الإطار أيضا يمكن أن ندرج القرار القاضي بنزع السلاح من المورسكيين الصادر ببلنسية سنة 1575 والصراعات الموريسكية الأراغونية سنة 1585، ولن تخمد جذوة هذه الصراعات إلا بتهجير الموريسكيين الذي أعلن عنه في بلنسية يوم 22 شتنبر سنة 1609 ليشمل مناطق أخرى في شبه الجزيرة الإيبيرية في الشهور والسنوات المقبلة [7].

لهذا السبب تمركزت الكتابات المجايلة للحدث حول هذا المحور دون غيره، وانقسمت إزاءه إلى مجموعتين كبيرتين

- المجموعة الأولى تعبر عن الموقف المؤيد للقرار وتتمثل في المؤلفين الإسبان الكاثولكيين الذين اعتبروا الإجراء عادلاً وذا نفع عام، ووقاية وجنة من جميع الأخطار التي تهدد العرش الإسباني، وهو في نفس الآن إجراء من شأنه أن يحقق الوحدة الدينية التي ينشدها رجال الكنيسة بالدرجة الأولى [8]، وسنعود للحديث عن هذا الموقف بعد قليل.

- المجموعة الثانية تشمل كل المعارضين لحكم لوس أوستِرياس والبروتستان والليبراليين ورجال الاقتصاد واليسار. فعكس المجموعة الأولى كان هؤلاء يعملون على فضح النتائج السلبية لهذا الإجراء لأنه لا يخلو من التطرف الديني ومن النتائج الوخيمة على اقتصاد البلاد، إلا أن أصوات المجموعة الثانية لم يكتب لها الذيوع إلا بعد مرور وقت ليس بالقصير على تنفيذ القرار، ففي الوقت الذي كانت فيه المجموعة الأولى تنشر أعمالها، وعناوينها تنطق بتأييدهم المطلق لهذا الإجراء [9] كانت أصوات المعارضين لا تتزايد إلا بطريقة بطيئة.

ولم يبق التأييد، كما أشرنا إلى ذلك قبل قليل، رهين المؤرخين المقربين للعرش والمؤيدين له بل كان له صدى في الإبداع الأدبي بكل أجناسه (الشعر، المسرح، القصة، إلخ)، حيث كان الشعراء في طليعة المبدعين الذين عبروا عن موقفهم المعادي للأقلية في أشعارهم. فـ لوبي دي ڤيگا إي كيڤيدو Lope de Vega y Quevedo، يعبر بلسان شخصياته عن موقفه المؤيد، ويمدح فيليب الثاني لأنه بقراره هذا طهر إسبانيا من الأقلية [10].

Y es tan aseado y limpio

Que de una vez limpio a España

Lo que desde el poster Godo

Ningún Rey pudo con armas

Echó, finalmente, a cuantos

Por voto bebieron agua

Que en vino tocino y bulas

No gastaron una blanca.

وكثرت الإشارات السلبية إلى الموريسكيين في أعمال سرفانتيس (11) وكذلك في حكايات وقصص الشطارين، وإن كنا لا نعدم بعض المواقف المتعاطفة مع الأقلية (12).

وتبدأ صورة الموريسكي في التغير عند الإسبان باعتلاء فيليب الرابع عرش إسبانيا، حيث أصبح قرار التهجير يؤرق ضمائر الإسبان بل أصبحوا يعتبرونه قرارا غير عادل ولم يكن ضروريا نفي تلك النسبة العالية من سكان شبه الجزيرة.

2- الاستغرافية الموريسكية في القرن التاسع عشر

يجمع المهتمون بالدراسات الموريسكية عامّة، وواضعو البيبليوغرافيات ودارسو الموريسكي في الفكر التاريخي أنه بعد نهاية حكم لوس أوسترياس Los Austras ووصول العائلة الحاكمة الجديدة عائلة لوس بوربونيس Los Borbones تغفل القضية الموريسكية في الكتابات الإسبانية ولم تعد للظهور إلا بعد الثلث الأول من القرن الماضي (13).

وساد الكتابات في المرحلة التي نحن بصدد الحديث عنها اتجاهان إيديولوجيان

- الاتجاه المحافظ، ويعكس موقف المؤيدين الذين تشبثوا بالدفاع عن أحقية الطرد ومشروعيته، وموقفهم هذا يحول دون قدرتهم على إبداء أي نقد ضد القرار، ولا يجدون فيه أي دليل يلقي بعتمته على هذا الإجراء.

الاتجاه الليبرالي وهو اتجاه يتسم بالتسامح أكثر مع القضية الموريسكية، وأصحابه أكثر نقدا للسلطة الحاكمة وخاصة سياسة الاستيعاب التي فرضها الملكان الكاثولكيان عند سقوط غرناطة ولوس

أوسترياس بعدهما، وسنعود للحديث عن هذه السياسة مع نوع من التفصيل في المحور الثاني من هذه المداخلة.

ومن الملاحظ أن الاتجاهين يتطابقان تماما مع الخطوط العامة للإنتاج التاريخي خلال القرن التاسع عشر، ويعكسان بصدق التطور الاجتماعي والسياسي الإسباني. وانطلاقا من هذه الكتابات يمكن أن نلمس بعض التغيير في موقف الإسبان إزاء الموريسكي، حيث انتقلت من الرفض المطلق لكل ما هو موريسكي إلى التعاطف، ولا نقول التسامح، مع المصير المأساوي الذي كان من نصيب هذه الأقلية. وعدم قولنا بالتسامح يستند أساسا إلى كون كتاباتهم لا تعطينا جوابا واضحا على السؤال التالي: هل كان هؤلاء الكتّاب باتجاههم سيقبلون بقاء الساكنة المسلمة لو عاشوا في القرنين السادس والسابع عشر؟ إذا أردنا الجواب، وانطلاقا من مؤلفاتهم فإنه لن يكون إلا سلبيا اللهم إذا استثنينا البعض منهم الذين عبروا بوضوح عن موقفهم من الإسلام والمسلمين، وسنتعرض لمواقفهم من التهجير والتعميد القسريين بعد قليل.

3- الإستغرافية الموريسكية في القرن العشرين (14)

عرفت الدراسات الموريسكية انطلاقتها الفعلية مع منتصف هذا القرن، وإن وجدت أعمال متفرقة قبل هذا التاريخ، ويعزو الباحثون سكوت الباحثين خلال مرحلة طويلة إلى كونهم كانوا يظنون أن الموضوع الموريسكي قد أنهك وابتذل دراسة وبحثا، كما أن أغلب الأرشيفات الإسبانية، والمحلية منها بصفة خاصة، لم تفتح أبوابها في وجه الباحثين لاستنطاق واستغلال مادتها الدسمة المؤرخة للموريسكيين إلا في العقود الأخيرة. ولم تتغير تلك الوضعية إلا بعد العقد الخامس لسببين يعتبرهما الباحثون جوهريين :

- الاهتمام بالأقليات والمهمشين، وقد استأنف هذا الاهتمام بدراسة اليهود المرتدين،

- والصراع بين Sánchez Albornoz و Américo Castro حول الحقيقة التاريخية لإسبانيا.

ودشن هذه المرحلة جوان ريكلا Joan Regla بعمله حول موريسكيي بلنسية، وكان قبل ذلك قد نشر أعمالا أخرى، وبعد ريكلا بدأت الأبحاث تتابع بوتيرة سريعة. ولن نستطيع أن نثمن هذه الأعمال، نظرا لوفرة عددها، وتشعب محاورها، إلا من خلال النقط التالية

1- التوجهات والخطوط المنهجية المعتمدة في هذه الدراسات

وفقا للمحاور التي عالجها وما زال يهتم بها البحث الموريسكي المعاصر نلاحظ أنه ثمة توجهات علمية تتعايش كلها في فضاء الموريسكولوجيا، وتتكامل فيما بينها. ويمكن تلخيصها في توجهين أساسيين:

- توجه تاريخي، بمفهومه الواسع، يهتم بالدرجة الأولى بكرونولوجية الظواهر لدراسة الموريسكي في وقته ومحيطه وزمانه، وربطها بالأوضاع السياسية والاجتماعية، وهو توجه متشعب تنبثق عنه محاور مختلفة يتناولها الباحثون بالدرس والتحليل، ومن تلك المحاور: المصادر المؤرخة للموريسكيين، الفلاحة، التغذية، الهندسة المعمارية، العلوم ، السكان، القانون، اللهجات، الهجرة، الطرد، الضرائب، الأساطير، السحر وعلم المسكوكات. وفي هذا التوجه يندرج أغلب الموريسكولوجيين.

- توجه ثقافي ويركز فيه الباحثون على التعبير الموريسكي أداة ونصا، وتنصب فيه دراساتهم على لغات الموريسكيين العربية والرومانسية،

سواء في شبه الجزيرة الإيبيرية أو بعد استقرارهم في أماكن منفاهم، وأدبهم الذي يشمل جميع النصوص، على اختلاف مضامينها، والتي استطاع الموريسكيون من خلالها إثبات ذاتهم، وهو ما يعبر عنه بالأدب الأعجمي الموريسكي Literatura aljamiado-morisca، وبالرغم من قلة المختصين في هذا التوجه مقارنة مع المختصين في التوجه الأول فإن الباحثين عقدوا لقاءات علمية ومؤتمرات دولية لتبادل الجديد في هذا التوجه. ويكفينا أن نذكر بتلك اللقاءات التي نظمها الأستاذ Alvaro Galmés de Fuente من جامعة أوفييدو. ومن خصوصيات هذا التوجه أن أصحابه يعتمدون المصادر الأدبية بالدرجة الأولى ويتحدثون عن موريسكي موحد بخلاف التوجه التاريخي. وبالإضافة إلى گالميس نذكر Luis F.Juan Martinez Ruiz,و Marquez y Perceval Bernabé Pons, Mikel de Epalza (15) وغيرهم.

وعموما فإن التوجهين يعكسان بصدق مواقف الموريسكولوجيين اتجاه الإنسان الموريسكي، وهذه المواقف وإن تباينت فإنها لا تحول دون الدفع بالأبحاث الموريسكية إلى الأمام، لأن الاختلاف ناتج بالدرجة الأولى عن كل من الفريقين حول حقيقة واحدة الحقيقة الموريسكية.

ويعتمد هؤلاء الباحثون في التوجهين معا على مناهج متباينة وفق العلوم التي ينطلقون منها، داخل التراث المشترك للعلوم الإنسانية والتاريخية وهي في مجملها مناهج ثلاثة

- المنهج التاريخي وهو السائد في تلك الدراسات التي تتناول تاريخ الموريسكي في جهته وإقليمه، وتاريخ السكان، والتاريخ الاقتصادي والسياسي وهو المنهج الذي يعتمده أغلب الباحثين المنتمين إلى مختلف كليات التاريخ التي تهتم بالدراسات الموريسكية، وعددها ما يزال قليلا إذ أخذنا بعين الاعتبار عدد كليات التاريخ في إسبانيا كلها. (برشلونة، مدريد،

غرناطة، أوفييدو، سنتندر، سرقسطة)، وكذا الأساتذة الباحثين التابعين للمجالس العليا للأبحاث العلمية في مدريد برئاسة الباحثة المقتدرة Mercedes García Arenal ولا تفوتني هذه المناسبة دون أن أشير هنا إلى مقالها الأخير الذي سينشر في مجلة Evora والتي تفضلت بإهدائه إليّ أثناء زيارتي الأخيرة لها بمدريد، حللت فيه الحالة الراهنة للدراسات الموريسكية Moriscos .Estado de la cuestión، فإليها أجدد شكري)، أما في برشلونة فتشرف على هذه الدراسات الباحثة المقتدرة Maria Teresa Ferrer (مديرة معهد الدراسات القروسطية، التابع للمعهد الأعلى للأبحاث العلمية ببرشلونة، ومديرة تحرير المجلة الحولية المتخصصة في نفس الدراسات Anuario de Estudios Medievales، والصادرة عن نفس المعهد).

- المنهج الفيلولوجي وهو ما يعتمده دارسو اللغة الأعجمية والأدب الأعجمي الموريسكي، ويعمل أصحابه على تحليل النصوص وتوثيقها ونشرها. وقد نشر الباحثون المعتمدون على هذا المنهج كثيرا من النصوص الموريسكية الغنية بالإشارات إلى تراث الموريسكيين الأدبي واللغوي وخاصة: كتب أسماء الله الحسنى، ترجمات القرآن. ويتمركز أصحاب هذا المنهج في كليات الفيلولوجيا بالدرجة الأولى.

آخر تلك المناهج المنهج الإيديولوجي، وينصب اهتمام الباحثين فيه على الفكر والثقافة والدين والعلاقات الإسلامية المسيحية، والمعتقدات الإسلامية. وهو المنهج الذي يعتمده الباحثون في كليات الفلسفة وعلم الأديان.

2- الأبحاث والأعمال البيبليوغرافية

وهو الجانب الثاني الذي يعكس بصدق سيرورة وراهن ورهانات الأبحاث الموريسكية، فبعد التراكم الكيفي والكمي اللذين عرفتهما

الدراسات والأبحاث الموريسكية في العقود الخمسة الأخيرة أضحى التجميع البيبليوغرافي ضرورة ملحة، أولا لتثمين المجهودات السابقة ولمواصلتها وإتمامها بأعمال جديدة دون السقوط في التكرار الممل، ولتسهيل الطريق أمام كل مهتم بهذا الحقل المعرفي. وقد حقق فعلا هذا الهدف الذي كان ينشده الباحثون المختصون، وانتقلت الأعمال من الشمولية إلى الميكروإقليمية، ومن الفلاحة بمفهومها الواسع إلى قطاعات ضيقة فيها كالرعي أو تربية المواشي، أو الزراعة المسقية، أو غيرها من المحاور التي استند أصحابها في أغلبها إلى ما تمدهم به الأرشيفات الإسبانية من معلومات وإحصاءات دقيقة تساعدهم على القراءة والتأويل واستخلاص نتائج نادرا ما تفند أو تدحض من طرف الدارسين اللاحقين. كما ساعد هذا النوع من الأبحاث على معرفة الأماكن والجهات المتعددة التي تهتم بالموريسكي. ومن الطريف أن نجد مدنا صغيرة بل قرى نائية تصدر مجلات محلية تهتم فيما تهتم به بالموريسكي وذلك ما أبان عنه عمل Angel Cortés Pena La Moriscologia en Revistas Andaluzas (1962-1994) الذي افتتحه بالملاحظة التالية: إن الازدهار الذي عرفته بيبليوغرافية الدراسات الموريسكية في العقود الأخيرة اكتسى أهمية بالغة حتى أضحى من الصعب على كل باحث مهتم أن يكون على علم بهذا الكم الهائل من الأعمال التي تظهر يوميا، ليس فقط في المراكز التقليدية المعروفة بهذا النوع من الأعمال، ولا في دور النشر الخاصة بنشرها، ولكن في أماكن مغفلة قد لا يظن الباحثون المهتمون أنها تخصص للموريسكي حيزا لا بأس به في منشوراتها[16] ويذكر من بين تلك الأماكن، إضافة إلى المشهور منها كمالقة وقرطبة وإشبيلية وجيان وغرناطة وألمرية وقادس، بلش الشقراء Vélez Rubio التي تصدر Revista Velezana (المجلة البليشية) ووادي آش Guadix في نشرتها Boletín del Instituto de Estudios Pedro Suárez و Albox، في ضواحي ألمرية التي تصدر مجلة Roel.

ويعد Joan Regla، في رأي المهتمين، مرة أخرى أول باحث يدشن هذا السيل من الأعمال البيبليوغرافية، فله يعود الفضل في تكوين مدرسة اهتمت بدراسة الأقليات في بلنسية. وظهر عمله هذا سنة 1964 عندما أراد إعادة نشر أعماله السابقة فجمعها في مجلد واحد بعنوان Estudios sobre los Moriscos, Valencia 2°ed. 1971-1974 مهد له بيبليوغرافية شاملة إلى تاريخ نشر الكتاب.

وانطلاقا من تلك السنة بدأ الاهتمام بوضع بيبليوغرافيات للدراسات والأبحاث الموريسكية، وانطلقت في بداية أمرها ذات طابع شمولي الهدف منه تقديم الأعمال الموريسكية دون الأخذ بعين الاعتبار العامل الموضوعاتي أو الزمكاني، وبدأت تضيق تدريجيا حتى وضعت بيبليوغرافيات لمحاور خاصة، ولمناطق محدودة سنذكر بعضها بعد حين.

وممن نحا نحو ريگلا، فذيلوا أعمالهم الأكاديمية وأبحاثهم ببليوغرافيات تعكس سيرورة وتطور الدراسات الموريسكية، الباحثة مرسيديث أرينال في مؤلفيها حول الموريسكيين (17) وفي مقالها المنشور بمجلة القنطرة (18) ورفاييل بينادو (19) وغيرهما كثير لا يسع المقام لذكرهم.

ووعيا بأهمية هذا النوع من الأعمال وجه بعض الأساتذة طلبتهم في أطاريحهم الجامعية إلى استقصاء البحث البيبليوغرافي فأثمر هذا التوجيه أعمالا جيدة تعرب عن الاهتمام المتزايد بالعنصرالموريسكي نذكر منها عملين رائدين في هذا الميدان

عمل الباحثة الفرنسية Martine Ravillard, La bibliographie commentée des Morisques Documents imprimés de leur origine 1978 وهو بحث لنيل شهادة دبلوم الدراسات العليا ناقشته صاحبته في جامعة الجزائر سنة 1979

تحت إشراف الباحث الموريسكولوجي الفرنسي الشهير Louis Cardaillac، جمعت فيه 1059 عنوانا ولكنه للأسف لم يطبع.

وعمل الباحث الإسباني Miguel Angel de Bunes Los Moriscos en el pensamiento historico، تحت إشراف مرسيديث أرينال، وهو عمل تحليلي نقدي للأعمال والاتجاهات التاريخية الموريسكية، وديله صاحبه ببليوغرافية غنية لتلك الأعمال. وقد اعتمد هذا العمل في الكثير من الدراسات البيبليوغرافية اللاحقة

وتعزز هذا الجانب في الدراسات الموريسكية بأعمال ومجهودات متتالية لا تعرف الفتوركأعمال Mikel de Epalza, (20) Bernard Vincent, (21) Louis Cardaillac, (22) Dominguez Ortiz; (23) Paz Fernandez, Garcia Carcel (24), Luis Cortés, وغيرهم. ويمكن أن نعد آخرها مقال مرسيديث أرينال الذي لم ينشر بعد، والذي أشرت إليه قبل قليل، أحاطت فيه صاحبته بالتوجهات المسيطرة حاليا على الأعمال الموريسكية مع نقد بعض الأعمال وختمته بما جد من هذه الأعمال خلال العقد الأخير إلى آخر سنة 1999 وبداية السنة الحالية (25).

ومن البيبليوغرافيات العامة توجهت عناية الباحثين إلى وضع بيبليوغرافيات محلية أو محورية دقيقة، ولابأس أن نشير هنا إلى البعض منها، وتأتي في مقدمتها جميعا عمل Mikel de Epalza, Jesús Paternina y Antonio Couto حول الموريسكيين في شرق الأندلس، وصلوا فيها إلى 2119 عنوان إلى حدود سنة 1982 (26)، وعمل Ricardo Garciá Cárcel La historiografía sobre los Moriscos espanoles: aproximacion a un estado de la cuestion (27) الذي اهتم فيه بالجانب السوسيولوجي، والبيبليوغرافيا الدينية التي وضعها الأستاذ Darío Cabanelas لمؤلف Pedro Longás : La vida religiosa

.de los Moriscos، وعمل Angel Luis Cortés Pena حول الموريسكولوجيا في المجلات الأندلسية المشار إليها أعلاه، ويمكن أن ندرج في هذا الباب البيبليوغرافيات التي وضعها الموريسكولوجيون حول موريسكيي تونس (28) ونختم هذا الجرد السريع بعملين لميكيل دي إيبالثا ولويس برنابي حول بيبليوغرافية المدجنين والموريسكيين (29).

وتوج هذا المجهود المتكامل بإصدار نشرة سنوية تهتم خاصة بنشر عناوين المؤلفات والرسائل الجامعية والملتقيات والندوات والموائد المستديرة والأيام المنعقدة التي تدور مواضيعها ومحاورها حول المدجنين والموريسكيين، بمساهمة مجموعة من الباحثين المهتمين من جامعتي Alicante و Oviedo تحمل اسم Aljamía. Boletín de Informaión bibliográfica. Mudéjares, Moriscos, Textos Aljamiados, Filología Arabo-Romana رأى العدد الأول منها النور سنة 1989 وشمل 108عنوان، ووصلت إلى عددها الثاني عشر.

3- المراكز والمعاهد والمجلات المتخصصة والأنشطة العلمية في الدراسات الموريسكية

وهي المرآة الحقيقية الثالثة التي تنعكس فيها أهمية هذه الدراسات وتطورها والمحاور المتناولة فيها، والمجهودات المثمرة المتواصلة، والاهتمام المتزايد بها من طرف الباحثين، ومنظمي اللقاءات، ومديري المجلات.

وتعتبر الكليات، ليس في إسبانيا فحسب، بل في فرنسا ، Montpellier وباريس، وفي كندا ، Toronto وفي الجزائر وتونس من البلدان العربية، أهم مراكز الدراسات الموريسكية. وهنا لا بد أن نسجل غياب هذا التخصص في جميع كلياتنا بالرغم من اهتمام شعبها بالأدب والتاريخ الأندلسيين منذ إنشائها.

وتأتي في الدرجة الثانية المعاهد والمراكز الخاصة بهذا النوع من العلوم. وفي هذا الباب نثمن مجهودات الباحثين التونسيين الذين اهتدوا إلى فتح معاهد خاصة للبحث الموريسكي، ويتعلق الأمر، كما يعلم الجميع، بالمعهد الوطني للأركيولوجيا والفنون الذي أنشئ منذ بداية السبعينات، والتابع لوزارة الثقافة. وقد اهتم الباحثون فيه بالأندلسيين وأحفادهم في تونس من الناحية الأركيولوجية والوثقية والانتربونيمية، ونستحضر في هذا المركز أعمال الأستاذ القفصي وغيره حول الموريسكيين في تونس.

أما المركز التونسي الثاني المتخصص في الدراسات الموريسكية فهو: مركز الدراسات والأبحاث العثمانية والموريسكية: الوثائق والمعطيات CEROMDI Centro de Estudios e Investigación Otomana y Morisca y de Documentación y de Información الذي أنشأه ويتولى إدارته الأستاذ عبد الجليل التميمي، وندواته ومنشوراته غنية عن التعريف.

وفي إسبانيا يمكن الإشارة إلى معهد دراسات مدينة ترويل الذي كان في بدايته يعقد لقاءات دولية حول المدجنين وأضاف إليها في السنوات الأخيرة فضاء خاصا بالموريسكيين، ولن نقفل هذه اللائحة دون الإشارة إلى معهد أوفييدو الذي عقد أول مؤتمر حول الدراسات الموريسكية سنة 1972 وإن كان قد تمحور بالدرجة الأولى حول الأدب الأعجمي الموريسكي.

وبعد العقد الثامن من القرن العشرين تزايد الاهتمام بالموضوع الموريسكي فعقدت لقاءات عديدة نكتفي بالإشارة إلى بعضها سنة 1980 يعقد لقاء في ألكانتي، وبعده بسنة واحدة في فرنسا، وفي سنة 1983 ينعقد في تونس اللقاء الثاني للدراسات الموريسكية، الذي ينعقد على رأس كل سنتين. وقد كرست هاته اللقاءات التونسية التوجه الإسلامي الذي طبع

الدراسات الموريسكية في العقدين الأخيرين تحت تأثير العوامل الأربعة التالية

- التطور الذي عرفته الدراسات الإسلامية في إسبانيا وخاصة دراسة الأدب الأعجمي الموريسكي

- انضمام العديد من المؤرخين العرب لهذا النوع من التخصص

- انضمام المستعربين الإسبان إلى الدراسات الموريسكية

- أطروحة Louis Cardaillac التي وضعت الجانب الإسلامي في وسط القضية الموريسكية.

كما نظمت ندوات علمية أخرى تتمحور كلها حول الموريسكيين وحول تهجيرهم في برشلونة ومدريد، وتعقد لقاءات في Teruel لتدارس قضية المدجنين والموريسكيين.

ومما يدل على الاهتمام المتزايد بالعنصر الموريسكي، تخصيص بعض دور النشر الإسبانية الشهيرة ك gredos بمدريد فضاء هاما لنشر سلسلات خاصة بهذه المادة مثل Colección de Literatura aljamiado-morisca التي أنشأها ويشرف عليها الأستاذ كالميس، وإصدار مجلات متخصصة كمجلة شرق الأندلس دراسات مدجنية وموريسكية، من جامعة ألكانتي، ونشرة Aljamia التي سبقت الإشارة إليها من جامعة أوفييدو، ومجلة Chronica Nova من شعبة التاريخ الحديث من جامعة غرناطة التي ينشر الباحثون فيها جديدهم في هذا الحقل، ومجلة Saitabi من بلنسية، والقنطرة Alcantara عن المعهد العالي للأبحاث العلمية بمدريد، و Miscelanea de Estudios Arabes y Hebraicos عن كلية الآداب بغرناطة.

وبعدما قدمنا صورة تقريبية لراهن الدراسات والأبحاث الموريسكية الإسبانية، لأننا لا نزعم من خلال هذه الأسطر القليلة أن نحيط بكل ما كتب ونشر وأعيد نشره لمرات عديدة من الأعمال الموريسكية، بالطريقة التي يقوم بها البيبليوغرافيون والمتخصصون، لا بد من طرح السؤال التالي: ما نصيب موريسكيي المغرب في هذا التنوع الموضوعاتي والمنهجي؟. للأسف إنه شحيح لأننا إذا استثنينا بعض المتخصّصين الذين اهتموا في أعمالهم بالمغرب وعلى رأسهم Guillermo Bustos Gozalbes فإن حصيلة الدراسات والأعمال والأبحاث عن موريسكيي المغرب ضئيلة خاصة إذا قورنت بمثيلاتها عن موريسكيي تونس. ونتمنى أن تكون هاتان الندوتان اللتان عقدتهما أكاديمية المملكة المغربية حول موريسكيّي المغرب حافزا كافيا للتفكير في إعادة كتابة جزء من تاريخ هذا البلد ما زال يطاله الكثير من النسيان والإهمال.

ونمر إلى الشق الثاني من هذه المداخلة، وقد خصصناه، كما أعلناه قبل قليل، لدراسة أهم محور في الدراسات الموريسكية عبر تاريخها الطويل، ألا وهو تهجير الموريسكيين وما أثاره منذ البداية من تعارض في الآراء والتصورات والقراءات والنتائج.

لماذا اختيار هذا الموضوع بالضبط بالرغم من تشعب المواضيع في الموريسكولوجيا ؟.

لأنه حدث بارز في تاريخ إسبانيا في القرن السابع عشر، يكتسي دلالة مأساوية إذا أخذنا بعين الاعتبار القرون التسعة التي عاشها المسلمون في شبه الجزيرة الإيبيرية، ولأنه يعني النهاية الوحشية للموريسكيين. فمن الناحية الاجتماعية يعني محو أقلية بأغلبية في المجتمع الإسباني، ويعني من الناحية

التاريخية نهاية تسعة قرون من الإسلام في الأندلس، وهي نهاية مؤلمة لتاريخ مجيد.

لأن التعبير عنه بأي كلمة من الكلمات التي يستعملها المتخصصون الطرد، النفي، الإبعاد، التهجير لا تستطيع أن تعكس، بعد أربعة قرون، بصدق حقيقة الحدث، فهو أكبر من الطرد وغيرها من الكلمات نتيجة الأعمال اللاّإنسانية التي ارتكبت في حق الإنسان الموريسكي، لذلك كان لا بد لمدلوله أن يتطور مع تطور التاريخ، فينتقل من مؤشر ديني إيجابي في الكتابات المعاصرة للحدث وحتى قبله، تلك الكتابات التي كانت ذات مزاعم إيديولوجية، تستند إلى النظرة الأحادية في تبرير قرار فيليب الثاني، ليتحول في العقود الأخيرة، في الدراسات والأبحاث التي تعتمد المنهجية العلمية بالأساس إلى مؤشر اقتصادي وديموغرافي سلبي جنت ويلاته إسبانيا.

لأنه محور كان حاضرا بكل ثقله في الأستغرافية الموريسكية الإسبانية مما أدى إلى الاهتمام المتواصل به، وظهور عدد كبير من الأبحاث والدراسات ومنها ما كان معاصرا لنفس فترة فيليب الثاني، وهي المرحلة التي شهدت انهزام الموريسكيين الغرناطيين وإبعادهم إلى مناطق أخرى، ولفترة فيليب الثالث.

ولأنه أخيرا القضية التي اختلفت حولها الآراء في الدراسات الموريسكية بما في ذلك أثناء مرحلة ما قبل تنفيذ القرار، فتعارضت وتباينت، وبالرغم من أن الأقلية كانت تعد الإجراء عادلا، وذا نفع عام، ووقاية وجنة من جميع الأخطار التي من شأنها أن تهدّد العرش الإسباني، ووسيلة لتحقيق الوحدة الدينية، فإننا لا نعدم في المرحلة ذاتها أصواتا وقفت موقف الرفض، وأبانت عن عدم أحقيته ومشروعيته، وعددت نتائجه الوخيمة على اقتصاد البلاد. وسنبدأ بالكتابات التي أرّخت للحدث إبان وقوعه.

حَدث التهجير والكتابات التبريرية في القرنين 16-17

يبدو من خلال تلك الكتابات أن قضية الموريسيكيين وما كان ينبغي اتخاذه إزاءهم من الإجراءات كانت حاضرة ولمدة طويلة في فكر السياسيين الإسبان. وفي هذا الإطار يمكن أن ندرج محاولاتهم المتعددة من أجل تحقيق الوحدة الدينية بواسطة catequesio (تعليم أصول الدين) التي باءت جميعها بالفشل بالرغم من تنوع أساليبها. ومما زاد الوضع تأزما استحالة الرجوع إلى سياسة التسامح التي سادت شبه الجزيرة الإيبيرية في فترات سابقة. أمام هذه الوضعية بدأ التفكير في التخلّي عن التعميد القسري، وفي إلغاء محاكم التفتيش والسماح بالرحيل إلى خارج إسبانيا للذين يودون ذلك. إلا أن صعوبات جمّة حالت دون تنفيذ تلك القرارات، فرأى المسؤولون العودة إلى استعمال القوة أمرا ضروريا، وكان من بين القرارات المتخذة

- قرار قسيس طليطلة García de Loaysa الصادر سنة 1598 والقاضي بمنع زواج الموريسكيين من غير المسيحيين.

- التعميد القسري للمولودين الجدد. وللتذكير فإن التعميد القسري لم يكن وليد هذه المرحلة وإنما سبق Cisneros قسيس طليطلة إلى تطبيقه عندما أقال Talavera الذي كان يعمل ما في وسعه لتنفيذ بنود اتفاقية سنة 1492 وخصوصا ما يتعلق بحرية العقيدة، وشرع في حملة التعميد القسري الفردي والجماعي. وأدت سياسته تلك إلى الكثير من الاضطرابات أهمها اضطراب سنة 1499 الذي اندلعت شرارته في البشارات لتنتقل عدواها إلى أرباض أخرى وخصوصا البيازين. وتلا هذا القرار قرار سنة 1502 الذي يقضي بإبعاد جميع الموريسكيين إلى قشتالة إذا رفضوا الدين الجديد.

- إنشاء مدارس خاصة، إلا أن فشلها في كل من غرناطة وبلنسية وطرطوشة أبعدت هذه الإمكانية.

- تجميع الموريسكيين في منطقة نائية.

- منعهم من مزاولة بعض الأنشطة التجارية وإلزامهم بالفلاحية منها.

- وأخيرا قرار التهجير بالرغم من وعيهم بما قد يجره من ويلات على البلاد [30].

فمن خلال هذه القرارات وغيرها يبدو -كما ذهب إلى ذلك الباحث José María Perceval أن فكرة احترام الآخر كانت منعدمة في إسبانيا خلال القرنين 16 و17. لأن احترام الموريسكيين يعني احترام دينهم ولغتهم وعاداتهم في المأكل والملبس وتقاليدهم الخاصة، وذلك ما لم يحدث فعلا، حتى الذين كانوا يسمون أنفسهم بأشباه المتسامحين أيدوا سياسة الاستيعاب، ونادوا بمنع كل ما سبق ذكره لمحو كل علامات الاختلاف.

لذا لا يمكن أن نتحدث في هذه المرحلة عن محاولة أو سياسة الاستيعاب، لأن مؤيد الاستيعاب يعمل بكل وسائله على محو الاختلاف، الاختلاف في حد ذاته، ولكنها في الواقع كانت عملية إبادة واستئصال للموريسكي، والمبيد لا يكفيه محو الاختلاف ولكنه يجمع في مذهبه بين الاختلاف والمخالف، لذا لن تتم العملية إلا بتصفيتهما معا. فالأول كان يهدف القضاء على الموريسكي كموريسكي، ليموت موريسكيا ويولد مسيحيا، في حين أن الثاني يرى أن ذلك مستحيلا دون الإبادة البدنية للموريسكي. وقد أدى هذان التصوران إلى خلق موريسكي خيالي كان ثمرة التناقضات بين الاستيعاب والإبادة [31] هو النموذج الأصلي المجسم لجميع الموريسكيين، النموذج الذي لم يوجد قط. ومن خلال الكتابات المعاصرة للحدث يمكن أن نستنتج أن السياسة المتبعة وقتذاك كانت إبادية وتطهيرية، فجاءت كتاباتهم كلها تبريرية وهذا التبرير تضمنته عناوين مؤلفاتهم التي تفتتح بكلمة أحقية الطرد Expulsión justificada o justificada

expulsión (32) ومن أكثر الكتاب تطرفا في تلك المرحلة Jaime Bleda (33) الذي قضى جل أوقاته في محاولة إقناع المجتمع الإسباني بضرورة طرد الموريسكيين الذين ينعتهم بجميع النقائص منها الإلحاد. ويستحضر مشاهد دامية من التاريخ الإسلامي في الأندلس، منذ الفتح إلى ثورة البشارات، لإثارة مشاعرهم، مهونا من عواقب الحدث. فهو، في رأيه، ليس حدثا جديدا في تاريخ إسبانيا، وما فعل فيليب الثاني ليس إلا تتميما ومواصلة للجهود التي ابتدأها Jaime el Conquistador ، فالموريسكي، في رأيه، تشخيص للشر، ومصدر القلاقل والفتن، يؤيده النبلاء، ويهدد استقرار البلاد وأمنه، وأن العرش الإسباني حاول بجميع وسائله استيعابه وإدماجه في المجتمع الإسباني ولكنه لم يفلح أمام صموده وتحديه، لذلك فإن طرده واجب وحق مشروع.

ولا يبتعد Damián Fonesca (وهو من أصل برتغالي) عن هذا الرأي، ويعتبر قضية الطرد أمرا موحى من الله، وحجته في ذلك العذاب الذي كان ينتظر الموريسكيين بين أبناء دينهم، وما نالهم من السطو والسرقة والتشرد من طرف أبناء جلدتهم. وهذا التعليل ليس إلا تأييدا لقرار السياسة الإسبانية، ويحاول تعداد إيجابياته الأخلاقية والدينية والمتمثلة جميعها في القضاء على الموريسكي بكل حمولاته.

وتذرع Pedro Aznar Cardona بحجة تطهير إسبانيا من الأقلية الملحدة لتبرير هذا الموقف، معلنا عداءه للإسلام والمسلمين، ومذكرا بعادات الموريسكيين وتقاليدهم الخاصة في المأكل والملبس والنظافة التي تشمئز منها نفوس المسيحيين.

وبالرغم من وعيهم المبكر بالنتائج السلبية لهذا القرار على المستوى الاقتصادي فإنهم لم يعدموا الحجج لتبريرها، لذا يرى Guadalajara y Javier،

للتخفيف من وطأة الأزمة، أن إسبانيا عاشت رخاء بعد طرد الموريسكيين (وهو الأمر الذي يخالف الواقع حسب ما تبين عنه الدراسات العلمية الحديثة)، وتخلصت الشواطئ من القراصنة، واختفت السكة المغشوشة، وبدأ الناس يشعرون بالأمان في حلهم وترحالهم، وأصبحوا متحدين دينيا. ويعلل ذلك بفلسفة جديدة مفادها أن الممتلكات الدنيوية لا أهمية لها، والفقر نعمة، والغنى الحقيقي هو احتقار الدنيا.

ونكتفي بهذا القدر من النمادج، فالنصوص كلها تشهد بالوضعية المتأزمة بالرغم من عدم الاعتراف بها، وتهجير الموريسكيين كان وبالا على إسبانيا وخاصة من الناحية الاقتصادية والديموغرافية كما سنرى بعد قليل. وليس إعراب رجال الكنيسة ومن نحا نحوهم عن رضاهم وفرحتهم بهذا القرار إلا محاولة تبريرية للقرار المتخد، لم تعرفها الكتابات اللاحقة.

ومن خلال النصوص التي استقرأناها نستنتج أن التبريرات حولت الجماعة الموريسكية في القرن السادس عشر إلى موريسكي واحد، سهل التعريف، ومع هذا النموذج المتخيل ينبغي أن يتطابق أو يختلف الموريسكي الحقيقي الواقعي الذي تحول إلى شخصية خارج التاريخ والمجتمع، الموريسكي arquetipo، الذي ينبغي تصفيته وإبادته. فالموريسكيون كلهم واحد في الأصل حسب Xavier Guadalajara، وكلهم واحد في الكراهية حسب Jaime Bleda. وترجمت تلك الكتابات الحقد والعداء الدفينين اللذين يكنهما أصحابهما للموريسكي. فهو عداء للموريسكي في شخصه: لأنه مصدر كل شر، ومصدر القلاقل والفتن، وعداء له في دينه: لأنه ملحد ومتآمر ضد المسيحية مما يزيدهم تطرفا في مواقفهم من الدين الإسلامي ومن رسول المسلمين،ﷺ، عداء له في عاداته وتقاليده في المأكل والملبس والنظافة

التي تتأثر لها حواسهم، عداء له في لغته: سواء في لغته الأم العربية La algarabiya أو في لغته المكتسبة romance لأنه لا يتقن التحدث بها.

لذا فإن التطهير لم يكن دينيا فحسب كما زعم بعض المؤرخين ولكنه كان دينيا وعرقيا في نفس الآن، ونفذ باتخاذ قرارات وإجراءات من شأنها تصفية الموريسكي في شخصه ودينه ولغته وعاداته وتقاليده. ومن تلك القرارات

- المنع من استعمال اللغة العربية
- المنع من استعمال اللباس
- المنع من حمل السلاح
- فرض الضرائب وإثقال كاهل الموريسكي بغير المشروع منها
- التعميد القسري

- وكان آخرها قرار الطرد الذي نشر في بلنسية أولا سنة 1609 نظراً لموقعها الاستراتيجي بالدرجة الأولى، ليشمل بعد ذلك مناطق أخرى في شبه الجزيرة الإيبيرية من شمالها إلى جنوبها ومن الشرق إلى الغرب. وهو ما تعكسه الكتابات الميكرومحلية التي اهتمت بطرد الموريسكيين في منطقة أراغون أو في مالقة أو في قلعة بني يحصب أو غيرها.

وحسب رأي Perceval فقد مرت عملية تنفيذ القرارات والإجراءات بالمراحل التالية (34)

Infantilizatión وهي المرحلة الأولى التي عومل الموريسكي فيها كطفل، لذا ينبغي تعليمه أصول الدين الجديد دون تقدير لمشاعره ولعقيدته

ودون اعتبار سنه. وهذه المرحلة تعد أكثر المراحل ليونة في التعامل مع الموريسكي من أجل استيعابه وإذابته في المجتمع المسيحي.

Feminización، ينبغي معاملته كأنثى، أولا لأنه رجل مزواج وثانيا لأنه يريد أن يعتنى به كما يهتم بالمرأة.

Animalización، وهي مرحلة ثالثة في محاولة استيعابه، فهم حيوانات ولكن بدون ترويض، حيوانات بدون عقل، وهم كفراخ الدجاج ينبغي إطعامهم بتلقينهم أصول الدين الجديد.

Cosificación، وهي آخر المراحل وفيها تحول الموريسكي إلى شيء مادي، فهو إما مصدر الغنى بالنسبة لخزينة الدولة أو هو عدد محدود للطرد.

تأرجح قضية الطرد بين التأييد والمعارضة في الكتابات المحافظة والليبرالية خلال القرن التاسع عشر

أشرنا أثناء حديثنا عن الكتابات الموريسكية في القرن التاسع عشر أن الاهتمام بالقضية الموريسكية دخل في النسيان مع نهاية آخر حاكم من سلالة Los Austrias (وهي السلالة التي حكمت إسبانيا خلال القرنين السادس والسابع عشر) ووصول السلالة الجديدة إلى الحكم، ولم يعرف الاهتمام بها انتعاشته إلا في مطلع القرن الماضي مع Boronat y Barrachina ومؤلفه Los Moriscos españoles y su expulsión. Estudios históricos الصادر ببلنسية سنة 1901 إلا أن موقف المؤلف الهجومي ضد الموريسكيين حال دون اعتباره بداية حقيقية لتاريخ جديد للموريسكيين بعيد عن الإيديولوجيات والنزاعات الدينية والإثنية. ويمكن أن نصنف تلك الكتابات في اتجاهين بارزين طبعا الكتابات التاريخية لتلك الفترة :

الاتجاه المحافظ، ويمثله المتشددون الذين واصلوا الدفاع والمطالبة بالوحدة الدينية مقابل أي قرار، وهم غير قادرين على توجيه أي انتقاد للسلطة المركزية. ويمثل هذا الاتجاه :(35) Manuel Danvila y Collado (36) Marcelino Menéndez elayo من بين مؤرخين آخرين.

الاتجاه الليبرالي، ومعه نشهد البدايات الأولى للتغييرات التي ستطرأ على مواقف الإسبان إزاء القضية الموريسكية بصفة عامة، وقضية طردهم وتهجيرهم على وجه الخصوص. وهم أكثر تسامحا من أصحاب الاتجاه الأول مع الموريسكيين، وأكثر عطفا عليهم فيما أصابهم من محن، وأشد انتقادا للسلطة وخاصة لسياستها الاستيعابية/ الإبادية التي شنتها ضد الأقلية المسلمة بدءا من الملكين الكاثولكيين إلى عهد فيليب الثاني ومن بعده. ونجد هذا الاتجاه ممثلا في مؤلفات Modesto Lafuente, (37) Muñoz y Gaviria y Janer (38) الذين تحول حدث الطرد في نظرهم إلى أكثر الأحداث التي عاشتها إسبانيا خلال قرون تعاسة على مستويات عدة، بدءا من المستوى الإنساني والأخلاقي إلى المستوى المادي الاقتصادي. لأن الحقد والكراهية للموريسكي كانا الحافز الرئيس من وراء ذلك الإجراء، فبحثوا جاهدين عن أسباب ذلك العداء والحقد ليجدوها ممثلة في القساوة التي عومل بها الموريسكيون سواء من طرف السلطة المركزية أو محاكم التفتيش، ويصرحون بإمكانية إيجاد حلول وسط غير الطرد الوحشي لمراقبة الموريسكيين وتجنب الكارثة التي طالت السكان والفلاحة والصناعة.

ولكننا نعيد طرح نفس السؤال الذي طرحناه من قبل، ونحن بصدد تثمين هذا الموقف الإنساني، هل كان هؤلاء المؤرخون بالاتجاهين معا يقبلؤن ببقاء الأقلية المسلمة في إسبانيا لو عاشوا الحدث ومراحله المختلفة

خلال القرنين السادس والسابع عشر؟ إن نظرة متمعنة في أعمالهم تقودنا إلى الجواب بالنفي اللهم إذا استثنينا منهم .Munoz y Gaviria, J الذي عبر بوضوح عن موقفه من الإسلام والمسلمين، إن لم نقل، عن إعجابه بالعالم الإسلامي، والذي قال بإمكانية الإبقاء على التسامح الذي كان سائدا بين الإسلام والمسيحية في القرون الوسطى، لذا فهو يعتبر حدث الطرد أكبر خطأ سياسي نفذ بطريقة غير عادلة ولا إنسانية. لأن العرب الفاتحين، على حد قوله، هم الذين خلفوا لإسبانيا تراثا زاخرا في الفن والصناعة والفلاحة، وهم الذين عملوا على إخصاب جنوب شبه الجزيرة الإيبيرية. ورغم تسامحه المعلن عنه مع الموريسكيين، لأن قرار الطرد في رأيه كارثة اقتصادية، وغير ضروري للمحافظة على الأمن الداخلي، ولكنه بالمقابل يعتبره إيجابيا لتحقيق الوحدة الدينية.

أما مجايلوه فكانوا، بالرغم من أن رائحة التعاطف والتسامح تشم من أعمالهم، فلم يعبروا عن مواقفهم من الإسلام، وكانوا يحصرون رؤيتهم في النتائج الاقتصادية السلبية التي كان قرار الطرد من ورائها. لذلك يرى .Menéndez Pelayo, M أن الطرد كان لا بد منه لأنه تنفيذ قسري لقانون تاريخي، ويلقي المسؤولية فيه على أولئك الذين جعلوا التعميد السلمي أمرا مستحيلا فاستخدموا القوة بدل اللين. أما النتائج الاقتصادية والديموغرافية فهي في رأيه سلبية ولكن العزاء والتعويض في توحيد العرق والدين واللغة والعادات والتقاليد.

ويتأرجح موقف Modesto Lafuente بين الشفقة من المصير المجهول الذي كان ينتظر الموريسكيين، والإعجاب بهم، لأنهم جديون في أعمالهم، والاحتقار لقساوتهم وتطرفهم الديني.

لذا فإن البدايات الأولى للتعاطف مع الموريسكيين والتصريح بالنتائج السلبية التي أحدثها قرار الطرد وتكبدتها إسبانيا بدأت فعلا في القرن التاسع عشر ولكنها جاءت لتؤيد، وإن بطريق غير مباشر، ما رأيناه في كتابات القرن السادس والسابع عشر من جعل الوحدة الدينية والعرقية فوق كل اعتبار، ولم تختلف عن سابقاتها إلا في نقد الوسائل المستعملة في سياسة الاستيعاب والتي لم تفلح في امتصاص الأقلية المسلمة وإدماجها التدريجي في المجتمع المسيحي. لكن هذه المواقف ستتغير لصالح الموريسكيين وضدا على القرار ومنفذيه في الكتابات المعاصرة وذلك ما سنحاول التعرض إليه في النقطة التالية.

التهجير في الدراسات الموريسكيّة المعاصرة من مؤشّر ديني إيجابي إلى مؤشّر اقتصادي وديموغرافي سلبي.

مع الباحثين والدارسين الإسبان المعاصرين تتغير الرؤى والتصورات القديمة لمفهوم التهجير ويبقى الإجماع حاضرا فيها جميعها حول سلبيات ذلك الإجراء وخاصة على مستويين حيويين: المستوى الديموغرافي والاقتصادي. وتتميز هذه الكتابات بالبعد عن النظرة الأحادية، وعن النزعات الإيديولوجية وقراءة الحدث قراءة علمية.

لذا كان على الباحثين المهتمين، لدراسة هذه النتائج وإثباتها بطريقة علمية موثوق بها، الاستناد إلى دلائل وحجج دقيقة. فالنتائج السلبية على المستوى الديموغرافي المتمثل أساسا في الانخفاض الملموس الذي عرفته ساكنة إسبانيا بعد طرد الموريسكيين لا يمكن تقديره بنوع من الدقة إلا باستخدام التقارير والبيانات وسجلات الولادات والوفيات المختلفة التي توضح وزن الأقلية داخل مجموع السكان. كما أن إثبات سلبيات النتائج على

المستوى الاقتصادي يبدو مستحيلا إذا لم يدعم بشهادات ووثائق معاصرة للحدث، كتلك التقارير المفصلة والإحصاءات الدقيقة التي تمد الباحثين بها، والوثائق المتنوعة والغنية التي تزخر بها الأرشيفات الوطنية مثل Archivo Histórico Nacional y Archivo General de Simancas، والأرشيفات المحلية والجهوية التي تساعد الباحثين في أعمالهم، وتمدهم بمعطيات ثمينة حول نتائج هذا الإجراء تمهد أمامهم السبل للوصول إلى نتائج دقيقة.

إلا أن ما ينبغي التنبيه إليه ونحن نعالج هذه القضية أن الآثار السلبية لتهجير الموريسكيين تتغير من منطقة لأخرى داخل جغرافية شبه الجزيرة الإيبيرية، ووفق المناطق وعدد الموريسكيين الذين استقروا فيها. ولذا حاولنا أن نأخذ نماذج لمناطق مختلفة في خارطة إسبانيا حتى يتسنى لنا إعطاء ولو صورة تقريبية لسلبيات القرار في مجموع شبه الجزيرة.

ففي مملكة بلنسية مثلا أحدث خروج الموريسكيين منها، خاصة وأنها أول منطقة نفذ فيها قرار الطرد، تلفا اقتصاديا وديموغرافيا ملحوظين ظلت تجر عواقبه سنين عديدة (39)، ومست هذه الأزمة غرناطة قبل غيرها من المناطق الإسبانية نتيجة الخروج المكثف للموريسكيين الذي أمر به فيليب الثاني سنة 1569 (40). ولوحظ تراجع مهم على مستوى الزراعة المسقية في منطقة أراغون (41)، وتغيرت الوضعية جراء هذا التهجير في غرب الأندلس و Las dos Castillas وextremadura(42)، في حين أن جزر الكانارياس مثلاً لم تمسها هذه الكارثة الإنسانية والاقتصادية لعدم خروج الساكنة الموريسكية منها بالرغم من أن قرار الطرد لم يستثنهم بل عاملهم كما عامل إخوانهم في شبه الجزيرة، وأن محاولات تهجيرهم بدأت سنة 1530 في جزيرة تنيرف Tenerife عندما أعلن المجلس الإداري للجزيرة أن الوجود الموريسكي يهدد أمنها (43).

ولتقدير الخسائر الديموغرافية والاقتصادية التي عانت منها إسبانيا بعد التهجير الجماعي للموريسكيين سنعمد إلى تناولها في النقط التالية:

1- النتائج الديموغرافية

يجمع الباحثون المهتمون بأن سلبية تلك النتائج كانت واضحة وجلية في كل المناطق التي سكنها الموريسكيون. ولنضرب أمثلة للبعض منها: ففي منطقة أراغون، وبالضبط في مدينة سرقسطة، وانطلاقا من الوثائق المحفوظة في دير القسيس سان بابلو بحكم وجوده بالقرب من أحياء المسلمين فإن سجلات الولادات والوفيات والزواج والتعميد سجلت تراجعا قدر بما يزيد عن عشرين في المائة، وأن مدينة سرقسطة فقدت ما يقرب من 15 في المائة من ساكنتها وهو ما يقدر ب 340 عائلة أو 1850 شخص وهو تراجع خفيف نوعا ما (44).

لكن في Condado de Aranda، ومن منطقة أراغون أيضا كان الانخفاض الديموغرافي أكثرحدة مما شهدناه في سرقسطة. ولنوضح ذلك ببعض الأرقام:

ففي سنة 1495 كانت الساكنة الموريسكية تقدر ب 570 بيت أي 2850 شخص بمعدل 5 أشخاص للبيت الواحد.

وفي سنة 1593 وصل عددها إلى 2338 بيت أي 11890 شخص.

وفقدت هذه المقاطعة في سنة 1610، 2011 بيتاً أي ما يقدّر بـ 47،41 في المائة (45). وفي نفس المقال تمدنا الباحثتان بأرقام تبين عدد المعمرين الجدد، ونلاحظ الفرق البين بين العدد الأصلي للموريسكيين وبين العدد الجديد لساكنة المقاطعة، وهو فرق ظل كبيرا بالرغم من محاولات السلطة

المركزية لتعمير المناطق بسرعة. ولتوضيح ذلك نعطي بعض الأرقام الناطقة بالأزمة الديموغرافية في مقاطعة أراندا

فمن Almonacid خرج 319 بيت وعمرت بـ 82 بيت فحسب

ومن Mesones خرج 200 بيت ودخل 61.

ومن Sestrica خرج 237 بيت وعوضها 78 بيت فحسب.

وإذا أردنا أن نترجمها بالنسبة المائوية نلاحظ أنها كبيرة جدا، فقد فقدت هذه القرى من مقاطعة أراندا 72،08 من ساكنتها وعليها أن تنتظر ما يزيد عن نصف قرن لتسترجع عدد سكانها قبل خروج الموريسكيين منها[46].

وهذه الأرقام هي مقياس الوضعية المتأزمة التي أصبحت عليها تلك المقاطعة.

ولم يكن حال مقاطعة أراندا استثنائيا، فقد لازمت هذه الأزمة خروج الموريسكيين في أكثر من منطقة. وتعرض الباحثون في دراساتهم المحلية إلى هذه الظاهرة معتمدين الوثائق المحفوظة في أرشيفات البلديات وغيرها. فقد كان حدث إبحار مورسكيي Elche مؤلما وصفه أحد الدارسين بقوله: كان مشهدا عظيما، الأغنياء يبكون والفقراء يضحكون، خرجوا إلى هذا المركب من باب الربض، وكان الأغنياء ينظرون بحسرة إلى ما خلفوا وراءهم، وإلى منازلهم التي تركوها جاهزة وهم متوجهون إلى مصير مجهول.

وتم إبحار هؤلاء من سانتا بولا حيث كانت تنتظرهم تسع سفن صقلية وأربع برتغالية لتنقلهم إلى وهران والمرسى الكبير. وحدد العائلات الموريسكية التي شملها الطرد في أربعمائة عائلة مما أدى إلى انخفاض ملموس في ساكنة المدينة[47] وكذلك كان شأن مورسية، فحسب الباحث

Juan Bautista Vilar [48] نفذ قرار الطرد على مرحلتين: المرحلة الأولى من 8 إلى 22 مارس 1610 وشملت 6562 غرناطي كانوا قد استقروا بمدينة ألمرية، وفي المرحلة الثانية هجر 15000 ما بين مدجن وموريسكي، وكان على المملكة أن تنتظر أكثر من قرن لتعود ساكنتها إلى العدد الذي وصلته قبل 1609.

ونكتفي بهذه الأمثلة لأن غنى الأعمال والأبحاث وتنوعها يحولان دون حصرها، ولكن يكفينا أن نستحضر عمل Manuel Barrios لندرك الحالة التي أصبح عليها ربض البيازين وقد أفرغ من موريسكييه [49] وعمل Valeri Boet عن La Rapita ومينائها Alfacs ودورهما في تهجير الموريسكيين [50] والأعمال الكثيرة التي تناولت الأزمة الديموغرافية والتراجع السكاني اللذين عانت منهما إسبانيا نتيجة تهجير الموريسكيين. ونظرة ثانية إلى الأعمال التي خصصها أصحابها لظاهرة تعمير المناطق الفارغة Repoblacion بالمعمرين الجدد وطريقة تفويت أملاك الموريسكيين إليهم Libros de Repartimiento تثبت لنا أن الأزمة لم تكن أزمة عابرة ولكنها ضربت بجذورها في ساكنتها وكان على الحكام والبلد أن ينتظرا مرور قرن وأزيد في بعض المناطق لتسترجع إسبانيا قوتها الديموغرافية [51].

2- الانعكاسات السلبية على اقتصاد البلاد

لا نبالغ إذا قلنا بأن اقتصاد إسبانيا في جميع القطاعات تأثرا تأثرا عميقا نتيجة خروج الموريسكيين منها، وإذا كانت الكتابات التبريرية التي أشرنا إليها سابقا، بالرغم من وعيها بهذه النتائج السلبية، فضلت الوحدة الدينية والعرقية على أي ازدهار آخر، فإن هذا التوجه الإيديولوجي سرعان ما بدت آثاره واضحة في الاقتصاد الإسباني واندلعت حرب الانتقادات والمعارضة لقرار الطرد، وهو ما أثمر بيبليوغرافية غنية في الكتابات

المعاصرة التي اعتمدت الموضوعية، وكشفت بصدق عن الخطإ الذي ارتكبه أصحاب القرار، واعتبرته وصمة عار من الناحية الإنسانية، وكارثة من الناحية الاقتصادية.

إلا أن أكثر القطاعات تضررا بهذا الإجراء كان ولا شك قطاعا صناعة الحرير والفلاحة. فبالرغم من طغيان الدراسات المكروجهوية على الميكرواقتصادية فإننا لا نعدم كتابات تمدنا بمعلومات هامة حول هذين القطاعين.

صناعة الحرير: ليس بين أيدينا ما يحيط بطريقة شمولية بموضوع الحرير في غرناطة بعد تهجير الموريسكيين، فأغلب الأعمال ركزت اهتمامها على صناعة الحرير وقت أوجها وازدهارها، أي قبل انتفاضة الموريسكيين، أو إبان محاولات إنعاش هذه الصناعة في القرن الثامن عشر [52].

إلا أن أول ملاحظة ينبغي تسجيلها هي أن صناعة الحرير وإن فقدت جدوتها في المرحلة التي تهمنا فقد ظلت أهم النشاطات في مملكة غرناطة. ويمكن أن نختزل مظاهر تأثر هذا القطاع بترحيل الموريسكيين في النقط التالية

- ثورة الموريسكيين هي في حد ذاتها كانت خرابا لهذا القطاع على واجهات عدة، فقد أدت هذه الثورة في كل من ألمرية والبشارات إلى إتلاف الكثير من أشجار التوت بإحراقها أو قطعها أو إقلاعها وهو ما عرف باستراتيجية الأرض المحروقة.

- ترحيل الموريسكيين وتهجيرهم يعني تضييع اليد العاملة التي كانت لها خبرة ودراية بجميع مراحل استغلال الحرير وهو ما تؤكده بعض المراسلات الصادرة من غرناطة إلى السلطات المركزية في سنة 1572 أو 1573 : "Lo de la

seda no habiendo Moriscos va todo perdido pues no hay quien la sepa hilar" أو المراسلة التالية "Es cosa aberiguada que mas de cuatro mill telares que avia en la ciudad de Granada, no ha quedado beynte y cinco; y de mas de trezientos mercaderes que tratavan en seda se an ydo los mas caudalosos y no an quedado quarenta"، فهاتان المراسلتان تعكسان الحالة التي أصبح عليها هذا القطاع (53).

ومما يؤكد هذه الوضعية المتأزمة قلق الحكام لوعيهم التام بالدور الذي تلعبه صناعة الحرير في التطور الاقتصادي للمنطقة، وفي مداخيل الخزينة ولإنجاح عملية تعمير المدينة. لذا طبعت مراسلات هذه المرحلة وحتى العقود الأولى من القرن السابع عشر بهذا القلق، منها

المراسلة التالية "Y porque uno de los principales tractos y modos de vivir en el dicho Reino es de la crianza y labor de la seda" o en lo de la cria de la seda ques el punto de mayor sustancia a su magestad y al beneficio publico y a los pobladores, se deve hazer gran esfuerzo y tener principal cuydado" (54)

وفعلاً فقد اتخذ الحكام تدابير عاجلة للتخفيف من حدة الأزمة نذكر منها:

- إنشاء مجلس السكان Consejo de Poblacion الذي أسندت له، بالإضافة إلى مراقبة التطور الاقتصادي، مهمة جلب سكان جدد إلى أماكن أضحت قاحلة، وتنشيط الحياة الاقتصادية في أسرع وقت ممكن.

- الاهتمام بزراعة وصيانة أشجار التوت.

- تزويد مملكة غرناطة بالمادة باستيرادها من مناطق أخرى.

- العمل على إبقاء الموريسكيين أو عودتهم وخصوصاً ذوي الخبرة منهم في تربية دودة القز وصناعة الحرير [55].

وتدل بعض الإحصاءات أن 786 امرأة موريسكية أبقيت في غرناطة لتربية دودة القز وغزل الحرير، وكذلك كان وضع الصباغين وأصحاب النسيج. وأدت تلك الإجراءات إلى منح أصحاب القطاع بعض الامتيازات لتشجيعهم مست عقود البيع والعمل، والتخفيض من الضرائب المفروضة عند التصدير [56].

وإذا انتقلنا إلى القطاع الثاني وهو قطاع الفلاحة، فإن اهتمام الباحثين به توجه بالدرجة الأولى إلى الآثار السلبية التي خلفها تهجير الموريسكيين على الزراعة والمسقية منها بصفة خاصة. واعتمادا على الوثائق المحلية أوضح الباحث غرسيه لاطوري أنه في سنة 1568 كان مجموع سكان مدينة ألمرية يقدر بـ 55 000 ساكن، 90 في المائة منهم موريسكيون و10 المتبقية من المسيحيين، وكان مجموع مساحة الأراضي المزروعة، المسقية منها وغير المسقية يقدر بـ 524929 هكتار، وسيتقلص عدد الهكتارات المزروعة بعد طرد الموريسكيين ولن تعود إلى مستواها الطبيعي إلا في القرن الثامن عشر[57].

وثمة قطاعات أخرى عانت من نفس الويلات، كزراعة الأشجار، وكذلك قطاع الرعي وتربية الماشية. وهما من المواضيع التي لم تحظ لحد الآن بما تستحقه من الدرس من طرف الباحثين المهتمين، مما أدى بالباحث الفرنسي Bernard Vincent إلى القول بغياب هذا النشاط بين الموريسكيين أو بعدم معرفتهم به

"...Bilan donc rien ou presque rien: les Morisques ignorent ou sont absents de l'élevage... [58]

إلا أن أهمية هذا القطاع في المرحلة المدروسة وانعكاساتها السلبية على الفلاحة بصفة خاصة دفعت مؤخرا بعض الباحثين إلى إيلاء هذا الموضوع بعض الاهتمام، خاصة بعد توفرهم على وثائق جديدة استقوا منها المعطيات المساعدة على درسها وتحليلها وخاصة سجلات مواطن الكلأ Libros de registro de Herbajes ففي هذا النوع من السجلات أثبت المداخيل التي كانت تدرها المراعي على خزينة المناطق الموجودة بها، كما سجل عدد الرؤوس التي تتنقل عبرها، ونوعها، والمصدر الجغرافي للرعاة المتنقلين، وأسماء ما يسمون ب Señores del ganado.

وانطلاقا من هذه السجلات التي احتفظت بها أرشيفات مدينة ألمرية، نلاحظ أن نشاط الرعي المتنقل في المنطقة الشرقية لغرناطة لم يفقد أهميته، وظل نشاطا اقتصاديا أساسيا، ويؤكد ذلك اهتمام المجالس السكانية بمراقبة الحدود، وبعقد الاتفاقيات، وبفرض الضرائب الخاصة بمرور كل نوع من الماشية، وبتعيين مراقبي مواطن الكلأ سنويا، ومراقبة المداخيل. وحسب الإحصاءات المتضمنة في سجلات مواطن الكلأ في كل من بسطة وبيرة وأشكر فإنه انطلاقا من سنة 1550 عاش هذا القطاع أزمة زادت حدتها تدريجيا كما تؤكد الأرقام التالية

ففي أشكر انخفضت المداخيل من 40378 ليرة إلى 20 000 أي بأكثر من 50 في المائة، ولم تتعد سنة 1590، 11400، ونلاحظ هذا التراجع في مداخيل بسطة (1549، 53440 وفي 1550، 14400) وكذلك في بلش البيضاء وبلش الشقراء. ويعزى هذا التراجع الملموس إلى الحروب وإلى طرد الموريسكيين [59].

وقد نتج هذا الانخفاض في المداخيل عن انخفاض عدد الرؤوس التي كانت تقصد تلك المناطق للرعي، وتؤكد الإحصاءات تراجع عدد رؤوس الماشية في كل من بيرة وبسطة ما بين سنوات 1549 و1556.

ونختم هذه المداخلة، ودائما في إطار حديثنا عن تأثير تهجير الموريسكيين على اقتصاد إسبانيا، بالأثر البين الذي تركه هذا الحدث في مداخيل الخزينة والنبلاء. ولتوضيح تلك النتائج سنكتفي بإعطاء بعض الأرقام فهي خير ناطق عن حجم الخسارة التي تكبدتها خزينة الدولة.

مداخيل النبلاء في دوقية غنديا Ducado de Gandía، التي كان عدد الموريسكيين بها يقدر بستين ألف والذي كان يدر على خزينتها 53153 ليبرة، في سنة 1610 انخفضت تلك المداخيل إلى 15349 أي فقدت ثلثيها تقريبا.

وفي مقاطعة أرندا Aranda التي سبق الحديث عنها، كانت مداخيلها قبل تهجير الموريسكيين تقدر بـ 26825 escudos من الفضة، وفي صيف 1610 لم تتعد 18000، بالإضافة إلى الأضرار التي لحقت المعمرين الجدد الذين رفعوا شكواهم إلى من يهمهم الأمر وبدأ التفكير جديا في سن سياسة جديدة لمعالجة أوضاعهم "para remediar y reparar a los señores el daño que con la expulsión habían recibido"[60].

وهذا أمر طبيعي، بحيث أن المقاطعة كان يسكنها 10055 من الموريسكيين ولما هجروا انخفضت المداخيل إلى 50 في المائة.

كما أننا إذا راجعنا النظام الضريبي في مملكة غرناطة قبل سنة 1568 لاحظنا أن كواهل الموريسكيين كانت مثقلة بكثير من الضرائب[61] مثل la farda وهي الضريبة السنوية التي كان يؤديها المتنصرون الجدد لتمويل مصاريف الدفاع التي تتطلبها الجيوش المرابطة في المملكة، و La farda mayor، وهي ضريبة كان الموريسكيون يدفعونها وفق مستواهم المادي وممتلكاتهم، ثم La farda del mar وهي ضريبة يؤديها الموريسكي لتمويل

مراقبة الشواطئ من جبل طارق إلى لورقة، هذا إضافة إلى الضرائب المفروضة على مداخيل صناعة الحرير والسكر.

وقد انخفض مردود هذه الضرائب بعد حرب 1568، إذ تقلص إلى نسبة 50 في المائة، وفي سنوات 1590-1595 إلى نسبة 80 في المائة مقارنة مع سنوات 1557-1560.

تلكم كانت الوضعية الاقتصادية والديموغرافية لإسبانيا عقب تهجيرالموريسكيين كما أثبتتها الدراسات والأبحاث الإسبانية المعاصرة، وهي تناقض النتائج التي أثبتها المؤرخون المعاصرون للحدث، وهي وضعية لم نتناولها في شموليتها في هذه المداخلة المتواضعة، ولم نقف إلا على جوانب محدودة منها علما بأن هناك جوانب أخرى أثيرت في أكثر من عمل تؤيد ما عرضناه من أزمات حادة عرفتها إسبانيا في مستهل القرن السابع عشر، وظلّت تعيش تحت وطأتها ما يناهز القرن من الزمن.

الهوامش

1) يلاحظ المطلع على الدراسات والأبحاث الموريكسية الإسبانية تنوع المحاور المتناولة وتشعبها حتى يخال انها لم تترك جانبا من الجوانب التي همت الموريسكي لم تتقصاه بالبحث والدرس العلميين الدقيقين. ومن تلك المحاور: الفلاحة، التغذية، الهندسة المعمارية، الطب، السكان، القانون، اللهجات، الهجرة، الطرد، التاريخ والوثائق والمصادر، محاكم التفتيش، الأساطير والأدب الموريسكين المسكوكات، الديانة، العادات والتقاليد، اللباس، الرحلات...أما من حيث التغطية المكانية فقد غطت هذه الدراسات جميع المناطق الإسبانية التي وجد فيها الموريسكيون كالبسيط وألقنت والمنكب وأراغون، وقشتالة، وقرطبة، وقونقة، وغرناطة، وجيان ولاردة ومدريد ومالقة وميورقة ومورسية وبلنسية وإشبيلية وبلد الوليد وتعدتها إلى خارج شبه الجزيرة

الإيبرية لتسلط الأضواء على موريسكيي الجزائر وتونس والمغرب وتركيا

2) Caro Baroja, J. Los moriscos del Reino de Granada: Ensayo de historia social, Madrid 1953, p. VII., ومن ناحية أخرى يعتبر الحدث، على حد تعبير مؤرخ آخر اكثر الأحداث كراهية في التاريخ، Lea,H. Ch. Los Moriscos españoles: su conversión y expulsión. Estudio preliminar y notas. Instituto de Cultura de Juan Gil Albert, Alicante, 1993, p. 23.

3) نذكر من بين تلك الحوليات Hurtado de Mendoza, D. Guerra de Granada hecha por el rei de España don Philipe II N.S. contra Moriscos de aquel reino. Lisboa 1627; Marmol Carvajal, L. del. Historia de la rebelion y castigo de los Moriscos del Reyno de Granada. Malaga, 1600; Pérez de Hita, G. Segunda parte de las guerras, y de los crueles vandos entre los convertidos Moros y vezinos Christianos: con el levantamiento en 1568..., Cuenca 1619;

4) يعدد الباحث الإسباني خوان ريگلا أسباب انهزام الموريسكيين في مؤلفه Valencia, 1964. Estudios sobre los Moriscos

5) حول ظاهرة تهجير الموريسكيين إلى قشتالة، انظر García Arenal, M. "Los moriscos granadinos en Castilla", en Expulsión de los moriscos, , pp. 169-187. وتتناول فيه مظاهر الصراع الاجتماعي الذي عاشته قشتالة بعد ترحيل موريسكيي غرناطة بعيد حرب البشارات.

6) من بين الباحثين الإسبان الذين اهتموا بمحاكم التفتيش نذكر الباحثة Mercedes García Arenal, Inquisicion y moriscos. Los procesos del Tribunal de Cuenca. Madrid, 1978; "Los censos de moriscos de 1589 a 1594 establecidos por el tribunal de la Inquisicion de Cuenca", Hispania, 1978; Blazquez Miguel, J. La inquisicion en Albacete. Albacete, Instituto de Estudios Albacetenses, (1985), en 143 pags; Arroyas Serrano, M, Gil Vernet, V. "Revuelta y expulsión los procesos inquisitoriales de los dirigentes moriscos de la sierra de Espadan en 1568", en Actas de L'Expulsio des Moriscos (Coloquio Internacional en San Carlos de la Rapita, 1990), Valencia 1994, pp. 388-392.

7) من بلنسية وموانئها انتقل قرار التهجير إلى سكان ألقنت في اتجاه وهران أكتوبر 1609، والموريسكيين الأندلسيين سنة 1610 (غرناطة، قرطبة، إشبيلية وجيان)، ثم

الهورناشوس من جهة بطليوس، 12 يناير 1610، مورسية، 8 أكتوبر 1610، أراغـون، 20 أكتوبر 1610، قشتالة 10 يوليـوز 1610، كـاطالونيـا، 29 مـاي 1610، جزر البـاليـار والكاناريـاس، 1615. أما بالنسبة لعدد المهجرين فقد تفاوت عددهم من مؤلف لآخر حـتى وصل 100 000 عند بعضـهم. مـثل Janer Florencio, Condición social de los moriscos de España: causas de su expulsión y consecuencias que ésta produjo en el orden económico y político. Madrid 1857 y Barcelona (1987).

8) من بين المـؤلفـين الذين يمكن إدراجهم ضـمن المـجمـوعـة الأولى نذكـر: Jaime Bleda, Damian Fonseca, Pedro Aznar Cardona, Antonio Corral de Rojas وغـيـرهم وسنعـود للحديث عن مؤلفاتهم. انظر أسفله، الهامش رقم :(32).

9) تضمنت عناوين مؤلفاتهم مواقفهم من الإجراء المتخذ من طرف الحكام ونطقت جميعها بأحقيتها ومشروعيتها ينظر أسفله ، الهامش رقم (32).

10) Justa poética, Biblioteca de Autores Españoles, XXXIII, p. 269.

11) من بين أعماله التي وجه فيها انتقاداته وعداءه للموريسكيين Los Banos de Argel y el Coloquio de los Perros.

12) يعد كالديرون دي لا باركا Calderon de la Barca خير من يمثل هذا الموقف. انظر: Alcala-Zamora y Queipo de Llano, J. "El Tuzani de la Alpujarra: Calderon ante el alzamiento de los moriscos contra Felipe II", Actas del Homenaje a Dominguez Ortiz. (1980).

13) Bunes, M.A. de. Los moriscos en el pensamiento historico. Historiografia de un grupo marginado. Madrid, ed. Catedra, 1983, p.57.

14) في هذا العنوان انطلقنا من المسح البيبليوغرافي الذي قدم به الأستاذ ميكيل دي إيبالثا مؤلفه حول الموريسكيين قبل وبعد الطرد، Los Moriscos antes y después de la expulsion. Madrid, Mapfre, 1992, pp. 20-43 وعملنا على ترجمة بعض فقراته، وعلى تحيينه لأنه وقف به عند سنة 1991، وإدراج ما صدر من الدراسات والأبحاث الموريسكية، وما عقد من الندوات والموائد المستديرة واللقاءات خلال العقد الأخير، وهي عناوين كثيرة لا ترد في تقديمه، استخلصناها من البيبليوغرافيات والدراسات المتأخرة من بينها ما وضعه الأستاذ دي إيبالثا نفسه في أعماله اللاحقة حول الموريسكيين في الأندلس وتونس، أشرنا إليها في أماكنها المناسبة.

15) ينظر مقاله Martinez Ruiz, J. "Ausencia de literatura aljamiada y conservación del hispano-Arabe y de la entidad hispano-musulaman (1500-1501)", Chronica Nova, 21 (1993-1994), pp. 405-425.

16) نشر العمل بمجلة شرق الأندلس، العدد الثاني عشر (1995) ، ص. 577-612.

17) Garcia Arenal, M. Los Moriscos, Madrid, Ed. Nacional, 1975 e Inquisición y Moriscos. Los procesos del Tribunal de Cuenca. Madrid, siglo XXI de España, Editores, 1°ed. 1978 y 2°ed. 1983.

18) García Arenal, M. "Ultimos estudios sobre los Moriscos. Estado de la cuestion", Al-Qantara, IV (1983), pp. 617-629.

19) Peinado Santaella, R.G.. "Granada y el V centenario: un balance historiografico", Chronica Nova, 21, (1993-1994), pp. 583- 592

20) له أعمال كثيرة نكتفي بالإشارة إلى التي قام بها بالاشتراك مع باحث آخر: Epalza, M. de y Bernabé, L.F. "Bibliografia de Mudéjares y Moriscos", Sharq al-Andalus, 13 (1996), pp. 273-309.

21) نذكر من بين أعماله الأخيرة La población de las Alpujarras en el siglo XVI" en" Hombre y territorio en el Reino de Granada (1570-1630), 1995, pp. 29-44; "Reflexion documentada sobre el uso de las lenguas romanicas en la España de los Moriscos", en Homenaje a Maria J. Rubiera Mata, pp. 731-748, etc.

22) نذكر من أعماله باللغة الإسبانية Moriscos y cristianos. Un enfrentamiento polémico (1492-1640), Madrid 1979; "Los Moriscos de Sevilla y la Inquisición", Actas del I° Congreso de Historia de Andalucía, (1976).

23) Dominguez Ortiz, A. y Vincent, B. Historia de los Moriscos. Vida y tragedia de una minoria. Madrid, 1978.

24) García Carcel, R. "Los Moriscos y la historia", Hitoria 16, n. 18, (1977).

25) أثناء كتابتي لهذا المقال توصلت بعمل جديد حول الموريسكيين وهو لصاحبه Machordom Comins, A. La expulsión de los Moriscos, Proceso historico a Felipe III. INGRAVAL, S.L. 2000. وأهم ما ورد في هذا الكتاب، بالنسبة لموضوع

الندوة، هو أن المؤلف خصص فصلا بكامله للحديث عن مصير ووطن الموريسكيين الجديد، فوقف وقفة متأنية عند الموريسكيين في المغرب في كل من تطوان، الرباط، سلا، فاس، شفشاون، مكناس، مراكش، آسفي، وديل المؤلف ببيبليوغرافية تحليلية تكمل مجهودات الباحثين الذين أشرنا إليهم إبان الحديث عنهم، مع إعادة نشر الوثائق الهامة المتعلقة بقرار التهجير.

26) DE Epalza, M. Ma Jesus Paternina, Antoñio Couto. Moros y Moriscos en el Levante Peninsular (Sharq al-Andalus). Introducción Bibliografica. Alicante, Instituto de Estudios Alicantinos,1983, serie 1 n°86.

27) Estudis, 6 (1977), pp. 71-99.

28) Epalza, M. de y Petit. Recueil d'études sur les Morisques andalous en Tunisie. Madrid, 1973, en 418 pages, "Recherches récentes sur les emigrations des Moriscos en Tunisie", Les Cahiers de Tunisie, Tunez, XVIII, pp. 69-70, 139-147; "Trabajos actuales sobre la comunidad de moriscos refugiados en Tunez desde el siglo XVII a nuestros dias", en Actas del Coloquio Internacional sobre Literatura aljamiada y Morisca, (10-16 jul. 1972); Oviedo-Madrid, 1978, pp. 427-444.

29) Epalza, M. de, Bernabé F.I. "Bibliografia de Mudéjares y Moriscos"

I y II . نشر المقالان بمجلة شرق الأندلس، عدد 12 (1995)، ص. 631-655، وعدد 13 (1996)، ص. 273-308.

30) حول هذه الإجراءات يجمع كثير من المؤرخين، الإسبان منهم والأجانب، بأن طرد الموريسكيين جريمة بدأت تنتشر ويستفحل داؤها بتنفيذ هذه الإجراءات، لذا نجد دومينكيث أورتيث ينعت فيليب الثالث بأقل الملوك القشتاليين نفعا، ويطعنه ماريانا في ذكائه وفطنته لاتخاذه قرارا من هذا النوع. ويؤكدون النتائج الخطرة لتهجير الموريسكيين وخاصة على المستوى الاقتصادي والديموغرافي، لأن نفي ربع ساكنة إسبانيا أو ما يزيد، وطرد المهرة من الصناع كان أكثر وقعا على اقتصاد إسبانيا من حرب فعلية.

31) Perceval, J.M. "Todos son uno: la invención del Morisco que nunca existio" , en La expulsión de los moriscos (14 de octubre 1997- 9 de junio 1998), Madrid, Fundación Bancaja, pp. 17-20 بتصرف.

32) تنظر، على سبيل المثال لا الحصر، عناوين مؤلفات كل من Bleda, J. Cronica de los Moros de España, Valencia 1618; Fonseca, D. Justa expulsión de los Moriscos de España, con la instrucción apostasia y traicon dellos y respuesta a las dudas que se ofrecieron acerca desta materia, Roma 1612; Aznar Cardona, P. Expulsión justificada de los moriscos españoles y suma de las excelencias christianas de nuestro Rey D. Felipe Tercero desde nombre , Huesca 1612; Aznar, J. Expulsión justificada de los Moriscos españoles. Zaragoza 1612; Corral y Rojas, A.de. Relación de la rebelion y expulsion de los Moriscos del Reyno de Valencia, Valladolid, 1613; Guadalajara y Javier, M. Memorable expulsión y justisimo destierro de los Moriscos de España, Pamplona 1613 y Prodición y destierro de los Moriscos de Castilla hasta el valle de Ricote. Con las disenciones de los hermanos Xarifes y presa en Berberia de la fuerca y puerto de Alarache, Pamplona 1614.

33) ينعته Perceval بأنه Xenofobo extirpador ص 18من مقاله المشار إليه أعلاه.

34) Perceval, J.M. "Todos son uno. La invención del Morisco que nunca existio", pp 29-32.

35) Danvila y Collado, M. La expulsión de los Moriscos españoles, Madrid 1889

36) Menéndez y Pelayo, M Historia de los heterodox españoles, Madrid 1880-1881.

37) Lafuente y Zamalloa, M. Historia general de Espana desde los tiempos primitivos hasta nuestros dias. Madrid, (1850-1867)، والمؤلف في هذا الكتاب يخص القضية الموريسكية باهتمامه فيبدو لنا أنه يتعاطف معها ويتوجه بالنقد لسياسة فيليب الثاني، ويجد تعليلات منطقية لتمرد الموريسكيين.

38) Munoz y Gavira, J. Historia del alzamiento de los Moriscos, su expulsión de España y sus consecuencias en todas las provincias del Reino. Madrid, 1861.

39) Regla, J. "La expulsión de los Moriscos y sus consecuencias para la economía valenciana", Hispania, 9 (1963), pag. 200-218. - Magraner Rodrigo, A La expulsión de los Moriscos, sus razones juridicas y concecuencias economicas para le region de Valencia. Valencia 1975.

40) García Arenal, M Los Moriscos granadinos en Castilla, La expulsión de los Moriscos, pp 169-187; Vincent, B "Un modèle de la décadence" Royaume de Grenade dès le 1er tiers du XVI° siècle. Actas de las Primeras Jornadas de Metodologia Aplicada de las ciencias Humanas, III, Historia Moderna Santiago de Compostela, 1975, pp 213-217; Barrios Aguilera, M "El Albaicin de Granada sin Moriscos, Memoriales para su restauración", Chronica Nova, 23, 1996, 439-43.

41) Anson Calvo, Ma. C. "Aportación al estudio de la expulsión de los Moriscos de la ciudad de Zaragoza", en La expulsión de los Moriscos, pp. 263-274

42) تنوعت الدراسات الميكرو محلية حول النتائج السلبية لقرار التهجير نذكر من بينها Porras Arboledas, P.A. "La expulsion de los Moriscos de Alcala la Real", Al-Qantara, 18 (1997), pp. 65-101: Blazquez Miguel, J. La inquisición en Albacete. Instituto de Estudios Albacetenses, 1985, en 143 pags; Bataller Bataller, A. "La expulsión de los Moriscos: su repercusión en la propiedad y la población en la zona de Riegos de Vernisa", Saitabi, XX (Valencia 1960), pp. 81-100; Aranda Doncel, J. "Las consecuencias de la expulsión de los Moriscos en la Andalucia de Guadalquivir" Actes du Simposium International de Estudios Moriscos, V°Centenaire de la chute de Grenade, T. I, février 1993, pp. 123-139; Brontons Gonzalevez, F.J. "Notas sobre la expulsion de los Moriscos de Elche", Expulsión de les Moriscos, pp. 296-299 Birriel Salcedo, M.M." La tierra de Almunécar en tiempo de Felipe II expulsión de Moriscos y repoblación", chronica Nova, Estudios Historicos, N° 1.

43) Lobo Cabrera, M. "Los Moriscos de Canarias exceptuados de la expulsión" Actas del V centenario de la toma de Granada, pp. 427-442."

44) Anson Calvo, "art. cit" وفي المقال المشار إليه وظفت صاحبته الكثير من المعطيات والأرقام الدقيقة ودرستها دراسة علمية في شكل رسوم وبيانات عملت في الأخير على إفراغها وقراءتها لتصل إلى نتائج تؤكد عكس ما وصلت إليه الدراسات السابقة من حيث عدد الموريسكيين الخارجين من مدينة سرقسطة، بعدما تم توقيع قرار الطرد يوم 17 أبريل 1610 في بلد الوليد، انظر الدراسة مفصلة في المقال المشار إليه، ص. 263-274.

45) Anson, Ma .C. y Gomez, S. "Repercusiones demografico-economicas de la expulsión de los Moriscos en el Senorio de Aranda", A.S.I.E.M. V Centenario, pp. 92-121.

46) اعتمدنا في هذه الاستنتاجات على الأرقام التي وردت في مقال الباحثين المذكورتين.

47) Brotons Gonzalvez, F.J. "art.cit.", pp.297-298.

والإحالات المشار إليها في أسفل الصفحتين.

48) Bautista Vilar, J. "La expulsión de los Moriscos del Reino de Murcia. Sus efectos demograficos y economicos sobre la region de origen. La expuslión de los Moriscos, pp. 87 -95 ويقوم صاحب المقال بدراسة إحصائية دقيقة انطلاقاً من سجلات الإحصاءات التي تمت سنوات 1611 و1613 للمدجنين في مملكة مورسيا وللغرناطيين سنوات 1571 و1575، لينتهي في نهاية مقاله إلى حقيقة الأزمة الديموغرافية التي عانت منها هذه المنطقة.

49) Barrios Aguilera, M. " El Albaicin de Granada sin Moriscos"
المشار إليه أعلاه، La reppoblación de Granada después de la expulsión de los moriscos fuentes y bibliografia. Granada, 1986.

50) Boet, V. "La Rapita I el seu port dels Alfacs: protagonistes d'una expulsio", La expulsión de los Moriscos, pp. 372-379.

51) الأعمال التي تناولت هذه الظاهرة لا تقل كثرة عن الدراسات والأبحاث التي تعرضنا لها من قبل، فمنها ما تناول تعمير مدينة بعينها كغرناطة أو ألمرية أو لورقة أو بيرة أو غيرها، ومنها ما انصب الاهتمام فيها على قرى صغيرة كانت مسكنا ومستقرا للموريسكيين خلال سنوات طوال، نذكر منها: Barvo Caro, J.J. "Frontera y repoblación: una conyuntura critica tras la guerra de las Alpujarras", Chronica Nova, 25, 1998, 173-211; Ortega, P. "La repoblación de la ribera de Ebro (Cataluna) despu de la expulsión de los Moriscos", Actas del S.I.E.M., T.II, pp. 525-549; Barrios Aguilera, M. "La repoblacion de Felipe II a examen", Chronica Nova, 25, 1998, pp. 7-43 والإحالات الغنية على المراجع والمقالات المتعلقة بغرناطة خاصة Diaz de Rabago Hernandez, C. "Algunos datos sobre la ocupacion castellana de tierras y bienes de Moriscos después de la expulsión Castellan de la Palma, 1614", en La expulsión de los Mosriscos, pp. 285-288 y La Parra Lopez, S. "Los repobladores del ducado de

Gandia tras la expulsión de los Moriscos", en La expulsión de los Moriscos, pp. 289-295.

52) ولكن بالرغم من قلة الأبحاث والدراسات حول موضوع الحرير في المرحلة التي تعنينا فإننا لا نعدم بعض الأعمال التي تسلط الكثير من الضوء على هذا القطاع، نذكر من بينها Bejarano Robles, F. "La industria de la seda en Malaga durante el siglo XVI", Madrid 1951; Garrad, K. "La industria de la seda granadina en el siglo XVI y su conexión con el levantamiento de las Alpujarras, 1568-1571", en Miscelanea de Estudios Arabes y Hebraicos, V (1956), pp. 73-104; Ladero Quesada, M.A. "La producción de la seda en la España medieval. Siglos XIII-XVI", en La Seta in Europa, Secc. XIII-XX, Florencia, 1993, pp. 125-139; Lopez de Coca de Castaner, J.E. "La seda en el reino de Granada (siglos XIII-XVI), en Seminario de España y Portugal en las rutas de la seda. diez siglos de producción y comercio entre Oriente y Occidente, Barcelona, 1996, pp. 33-57.

53) García Gomez, F. "La seda del reino de Granada durante el segundo proceso repoblador (1570-1630), Chronica Nova, 25, 1998, pp. 249-273

54) نفس المقال المشار إليه، ص، 255.

55) نفس المقال، ص. 257-260 بتصرف.

56) ينهي الباحث مقاله، وانطلاقا من الوثائق المحفوظة في أرشيف سيمانكاس Archivo General de Simancas بجدولين يعكسان حركية ونشاط هذا القطاع من خلال الكميات المستوردة من مناطق إسبانية وبلدان أخرى وكذا المداخيل التي تدرها هذه الصناعة على خزينة غرناطة. نفس المقال، ص. 266 و268 والتعليقات المصاحبة للجدولين.

57) García Latorre, J. "La agricultura almeriense antes y después de la epulsion de los moriscos. Una aproximación cuantitativa", Chronica Nova, 25, 1998, 99. 275-300.

58) Vinvent, B. "Les Morisques et l'élevage", en Revue d'Histoire Maghrébine, n° s61-62 p 155.

59) Diaz Lopez, J.P "La ganaderia, un gran tema olvidado. El caso del norte del reino", Chronica Nova, 25, 1998, pp. 227-247.

60) Anson, C. y Gomez, S. "Repercusiones demografico-economicas...", p. 115
وللمزيد من التفاصيل تنظر الأعمال التالية: Ruiz Pérez, R. "La crisis de las finanzas senoriales el ejemplo del Marquesado del Cenete", Chronica Nova, 25 (1998), 401-434.

61) حول هذه الأنواع من الضرائب ينظر Castillo Fernandez, J. "Incidencia de la fiscalidad en la segunda repoblación del reino de Granada (1570-1600), Chronica Nova, 25, 1998, pp. 213-226

وحول أنواع أخرى من الضرائب التي كان يدفعها الموريسكيون ونسبها ينظر: Lopez Diaz, M.I. "Las Alpujarras en la Hacienda castellana de 1552", Actas del IV Simposio, pp. 36-93، وتربط صاحبة المقال في نتائج دراستها بين المداخيل الضريبية والتقهقر الديموغرافي الذي عرفته البشارات في المرحلة المدروسة، و Benitez Sanchez Blanco, J. "El diezmo de Moriscos en el obispado de Malaga", Estudis, IV (1975), pp. 162-167.

الدراسات الموريسكيّة في البُرتغال : حصيلة هزيلة

أحمد بوشرب

أنجزت عشرات الدراسات عن الجالية الموريسكية في إسبانيا اعتمد فيها أصحابها على مصادر كثيرة ومتنوعة، أصبحت محاضر محاكم التفتيش الدينية أهمها خلال العقود الأخيرة. ولم يجذب الموضوع الباحثين الإسبان وحسب، بل شاركهم في ذلك زملاء من دول مختلفة اعتمدوا في إنجاز تلك الأبحاث على الحاسوب، وعلى أحدث المناهج [1].

وعلى العكس من ذلك، لم يحظ المشكل الموريسكي بالبرتغال لحد العقد الثامن من القرن العشرين إلا بدراسة وحيدة تقدمت بها سنة 1987 لنيل درجة الدكتوراه من جامعة مونبوليي الفرنسية [2]. ومنذ ذلك الحين، أي بعد عقد من الزمان، لم تنجز إلى حدود سنة 1999 ولو دراسة واحدة حول الموضوع.

ويبدو أن الدراسات حول الإسلام والموريسكيين في البرتغال لن تعرف جديدا يذكر في السنوات المقبلة، طالما أن البلاد لم توفر الشرطين اللازمين لذلك:

- التحكم في اللغة العربية، وهو نقطة ضعف كبيرة في البرتغال الذي لا يوجد به لحد الساعة ولو شخص واحد قادر على التكلم بتلك اللغة

بطلاقة، وعلى توظيف وثائقها ومصادرها. لا يعقل أن تظل اللغة العربية، وهي المفتاح الضروري لولوج الدراسات العربية الإسلامية، غائبة عن الجامعة البرتغالية. لم يعرف البرتغال مستعربين كبارا خلال القرنين الأخيرين، ولا يوجد إلى يومنا هذا بين المثقفين والجامعيين البرتغاليين من يحصر اهتمامه العلمي والأكاديمي في الثقافة والحضارة الإسلاميتين عموما، واللغة العربية خصوصا. لقد تعذر لهذا السبب على باحثين جادين أمثال (Herculano القرن 19) أو (J. Mattoso القرن 20) التعمق في المرحلة الإسلامية حين دراستهم القيمة للعصور الوسطى في البرتغال، مما يجعل القارىء يشعر من خلال مثل تلك الدراسات وكأن الوجود الإسلامي كان حدثا عابرا وبدون تأثير. كما أن دراسة B. Coelho الرائدة أنجزت اعتمادا على نصوص عربية مترجمة إلى الإسبانية [3].

- الاهتمام بمرحلة الوجود العربي الإسلامي، واعتبره تراثا وطنيا. فمن المعلوم أن الوجود الإسلامي بالبرتغال دام من القرن الثامن إلى القرن الثالث عشر، وأنه ترك بصمات لا تزال واضحة إلى يومنا هذا بالبلاد على مستوى اللغة والثقافة وأسماء الأماكن والمواقع، وحتى في ملامح الناس. فعلى الرغم من مدة ذلك الوجود وأهمية تأثيراته، لم يلق بعد إلا اهتماما محدودا ومتأخرا من قبل المثقفين والسياسيين. وبخلاف ذلك، حظيت الفترة الإسلامية بإسبانيا من لدن الجامعيين والدولة على حد سواء بعناية خاصة. لم يتم الاقتصار في ذلك البلد على توظيف الإرث الإسلامي المهم في تنمية البلاد والرفع من مداخيلها عن طريق السياحة، بل تم الاعتراف به كتراث وطني، وحظي كبار المفكرين والكتاب ورجالات الدولة المسلمون باهتمام كبير من لدن المؤرخين والمفكرين الإسبان، بل ومن لدن السياسيين أيضا. ولا زالت الفترة تثير فضول الأكاديميين الإسبان يوما بعد يوم.

ويبدو أن البرتغاليين اعتبروا لمدة طويلة، لأسباب تاريخية وسياسية، فترة الوجود الإسلامي ببلادهم وصمة عار حاولوا طمسها والتنكر لها وتجاهلها لكونها كانت تخدش الشعور الوطني المعتز بمنجزات البلاد خلال فترة الكشوفات الجغرافية وإنشاء إمبراطورية تجارية لا تغيب عنها الشمس. ويبدو أن النظام السياسي في البلاد عزز هذا التوجه قبل سنة 1974.

لقد انشغل أشهر وأكبر المؤرخين البرتغاليين من O. Martins إلى Godinho والسائرين على نهجه بالبحث والتنقيب عن أسباب ومراحل ونتائج الكشوفات، ولم يتخصص ولو مؤرخ واحد من هؤلاء في الفترة الإسلامية بغرب الأندلس، وفي تطور أوضاع الإسلام والمسلمين بالبلاد، سواء قبل التنصر الإجباري أو بعده. وتجدر الإشارة إلى أن (دافيد لوبش D.Lopes)، الذي يعتبر أشهر المستعربين البرتغاليين، كاد أن يحصر إسهامه في ميدان التاريخ في الغزو البرتغالي لسواحل المغرب، ولم يول الوجود الإسلامي ببلاده نفس الاهتمام [4]

وعليه، لا نزال نجهل الكثير عن أحوال المسلمين بعد نهاية حروب الاسترداد وتحولهم إلى أقلية تخضع للسلطة المسيحية كما نعدم ما يمكن من دراسة المآل الذي آل إليه أفرادها بعد أن خيرهم الملك امنويل الأول سنة 1941 بين التنصر أو مغادرة البلاد.

ومن حسن الحظ، ظهرت من خلال مبادرات شخصية معزولة أحيانا، علامات تحول في موقف المثقفين من المرحلة الإسلامية كما تم مثلا بمرطوله Mertola بمبادرة شجاعة من الباحث الأركيولوجي Torres Claudio أو من باحثين أكاديميين وغير أكاديميين كرسوا اهتمامهم لإعادة الاعتبار للمرحلة الإسلامية ورجالاتها. وهكذا صدرت خلال السنوات الأخيرة عدة دراسات ضمن سلسلة تحمل اسما معبرا : «*مكتبة الدراسات العربية*» [5].

وفي هذا الإطار صدرت سنة 1999 دراسة عن موريسكيي البرتغال تحمل عنوان «موريسكيون ومسيحيون في برتغال القرن السادس عشر»[6].

وتعتبر المؤلفة من الباحثين الشباب(مجازة في التاريخ سنة 1987)، تعمل حاليا أستاذة مساعدة بكلية الآداب بلشبونة. وهي غزيرة الانتاج، كثيرة الحضور في الندوات والمؤتمرات.

ونشر الكتاب الذي يهمنا في لشبونة، في مارس 1991 في 179 صفحة من القطع المتوسط (منها 19 صفحة خاصة بالمصادر والمراجع).

والكتاب مقسم إلى أربعة أبواب قصيرة (فصول في الحقيقة) تتفرع جميعها إلى ثلاث فقرات أساسية.

خصصت المؤلفة القسم الأول (ص ص 15-46) لظهور المشكل الموريسكي بشبه الجزيرة الإيبيرية، وقد تناولته في ثلاث فقرات

- الأقليات الدينية خلال القرون الوسطى

- التنصير الإجباري وبروزالمشكل الموريسكي في كل من إسبانيا والبرتغال.

- تنقلات الأقلية الموريسكية بالرقعة الجغرافية المذكورة.

وقد طغت بهذا القسم المعلومات الخاصة بإسبانيا، ونادرا ما تعرضت الباحثة لما حدث في البرتغال. فحتى حينما تعرضت بالدراسة في الفقرة الثانية لبروز المشكل الموريسكي في شبه الجزيرة الإيبيرية كاد حديثها يقتصرعلى إسبانيا (ص ص 31-39) واقتصرت بالنسبة للبرتغال على عبارات عابرة لم تبين الظروف التي عاشتها الجالية الموريسكية ذات الأصل البرتغالي، والمآل الذي آلت إليه من تاريخ التنصر الإجباري إلى إحداث

محاكم التفتيش الدينية (1497-1536). صحيح أنها أشارت إلى وجود موريسكيين ببعض المناطق والمدن البرتغالية (ص ص 38-40-41)، إلا أن تلك الإشارة لا تفيد ما إذا كان المعنيون بالأمر من أصل برتغالي أم لا وتنطبق نفس الملاحظة على الفقرة الثالثة الخاصة بحركية الجالية المدروسة، إذ اقتصرت فيها على ذكر حالات موريسكيين انتقلوا من إسبانيا إلى البرتغال(ص ص 42-45).

وخصصت الباحثة القسم الثاني من دراستها للأقلية الموريسكية بالبرتغال التي اعتبرتها ذات خصوصية تميزها عن مثيلتها بإسبانيا (ص ص49-73). وقسم هذا القسم بدوره إلى ثلاث فقرات. كانت الفقرة الأولى خاصة بتشكل الجالية الموريسكية في البرتغال وبأسباب دخول المغاربة الذين شكلوا الأغلبية: مجاعة 1520-1521، الأسر خلال الغارات التي كانت تنظمها الحاميات البرتغالية أو خلال عمليات جهادية بحرية، الفرار لأسباب سياسية بعد دخول محمد الشيخ السعدي إلى فاس..."ما يفهم من المصادر المعتمدة هو أن المجموعة كانت فقيرة، تتكون من عبيد وأحرار كانوا يمتهنون حرفا متواضعة. لقد كانوا يمثلون مجموعة من المسنين دخلوا البرتغال عقب مجاعة 1520-1521 بالخصوص، أو على إثر صراعات 1549-1550 السياسية التي نتجت عن توحيد البلاد على يد الشرفاء السعديين ونهاية الدولة الوطاسية" (ص 38). كما تعرضت الباحثة في هذه الفقرة لظروف ردة أولئك النازحين وأشارت إلى الأسماء التي اتخذوها بعد ذلك (ص ص 53-57).

وتناولت في الفقرة الثانية قلة معرفة الموريسكيين بعقيدتهم الجديدة، وعدم اعتبارهم لدينهم الجديد، ورغبتهم في التمسك بالإسلام.

وكانت الفقرة الثالثة والأخيرة خاصة بقلة معرفة أولئك المسيحيين المحدثين بلغة البلاد وبتمسكهم بلغتهم الأصلية(ص ص 17-37).

وكان التراجع الديموغرافي للجالية التي تهمنا خلال النصف الثاني من القرن السادس عشر موضوع المحور الثالث(ص ص 77-96) الذي قسم بدوره إلى ثلاث فقرات. كانت أولاها خاصة بالتشكيلة الاجتماعية للموريسكيين. فقد مثل هؤلاء أقلية عانت من البؤس والفاقة لكون المهن التي احترفها الأحرار منهم (حمالون بسوق الحبوب مثلا) لم تكن تضمن لهم مستوى معيشيا محترما (ص 78). وخصصت الباحثة الفقرة الثانية لحياتهم العائلية والأسرية. وكانت الفقرة الثالثة خاصة بأوضاعهم القانونية (الأحرار والعبيد وأثمان استرجاع الحرية).

وكان القسم الأخير من الدراسة خاصا بمدى اندماج تلك الأقلية داخل المجتمع البرتغالي وبمدى ارتباطها بقيمه ومعتقداته، وذلك من خلال تتبع موقفهم من دينهم الأصلي(الفقرة الأولى)، ورغبتهم في الفرار من البرتغال لاعتناق الإسلام من جديد. وتعرضت الباحثة في الفقرة الأخيرة لموقف محاكم التفتيش منهم، وللخطايا التي توبعوا بسببها.

واعتمدت الباحثة في إنجاز بحثها على عدد كبير من المصادر والمراجع التي لها علاقة بالموضوع، ومنها بالطبع محاضر محاكم التفتيش الدينية. غير أنها لم تعد إلى دراستي السابقة الذكر التي أنجزتها منذ أكثر من عقد، ولم تعتمد إلا على المداخلة التي تقدمت بها سنة 1981 بمدينة Montpellier الفرنسية خلال الندوة الدولية التي نظمت حول الدراسات الموريسكية، والتي نبهت فيها المشاركين إلى الخصوصية الأساسية التي تميز المشكل الموريسكي في البرتغال، والتي تتمثل أساسا في تشكل الأقلية الموريسكية من الأجانب الوافدين على البلاد للأسباب التي سبقت الإشارة إليها[7]. وقد أكدت الباحثة هذا الطرح وأحالت على الدراسة المذكورة وتبنت نتائجها [8].

وبما أنها لم تعد لأطروحتي السابقة الذكر، فإنها لم تستفد من المادة العلمية الغزيرة التي استطعت استخراجها من مصادر محاكم التفتيش المختلفة. فبخلاف ما توصلت إليه آنذاك من خلال المحاضر التي استطعت اكتشافها في الظروف الصعبة التي أشرت إليها في محل آخر[9]، اقتصرت الباحثة على الحاسوب التي أصبح موضوعا رهن إشارة الباحثين بالأرشيف الوطني. لذا لم تعتمد إلا على 260 محضر مقابل 385 اعتمدتها في دراستي.

ومن جهة أخرى، اقتصرت الباحثة فيما يبدو على المعلومات المتضمنة في جذاذات الحاسوب عن كل موريسكي، ولم تعد إلى المحاضر التي تدون أطوار محاكماتهم، الأمر الذي حال دون اطلاعها على ما تزخر به من معلومات. كما لم تعد إلى باقي مصادر محاكم التفتيش من دفاتر التبليغات والاعترافات وسجلات المدعي...وقد نتج عن هذا النوع من توظيف المصادر قلة في المادة العلمية المعتمدة، الأمر الذي فرض عليها الانتقال في مناسبات عديدة إلى الحديث عن إسبانيا (ص ص، 32-38-42-45 77-84...) وجعل التكرار والاضطراب تطغيان على بعض أقسام دراستها (ص ص 38-49). وجعلها تتعرض بسرعة لقضايا تسمح المحاضر، لو تم الرجوع إليها، بالتوسع في شأنها كما هو الحال بالنسبة لأسباب ومراحل تشكل تلك الأقلية، وظروف عيشها، وموقفها من الإسلام ومن الديانة التي فرض عليها اعتناقها، ونوعية العلاقة التي ربطتها بالمجتمع البرتغالي... وهي قضايا وإن تعرضت الباحثة إليها، فإنها لم تتجاوز في تحليلها الفقرة أو الفقرتين وأحيانا السطور القليلة.

من الأكيد أن التشديد على الخصوصية التي تميز المشكل الموركسي في البرتغال عن مثيله في إسبانيا يلزم كل باحث بأخذ عوامل أخرى بعين الاعتبار لتفسير موقف أولئك الغرباء من البلد الذي أصبحوا يقيمون فيه،

ومن سكانه وقيمهم ومعتقداتهم. فبما أن الأمر يهم أجانب دخلوا البرتغال في أوقات مختلفة، ولأسباب كثيرة، فإن فهم نوعية العلاقات التي ربطتهم بالمجتمع البرتغالي يفرض دراسة الثقافة والعقليات بالبلدين، الأصلي والمضيف، ويلزم بتحديد أسباب ومراحل تشكل تلك الجالية الأجنبية، وظروف عيشها، وموقفها من بلدها وقيمها الأصلية، ومن البلد الذي فرضت عليها الإقامة فيه، ومن مواطنيه ومعتقداتهم التي أصبح عليهم التمسك بها.

لم تشدد الباحثة على ضوء الخصوصية المذكورة على تدخل عوامل أخرى غير العامل الديني في تحديد موقف الموريسكي من البلد الذي كان يقيم فيه، ولم تعر أي اهتمام للشعور بالغربة الذي كانوا يعانون منه، ولا لحنينهم لوطنهم وذويهم، وهو ما تولدت عنه مواقف مخالفة تماما لما حدث بالبلد المجاور.

لقد تبين لي من خلال المصادر المعتمدة الدور الأساسي الذي كان لعامل "الوطن" ومسقط الرأس في تحديد موقف تلك الأقلية من البرتغال وسكانه. فمن المعلوم أن موريسكيي إسبانيا تنصروا ليسمح لهم بالبقاء في البلاد التي ارتبطوا بها أبا عن جد. إلا أن هذا العامل لعب دورا معاكسا في البرتغال، ذلك أن أولئك الغرباء لم يتنصروا ليسمح لهم بالاستمرار في الإقامة في وطنهم، بل على العكس من ذلك، كان جلهم يتوخى من تلك الردة توفير فرص نجاح أكبر لمحاولات الفرار التي كانوا لا يتوقفون عن تنظيمها.

وقد مكنتني دراسة إحصائية لعدد المحاكمين ولمختلف التهم الموجهة إليهم من الوقوف على استنتاج مهم لم تنتبه إليه الباحثة ففي لشبونة، تجاوز عدد المتابعين بتهمة محاولة الفرار «إلى بلاد المسلمين» بكثير عدد من حوكموا بتهمة القيام بطقوس إسلامية [10]. ولاحظت كذلك أن جل التهم التي كان المحققون يعتبرونها دليلا على ارتباط "الموريسكي بالإسلام كانت

في الحقيقة ارتباطا بثقافة مسقط الرأس وعاداته الموروثة التي لم تتمكن لا الردة ولا طول مدة الإقامة في البرتغال من محوها (11).

أعتقد أن دراسة أوضاع الجالية الموريسكية في البرتغال على ضوء الخصوصية المشار إليها أعلاه تفرض على الباحث المرور بالضرورة عبر ثلاث مراحل

كان على الباحثة أن تحدد بدقة أكبر، خصوصا وأن المصادر تسمح بذلك، أسباب ومراحل تشكل الجالية الموريسكية بالبلاد. وبما أن موضوعها يهم أساسا الجوانب الثقافية والذهنية من خلال العلاقة التي كانت قائمة بين تلك الأقلية العرقية والدينية الغريبة عن البلد والمجتمع المسيحي البرتغالي، فقد كان عليها أن تولي العوامل الإيديولوجية التي تشكلت من خلال العلاقات بين الإسلام والمسيحية بالأندلس أولا، وبالبحر الأبيض المتوسط ثانيا، وعلى التراب المغربي ثالثا، وما تولد عنها من تصورات ومواقف، ما تستحقه من عناية، ذلك أن الجهاد بالنسبة للمسلمين، والحرب الصليبية بالنسبة للبرتغاليين، أسهما بشكل مباشر في تزايد العداء بين الطرفين منذ مطلع القرن الخامس عشر. لذا كان عليها أن تولي في رأيي عناية خاصة لتحديد خصائص الثقافة التي جاء أولئك الأجانب مشبعين بها، وأن تعمل على رصد خصائص وسمات ثقافة وعقلية سكان البلد المضيف، وذلك بهدف معرفة ما إذا كانت شروط التعايش وأسباب الاندماج والانصهار متوفرة.

فمن المعلوم أن وصول أولئك الأجانب صادف سقوط البرتغال في أزمة اقتصادية واجتماعية ودينية تعمقت واحتدت أكثر بعد سنة 1520. وقد نتج عن تلك الأزمة العامة شعور حاد بالخوف لدى البرتغاليين على بلادهم وعقيدتهم، الأمر الذي دفع بهم إلى الانطواء على النفس والدفاع عن "نقاء دمهم ففي هذه الظروف، تعزز الكره للأجانب عموما، وللمتنصرين على

وجه الخصوص، وتم الاحتماء بمحاكم التفتيش، وهو ما لم توضحه الدراسة التي تهمنا.

وكان على البحث أن يهتم في مرحلة ثانية برصد مواقف أفراد الجالية الموريسكية من البرتغال والمجتمع المسيحي وقيمه ومعتقداته. وبالطبع كان على الباحثة أن تولي في هذا المستوى من التحليل عناية خاصة لعامل "الوطن" ومسقط الرأس، وللشعور بالغربة الذي نتج عنه، ذلك أن أولئك الغرباء لم يبرروا دائما رفضهم فكرة الاندماج والبقاء في البرتغال بسمو الإسلام وأفضليته بالنسبة للمسيحية، بل رفضوا الإقامة فيه وحاولوا الفرار منه لفقره ولظروف العيش القاسية التي كان يفرضها على المقيمين فيه. وعلى العكس من ذلك، خصوا مسقط الرأس بنظرة مثالية، وجعلوه بلد الوفرة والرخاء والمعاملة الحسنة.

ومعلوم أن البرتغال لم يكن بسبب الأزمة السابقة الذكر التي كان يتخبط فيها قادرا على ضمان ظروف إقامة مقبولة، لا لمواطنيه، ولا لأولئك الغرباء. ومما عقد أوضاعهم أكثر، حرمانهم في الغربة من البنيات الأسرية والقبلية التي اعتادوا الاحتماء بها خلال الأوقات العصيبة.

وبذلك لم يكن البرتغال بلدا يشجع موريسكييه على الإقامة فيه، على عكس ما كانت عليه إسبانيا التي تمسك بها موريسكيوها الذين حاول كثير ممن تعرض منهم للطرد العودة إليها. وتفسر هذه الرؤية للبرتغال خيبة أمل من انتقل إليه طوعا. ويمكن أن نسوق هنا مثال اللاجئين السياسيين المغاربة أو العلوج الذين عادوا من المغرب للإقامة في البرتغال. لذا كان بعضهم ضمن من حوكموا بمحاولة الفرار إلى بلاد المسلمين بعد شهور قليلة فقط من وصولهم إلى لشبونة [12].

وفضلا عن ظروف العيش القاسية، التي اكتفت الباحثة بإشارات عابرة إليها، عانى موريسكيو البرتغال من عداء المجتمع البرتغالي المتعصب الذي، وإن استعمل كل وسائل الضغط والإكراه لدفع المسلمين واليهود كذلك إلى التنصر، فإنه لم يقم بأي مجهود من جهته لدفع أولئك المسيحيين المحدثين إلى التمسك بدينهم الجديد، ولم يقدم أي تنازل ولو مؤقت لدفعهم إلى الانصهار فيه.

وتؤكد المصادر البرتغالية أن المسيحيين الأقحاح كانوا يصبحون أكثر عداء للمسلمين بعد تنصرهم. وقد بينا أسباب ودواعي ذلك الموقف الغريب والمتناقض الذي اتخذه المجتمع البرتغالي، وأشرنا إلى انعكاساته على موقف المرتدين من المسيحيين ودينهم (13).

لقد مثلت القناعات الدينية للموريسكيين في ذلك الجو العدائي حيزا جد محدود في الدراسة التي أنجزتها الباحثة البرتغالية رغم كثرة المادة العلمية التي توفرها المحاضر - لو تم الرجوع إليها - ورغم أهمية تلك القضية بالنسبة للموضوع المدروس.

تسمح المحاضر بتتبع قناعات الموريسكي الدينية، وبتحديد دوافع ودواعي مواقفه السلبية من ردته ودينه الجديد. فهي تطلع الدارس على المستوى الثقافي لأولئك الموريسكيين الذين كان جلهم من الرحل والبحارة الأميين، والذين لم يكن في إمكانهم تقديم تبريرات موثقة لرفضهم للمسيحية وكانوا بالتالي عاجزين عن خوض جدالات دينية مع المسيحيين، على غرار إخوانهم الأندلسيين. لذا كان الخطاب الديني لديهم ساذجا وبسيطا في الغالب، وكان متأثرا بظروف العيش وبنوعية العلاقة التي كانت تربطهم بالمجتمع البرتغالي (14).

وعكست تلك القناعات الدينية شعورهم بالغربة وحنينهم إلى أهلهم وذويهم. لذا اتخذو من الردة موقفا نفعيا. فبما أنها لم تحسن ظروف إقامتهم، ولم تخصهم بأدنى امتياز مادي، فإنهم لم يتأخروا كثيرا في التعبير عن خيبة أملهم وندمهم عليها. وهكذا شرعوا في نصح من بقي منهم متمسكا بإسلامه بتفادي الخطأ الذي ارتكبوه. ولإقناعهم، لم يعتمدوا إلا نادرا على الحجج الدينية، وشددوا على الخصوص على المشاكل التي تترتب عن تلك الردة، من انعدام أي امتياز مادي، ومن تزايد عداء المجتمع وتعرض المرتد إلى اضطهاد المحققين، هذا فضلا عن استحالة العودة إلى الوطن بعدها [15]. والغريب أن الباحثة البرتغالية اقتصرت في دراسة هذه القضايا الهامة على إشارات عابرة في سطور معدودة.

أما المرحلة الثالثة فتخص مراحل اضطهاد المحققين للجالية التي تهمنا وعلاقة أفرادها بمحاكم التفتيش الدينية. وقد قصرت الباحثة كذلك في دراسة هذه النقطة التي خصتها بفقرات قصيرة. لقد اعتبرت عن حق أن المحققين تابعوا خلال القرن السادس عشر عدداً قليلاً من الموريسكين (520)، وأن القمع احتد خلال مرحلتين :1541-1543 و1553-1562 لتتراجع "المحاكمات بعد ذلك بشكل كبير، ولتشمل بعض الغرناطيين، ولتمر سنوات دون أن يتابع ولو موريسكي واحد واعتبرت أن المعدل هو أربع محاكمات في كل سنة (ص 150).

وتختلف هذه الأعداد عما توصلنا إليه، كما أن الباحثة لم تشر إلى أسباب ارتفاع نسبة الاعتقالات بين الموريسكيين أو تراجعها، ولم تنتبه إلى علاقة ذلك بسياسة الدولة التي كانت تسخر تلك المحاكم وتوجهها.

لقد تبين لنا بعد حصر أعداد المحاكمين، وتتبع تواريخ المحاكمات ومدد الاعتقال، ونوعية الأحكام الصادرة في حقهم، أن أولئك الغرباء لم

يكونوا يخيفون المجتمع المسيحي كما كان الشأن بالنسبة لليهود المتنصرين الذين كانوا أكثر عدداً، وكانوا يستحوذون على ثروات البلاد.

لم تكن الاعترافات خلال المحاكمات وطلب العفو من المحققين وإبداء مظاهر التوبة والندم دليلا على تملص أولئك المحاكمين من هويتهم الثقافية واللغوية، إذ سرعان ما كانوا يعودون تلقائيا إلى اقتراف ما كان سبباً في اعتقالهم (16).

وعليه لم تتمكن الباحثة Isabel Mendes Drumond Braga من الإحاطة بكل جوانب الموضوع، وتناولت المشكل الموريسكي في البرتغال بشكل سطحي وسريع، ولم تحسن استغلال مصادر محاكم التفتيش التي لم تعد إليها بشكل شامل، وتبنت منهجا فوت عليها فرصة تعميق قضايا كثيرة.

الهوامش

1) يمكن أخذ فكرة عن توجهات المدرسة الجديدة في ميدان التعامل مع مصادر محاكم التفتيش من خلال المؤلف الجماعي الذي أشرف عليه B.Bennassar والذي يحمل عنوان "L'inquisition espagnole, XV° et XIX° siècles", Paris, Hachette, 1979, 402 p.

2) Ahmed Boucharab, les crypto-Musulmans d'origine marocaine et la société portugaise au XVIe siècle, thèse inédite, Montpellier, mars 1987

أحمد بوشرب، مغاربة في البرتغال خلال القرن السادس عشر، الرباط، منشورات كلية الآداب، 1996، 333 ص.

3) Ahmed Boucharab, les crypto-Musulmans d'origine marocaine et la société portugaise au XVIe siècle, thèse inédite, Montpellier, mars 1997.

4) D. Lopes, "Os Portugueses em Moroccos" in História de Portugal, dir, D. Pires, Barcelos Portuguelense, Editora, 1931, t, III, pp 385-544; IV, 1932, pp. 78-121.

5) Antonio Camilo Alves, Os nossos companheiros; José Garcia Domingos, Portugal e o AL-Andalus; Nuno Santos Pinheiro, O Islamismo e o Arco ultrapassado na Peninsula ibérica; Maria Filomena Lopes de Barros, A communa muçulmana de Lisboa-séculos XIV-XV, etc.

6) Isabel M. R Mendes Rrumond Braga, Mouriscos e Cris os no Portufal quinhentista, concepçes duas

7) A. Boucharab, Spécificité du problème morisque au Portugal une colonie étrangère souffrant d'un sentiment de déracinement et de nostalgie " in : Les Morisques et leur temps, édit.CNRS.? 1988,pp.217-233

8) Isabel Mendes Durmond Braga, Mouriscos, op.cit.p 131 n 88

9) أحمد بوشرب، مغاربة، ص 14.

10) أحمد بوشرب ، مغـاربة، ص 264-273.

11) نفسه، ص، ص 290-291.

12) أحمد بوشرب، مغاربة، مرجع سابق، ص، ص157 وما بعدها.

13) نفسه، ص، ص 129 وما بعدها.

14) نفسه، ص.179-215.

15) أحمد بوشرب، مغـاربة، ص، ص 179 -215.

16) نفسه، ص، ص 245-295.

الموريسكيون في الكتابات الأجنبية

إسماعيل العثماني

يتكرر استعمال مصطلح "الموريسكي ومفهوم "الاسترداد" أو Reconquista بصورة غير صائبة في الأوساط الأكاديمية بالبلاد العربية والأجنبية على السواء. لذلك وجب التنبيه في البداية بأن "الموريسكي هو في الأصل ومنظار القانون هُويَة أندلسيّة أي إسبانية فوق أي اعتبار آخر، دينيًا كان أو لغويًا أو ثقافيًا أو ما إلى ذلك. كما وجب التّنبيه بأن ما يُسمى لدى الإسبان "Reconquista" هو حَدَثٌ لم يرِدْ تاريخيًا باعتبار أن الحدث الوارد حقيقة كان حَرْبًا أهليّة أشْعَلَ فتيلَها المسيحيّون بقيادة فرناندو وإيسابيل انطلاقًا من شمال إسبانيا ضدَّ المسلمين المستقرّين في جنوب البلاد. الموريسكيُّ كان إسبانيًا مسلمًا قبل هذا الإعتداء الذي أدّى إلى سقوط غرناطة سنة 1492، ثم أصبح إثر ذلك إسبانيًا من الدرجة الثانية على أرض الواقع، ومن حيث الملّة نصرانيًا بالتقيّة بعد أنْ رفضَ الانسلاخَ عن جذوره الإسلامية والقَبُول بالتنَصُّر. وانتفض الموريسكيُّون لمدة قرن ونيف ولكن الاستبداد المسيحيّ الرسمي حرّش ضدّهم الرأي العام الإسباني وأقلام المبدعين فَغَدا الموريسكيون في نظر إخوانهم الإسبان النّصارى أقليةً مُهمَّشةً في عُقر دارها ومنبوذة وغير مرغوب فيها لأنَّها تُشَكّلُ في توهُّم القصر والكنيسة الإسبانيّيْن خطراً مُباشراً على النصرانيَّة. وقد بلغ حدُّ الكراهية في

نهاية المطاف إلى صدور قرار الملك ڤيليبي الثالث في 1609 القاضي بإلغاء الوجود الموريسكي من بَلَدهم الأم إسبانيا عن طريق طردهم منها.

وقد لقيَ الموريسكيون اهْتمامًا بارزاً على يد كثير من الباحثين في مجال العلوم الإنسانية الذين عنوا بدراسة محنتهم وتراثهم اللغوي والأدبي والحضاري. وإذ نعتبرُ عناية الباحثين الإسبان الكبيرة بالموريسكيّين أمراً بدهيًا لكون المعنيّين إخوة لهم في النسب وأسلافًا منْ حيث الهوية والحسب، فإنَّنا نستغرب أنْ يتم التركيز لدى أغلب هؤلاء الباحثين على أمور وصْفيَّة ورقْميَّة وأركيولوجية دون تجاوزها إلى التحليل الموضوعي العميق والشامل الذي يربط عناصر المحنة الموريسكية فيما بينها ويسعى إلى رَدّ الاعتبار للموريسكي عبر تقويم قويم لذلك الخطاب المخزون في لاشعور الإسبان والذي لوّث إلى اليوم نظرتَهم إلى المسلم.

ولكن يبدو مع ذلك أنّ بذُور التَّغيير بدأتْ تُزْرع هنا وهناك في حقل الدراسات الموريسكية. وقد اخترنا جمْلَة من البحوث التي تمت حديثًا في هذا الحقل الشاسع فصُغْنا هذه المداخلة المتواضعة والمتمثلة في إنجاز قراءة تحليلية للكتابات المعنيّة من أجل إبراز موقعها في سياق البحث العلمي الإنساني والتاريخ المسؤول. وسنتوقف بشيء من الإسهاب عند الترجمة الإنجليزية لكتاب «ناصر الدين على القوم الكافرين» الذي وضعه آخر موريسكي يُؤَلّف بالعربية، نعْني الفقاي الحجري.

وقبل أن نعرض نماذج من هذه القراءات، نذكر بأنَّ منَ الأمور الهامّة التي يتشكّل منها أفق انتظارنا من حيثنا قارئ حول الموريسكيين ما يلي

أوَّلاً إنَّ الموريسكيّ إسبانيٌّ (مسلم) جرَّدتْهُ السلطاتُ الإسبانية من جنسيّته فأصبح "بدونًا" بمعنى من المعاني ولاجئًا بالشكل الذي نعرفُه.

ثانيا إن قرار تهجير الموريسْكيّين عاديًا أو طبيعيًا فرضتْه اعتبارات سياسية تابعة لظروف تاريخية واجتماعية قاهرة، بل إنّه إجراءٌ تعسُّفي في حقّ أقليّة مسلمة نستطيع اعتباره بلغة اليوم جريمةً ضد الإنسانية.

ثالثًا إنَّ الحديث عن إسبانيتين في سياق الدراسات الموريسكية (وخارجه) إحداهما مسيحيّة في الشمال والأخرى مُسلمَة في الجنوب وعاصمتها غرناطة يبتعد عن الصواب في السياق التاريخي لشبه القارّة الإيبيريّة.

رابعًا إن الدراسات الموريسكية ستنتفع كثيراً من اهتمام الباحثين (أيضًا) بقراءات تحليلية ونقديّة متينة في النُّصوص الإبداعيّة الإسبانية السّابقة للتّهجير واللاّحقة عليه باعتبارها مُكمّلَة لتلك الصورة التي تستلهمها نظرة المؤرخ والباحث في الاركيولوجيا وفي الاقتصاد وغيرهما.

خامسا وأخيراً إنّنا لا نتوهّم تقديم أحكام قطعيّة وثابتَة بل نروم تحيين السّياق التاريخي حيثُ مراعاة خصوصيات المحنة الموريسكية والوعي بخطورتها من خلال محاورة النصوص (وأصحابها) بصراحة وصرامة تقفان في وجه المغالطات الكمينة في الدراسات الموريسكيّة.

ف ماركيث بيانوبيا El problema morisco (1991)

تمثّل بحوث هذا الأستاذ الإشبيلي المتميز بجامعة هارڤارد قفزة نوعية في مجال الدراسات الموريسكية حيث تتغذى مقارباته على المعطيات الأدبية المتداخلة في رأيه مع المعطيات التاريخية. ويختلف هذا الباحث عن أغلب زملائه الإسبان في كونه يشكك في بعض ثوابت الخطاب الرسمي بخصوص الأقليات بإسبانيا، ولا يخجل من القيام بقراءات جديدة في نصوص إبداعية كلاسيكية والإيتاء بتفسيرات وتأويلات تخالف المتفق عليه بين النقاد. وإذ

نحيي مثل هذه الجرأة الإيديولوجية الهادفة إلى إنصاف الموريسكي المظلوم أو مناصريه، ولو خطابيا، فإن قراءتنا في قراءة ماركيث ڤيانويڤا تجعلنا متحفظين إزاء بعض ما بلغه من نتائج تهم الموريسكيين.

اختلفنا مع هذا الباحث في قراءته لوظيفة العنصر الموريسكي في رواية ماطيو أليمان قزمان الفاراقي (أنظر مجلة أكاديمية المملكة المغربية حول الموريسكيين في المغرب /ع.15)، وبودنا اليوم أن نتوقف عند قراءاته لكتاب إسباني كلاسيكي عنوانه «حروب غرناطة الأهلية»، من تأليف پيريث ذي هيتا. يسقط ماركيث بيانويبا على هذا الأخير هوية موريسكية معتقداً أنه ينحدر من أم مسلمة. ولكن ما يلفت نظرنا أكثر من هذا الاعتقاد القائم على كثير من الظن غير الموثق هو اعتبار الباحث لهذا الكتاب نوعا من الدعاية المضادّة للدعاية الرسمية ضد المسلمين والموريسكيين. والغريب أن يكون الباحث متأكدا تماما من «النية الواضحة» (ص.178) لبيريث ذي هيتا للوقوف في وجه الأحكام السابقة التي تعشش في أذهان النصارى حول المتدينين بالإسلام. يقصد ماركيث بيانويبا بذلك صفات غير فاضلة مثل «الخيانة»، و«الجبن» و«الغباء».

نعيد قراءة حروب غرناطة الأهلية بحثا عما قد يدعم استنتاجات ماركيث بيانويبا فلا نجد غير الأحكام الجاهزة التقنيدية وقد وظفت بنية واضحة تروم تكريس النظرة النصرانية المتعالية والعنصرية إلى الموريسكي، والدعاية للخطاب المسيحي المسلم في هذا الكتاب خائن وجبان وناقص فيما يقف النصراني أمامه وفيا وشجاعا وكاملا. وتقوم العلاقة بين الإثنين على حاجة المسلم إلى شفقة وجود النصراني مع كل ما يجسده هذا النوع من العلاقة من أبعاد دينية وسياسية وأخلاقية.

د. صلاح فضل ملحمة المغازي الموريسكية (1989)

في سياق ما اعتبره دراسة أدبيّة مقارنة ذات أهمية بالغة في عرض أبرز الخاصيات المهيمنة على الرواية الموريسكية الذي يُفضي بدوره إلى فهم حقائقها الجوهرية، لم يذكر الأستاذ المصري المعروف صلاح فضل إلاّ أموراً شكليّة وشكلانيّة تعكس في نهاية الأمر ضعف مثل هذه المحاولات التحليلية التي إنْ كان لها انعكاس يُذكر فذاك انعكاس سلبيٌّ كما سنرى لأنه يكرس خطابًا تضليليًا مؤسّسًا على قراءات جمالية أو متسرّعة لا تنصفُ التراث الموريسكي. وإذا أدرجْنا هذه الدراسة العربيّة فيما يُعتبر مسحًا لإصدارات أجنبيّة، فلأنَّ د. صلاح فضل لا يختلف في موقفه من القضية الموريسكية عن أصحاب القراءات الوضعية والشكلانية المهيمنة الذين نقَل عنهم مُعطَياته.

ظهرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب وتلتها الطبعة الثانية سنة 1992 من دون إضافة أو تنقيح. يفتتح صلاح فضل بحثه بالحديث في مصطلحات «المستعرب» و«المدجن» و«الموريسكي» لينتقل إلى موضوع الموريسكيين والمحنة الدينية. غير أننا لانجد جديدا يذكر في هذا الجانب حيث يكتفي صاحبه باستظهار نتائج وأسماء متداولة معتمدا في ذلك على مصادر ومراجع أغلبها متجاوز من الناحية العلمية بعدئذ يتحول صلاح فضل إلى التراث الفكري لدى الموريسكيين، وخصوصا منه الإبداعي. وكما هو معلوم، كان الموريسكيون يستخدمون الحروف العربية في الكتابة باللغة الرومانثية (القشتالية) دليلا على الارتباط المتين القائم في نفوسهم بين الإسلام واللغة العربية بصفتها لغة القرآن الكريم. ترد في الكتاب هذا المعلومة، مثلما يرد كلام معلوم عن النثر والشعر المورسيكيين، المكونين لما يعرف بـ «الأدب الألخامي، أو الأعجمي»، وكذلك عن شغف هؤلاء بالكتابة الفقهية والروحية للتصدي للعقيدتين المسيحية واليهودية. وجب أن

نشير هاهنا إلى أن المصدر الوحيد، مع استثناءات نادرة، الذي اعتمد عليه الباحث في الثلث الأول من كتابه هو: «أعمال الندوة الدولية حول الأدب الأعجمي والموريسكي» (مدريد، 1978). وقد خصص الثلث الثاني لتحليل محتويات بعض الكتابات الإبداعية «الموريسكية»، فيما تضمن الجزء الثالث والأخير من الكتاب الترجمة العربية لنص «كتاب المغازي». وإذا استثنينا هذه الترجمة بدا هذا الكتاب ضعيف المحتوى وهزيل المستوى. ومن جملة الملاحظات التي تهمنا إثارتها بهذا الصدد نذكر مايلي

1) يتبنى صلاح فضل اللغة الرسمية الإسبانية في تعامله مع التاريخ إذ يتحدث عن «فتوح الاسترداد المسيحي»، وعن «العرب» بديلا عن «المسلمين»،وهلم جرا (ص74).

2) يرى صلاح فضل في قصة ابن سراج وحروب غرناطة الأهلية وبعض أعمال ثرْبانْطيس التي تطرقت للموريسكي بشكل من الأشكال محاولات نبيلة للتعبير عن «توق حقيقي للتعايش السلمي» (ص .80-81). إنها قراءة سطحية تكرس خطابا إيديولوجيا معينا

3) يخلط صلاح فضل مرارا وأخرى بين كتابات الموريسكيين والكتابات حول الموريسكيين. وبين الصنفين، كما نعلم، اختلاف كبير.

4) لايذكر صلاح فضل باحثان إسبانيان بارزان في مجال بحثه مع أنه استند إلى عملهما في محطات كثيرة. وأقصد لوبيث إستراذا Lopez Estrada وكلاوذيو غيان Claudio Guillné

أحمد بن قاسم الفُقاي الحجري

لقد كانت للموريسكيين علاقة خاصة باللغة حيث إنهم عملاء، باعتبارهم مسلمين «مقنّعين»، على أن تنعكس تجربتهم المعيشة في اللغة

على الأقل، مادام ذلك مستحيلا على أرض الواقع الذي كان يتحكم فيه المسيحيون المتعصبون نذكر بأن النصارى كانوا يستعملون تعبير «التحدث بالمسيحية» مرادفا للتحدث بالقشتالية، مما يدل على أن اللغة والعقيدة كانا في سياق تلك الفترة التاريخية متداخلين إلى حد بعيد. وفضلا عن كونها لغة القرآن الكريم، وتتمتع بذلك بنوع من القداسة، كسبت اللغة العربية بعدا جديدا في استعمال الموريسكيين لها. يتعلق الأمر ببعد إيديولوجي يرفع شعار المقاومة هكذا حاول الموريسكيون أن يكون حتى تأويل الأدب وتلقينه وسيلة من وسائل توكيد الذات، وأن تكون كتاباتهم شهادة ودليلا على الالتزام بعقيدتهم وأعرافهم في وجه الحملة المسيحية الشرسة ضدهم. ولما كان الموريسكيون عاجزين على الكتابة بلغة الضاد لكونهم تربوا على لسان العجم، فإنهم حرصوا على كتابة متونهم الإسبانية بحروف عربية تعبيرا عن اعتزازهم بلغة القرآن وتحديا للشكل اللغوي النصراني. خلاصة القول، إن الموريسكيين كانوا يشعرون بالحرج وربما بالذل بسبب استعمالهم للغة الإسبانية بدلا عن العربية، حتى وإن كانوا واعين بكونها شرا لابد منه.

ولما كان الموريسكيون يشعرون بما وَصَفْنَاه نتيجة اضطرارهم لاستعمال لغة العجم، فعلينا أن نتصور شعور الحجري الذي بعد أن نجح فيما فشل فيه أغلب إخوانه الموريسكيين ـ وهو الكتابة بلغة القرآن الكريم - جاءت العجم فعجمت نصه - وهو بالفعل أهون الأضرار بالنسبة للحجري من حيث هو مترجم، بل وحرفت عن طريق التعجيم المعنى الوارد في هذا الكتاب الذي يرد فيه صاحبه على العجم بما أوتي من حجة ودليل في شأن أمور حساسة بذاتها وبالنسبة إلى الحجري من حيث هو مسلم؛ وهذا أمر من الخطورة بمكان. وبما أن الفقاي الحجري بعيد زمنيا عن العملية، وجب علينا بصفتنا وريثو تراثه في الحاضر أن نبين مواطن الخلل في الترجمة الموضوعة لكتابه ونحذر

بلغة علمية هادئة وصارمة المتطفلين من مغبة التلاعب بتراثنا في شموليته وبالتراث الأندلسي تخصيصا.

ولد أحمد بن قاسم الحجري الأندلسي المعروف بأفوقاي أو الفقاي في ضاحية غرناطة حوالي 978هـ / 1570م ونشأ بإشبيلية مسلما يتظاهر بالمسيحية؛ أما تاريخ ومكان وفاته فهما مجهولان. ويقال إنه كان يتقن الإسبانية والبرتغالية إلى جانب العربية وكانت له معرفة واسعة بعلم التنجيم والفلك والجغرافيا وعلم يسير بالقرآن وأمور الدين الإسلامي والديانتين المسيحية واليهودية. ولما حل الحجري بالمغرب في أواخر عهد المنصور الذهبي واصل لدى هذا الأخير العمل بالترجمة ثم لدى السلطان مولاي زيدان ونجليه عبد الملك والوليد. وقد اشتهر الحجري الذي يعد آخر موريسكي يؤلف بالعربية بكتاب أسماه «رحلة الشهاب إلى لقاء الأحباب» الذي ضاع أثره إلى اليوم، ولم يصلنا منه إلا مختصر وضعه الحجري للكتاب وعنوانه «ناصر الدين على القوم الكافرين». وقد صدرت في 1997 الترجمة الإنجليزية لهذا النص من إنجاز ثلاثة أساتذة من جامعة لايدن الهولندية هم قاسم السامرائي وب. ش. فان كوننسفيلد وخ. ڤيخرس.

وتعتري هذه الترجمة (كما سيتضح لنا) نواقص جمة فيما يتعلق بتأويل المعنى ونقله من العربية إلى الإنجليزية، وهذا راجع أساسا إلى كون المنهجية التي تبناها المترجمون لم تكن لتخدم نص الحجري، لكونها اعتمدت على الترجمة الحرفية للكلمات وعرفت العجلة في تأويل المعاني، فجاء بذلك الأسلوب ركيكا والمعجم مقحما والمضمون العام على قدر كبير من الخلل. بعبارة أخرى، إنها منهجية لا تساعد القارئ على فهم النص المترجم، ومن ثم لا تخدم نص الحجري، بل إنها تسيء مع الأسف إلى سمعة هذا المؤلف بعينه

وسمعة المؤلفين للتراث العربي تعميما. ومما يزيد الطين بلة صدور مراجعات تزكي هذه الترجمة وتعفيها من الزلات والنواقص، أذكر على رأسها تلك القراءة العرضية التي وردت في مجلة القنطرة / Al-Qantara العتيدة الصادرة عن نفس الجهة التي نشرت الترجمة الإنجليزية. قصدت المجلس الأعلى للأبحاث العلمية بمدريد (CSIC). وقد وضع هذه القراءة المدحية الباحث Fernando Rodrigez Mediano الذي اطلع على الترجمة فأثنى على أصحابها لأنه وجدها بتعبيره «صحيحة وسلسة»؛ وهو حكم أقل ما يقال عنه أنه يخلو من الصحة والسلاسة. واحتراما للمجال الزمني المسموح به سأكتفي بالوقوف عند بعض الحالات التي أعتبرها خطيرة على مستوى المعنى والرسالة.

وأبدأ بالعنوان الذي هو مفتاح الكتاب فأقول

إن العنوان الإنجليزي بعيد عن مستوى الجمال الأسلوبي الذي نلفيه في العنوان الأصلي. ثم إنه، وهذا هو الأهم، ليس قريبا قطعا من المعنى الوارد أصلا، حيث تدل Supporter على الدعم والتضامن والتعاطف مع قضية أو العطف عليها من باب القناعة المبدئية أو العاطفية، ولكن تدل تخصيصا على أن المتقبل لا يمكنه أن يستغني عن هذا الدعم أو التضامن أو التعاطف. وهذا أمر لاينطبق على الدين الإسلامي الذي لايحتاج سوى إلى من يتقوى به حتى تزيد قوة العقيدة في مواجهة الكفار. والمسلم يتقوى بالإسلام من خلال الدفاع عنه. كما إن كلمة Religion ليست هي المناسبة في هذا السياق، لأن الحجري يعني بالدين الدين الاسلامي بدون شك وبالكافرين أولئك الذي كفروا بالله، لا تشير Religion إلى ديانة بعينها بل إلى ديانة من الديانات السماوية أو الأرضية. وحتى لو غضضنا الطرف عن الحمولة الثقافية لكلمة «الدين» لترجمناها The Religion أي Religion زائد The التعريفية. هكذا

نقترح كبديل لعبارة «ناصر الدين على القوم الكافرين» نموذجين قد يجد لهما المرء بديلا ثالثا

Standing up for the (Islamic) Faith against those against Faith (1

In Defence of the (Islamic) Faith against the Infidels (2

كما نقترح استبدال الترجمة الموضوعة لعبارة « السيف الأشهر على كل من كفر » لتكون الصيغة كالآتي

The Sword Most Unsheathed in the Face of Everyone Who Disbelieved

« ليس له احتياج لأحد من العالمين ليزداد سلطانه وليس دونهم له نقصان في ذاته ولا في ملكه. وكل ما خلق خلقه من رحمته دون احتياج»[31].

«He is not in need of anyone of (His) creatures to increase His power, nor is there, apart from them, any deficiency to smite His essence or Kingdom. Everything he created, was created by him out of his mercy, without any need.» (88)

تدل عبارة «without any need» في أحسن الحالات على اصطناع السبب لخلق شيء ما وفي أسوئها على عبثية وطيش الخالق لكونه يخلق من أجل الخلق بدون أي مبرر منطقي أو جدوى المخلوق. وكلا التفسيرين خاطئ مادام لايعكس العبارة العربية التي تدل أساسا على إرادة الله المطلقة.

«وهذه عقيدة في توحيد الله تعالى؛ من واحد من الكتب المذكورة؛ وهي من كتاب تصفيون ابن العطار في الذات الكريمة؛ قال الدوام لايزال هو في الله؛ أول كل شيء؛ الذي ليس لبدايته ابتداء ولا لفضيلته انقضاء؛ لايبلغ كنه صفاته الواصفون ولا يتفكرون في مائية ذاته المتفكرون؛ ليس احد من العالمين رآه عين النظر؛ ملكه لايزال لأنه ان زال ملكه ما كان الله ؛ » [31]

(In addition), here follows a creed concerning the unity of the Exalted God, derived from one of the books referred to, viz. From the book by Tasfiyun ibn al-Attâr concerning the venerated (divine) essence. He said "Eternity continues to be in God, the first of everything, whose beginning has no beginning and whose termination has no ending. Those who attempt to describe him cannot reach the kernel of his attributes. Those who ponder over the quiddity of his essence cannot imagine it No one of the creatures has seen him with its own eyes. His kingdom will not come to an end, because should his kingdom end, he would not be God (88).

يقابل المترجمون كلمة « فضيلة » بـ « Termination » وهذا أمر لايستند إلى واقع معجمي أو سياقي. فالكلمة الإنجليزية تدل على الانتهاء والإنهاء وهو ما لم يقصده الحجري بالفضيلة وفضلا عن ذلك، يجد القارئ في هذه الفقرة مثالا ثانيا على ما تتضمنه الترجمة الإنجليزية من تحريف للنص العربي. الظاهر من الفقرة نفسها أن الحجري يستعمل عبارة «لا يزال» ليدل على «عدم الزوال» أي «الخلود » حيث يقول بأن ملك الله «لايزال لأنه إن زال ملكه ما كان الله». وقبل ذلك يذكر بأن «الدوام لايزال، هو في الله». وإن كان المترجمون قد قاموا بواجبهم فيما يخص عدم زوال ملك الله، فإنهم أزاغو الترجمة حينما تعلق الأمر بعدم زوال الدوام.

«فكل من نسأله من علمائهم عن هذا هل هو في التوراة ؟ فيقول نعم، فأقول الكلام الأول الذي جاء به النبي كان كلام الله؛ وقال يموت من مرضه؛ والمرة الثانية قال يزيد في عمره خمس عشرة سنة؛ فمحى الكلام الأول وأثبت الثاني.

وهذا برهان لا يرده احد؛ وكذلك محى الله دين اليهود في العبادات وأثبت دين الاسلام ؛ » (110 111).

All their scholars I asked about whether this is to be found in the Old Testament. answered: "Yes!" then I would say: "The earlier words brought by the prophet, were the words of God He (God) said that he would die of his illness, but the second time he said that he would increase his lifetime with fifteen years. Thus he cancelled the first words, while confirming the second!"

This is a proof that cannot be refuted by anyone. In the same way, God wiped out the religious rituals of the jews and confirmed the religion of Islam (168).

آثر المترجمون أن يستعملوا عبارة «wiped out» لترجمة معنى «محَى» مع العلم أنهم استعملوا في مكان آخر عبارة إنجليزية أكثر تطابقا وصحة عند ترجمة نفس الفعل العربي. والجدير بالذكر أن «wiped out» تحمل قدرا من العنف والتسلط؛ وعند تطبيقها هنا تشير بوضوح إلى عنف الله وتسلطه على طقوس اليهود الدينية حيث محاها من الوجود بطريقة يشعر معها القارئ بأن اليهود كانوا ضحية لعمل شنيع. والغريب أنه قبل ذلك بقليل استعمل المترجمون كلمة «Cancelled» التي هي أدق وأصح وأنزه. عند ترجمة «فمحى الكلام الأول وأثبت الثاني». (ص. 168) «وكم من مسلم في الدنيا وجب عليه الغسل يقوم من فراشه عند السحر في ايام البرد ولايجد سبيلا لتسخين الماء ويغتسل به باردا لئلا تفوته صلاة الصبح.» (112)

How many a Muslim in the world, who is obliged to wash himself, does not rise from his bed at dawn during cold days without finding a way to heat water and washes himself with cold water lest he misses the prayer at daybreak ? (169).

ورد في الترجمة فعل «Obliged to» الذي يدل على الوجوب والإكراه كمقابل لفعل «وجب عليه». في الواقع، إن الترجمة الحرفية لدلالة الوجوب أفرغت الفعل العربي من حمولته الدينية التي تجعل المسلم يقوم بواجبه بإسلام وطيب خاطر، وليس العكس.

«وكذبهم العيان بصحة البرهان بما اظهر في الدنيا الملك الديان؛ له الشكر والفضل والامتنان على علوّ كلمة توحيده والاسلام وخالص الإيمان.» (119).

But reality refutes the validity of this proof by the (events) that have been brought forth by the Judge and King of this world- thanks, grace and indebtedness are due to him for the superiority of the Testimony of his Unity and for Islam , the purest faith ! (176)

استعمل المترجمون عبارة «Testimony» كمقابل لـ «كلمة»، إلا أن المعجم والسياق يفترضان أن تكون «Word» أولى بـ «Testimony» التي تعني «شهادة». فمنطق الأمور لايقتضي أن يقدم الله شهادة على أي شيء لأن وراء كل شهادة مطالب بها. ورغبة في تحسين الترجمة في الإنجليزية نقترح نقل «على علو كلمة توحيده والإسلام وخالص الإيمان»على هذا المنوال

«For His most high Word of Unity, for Islam and as pure a faith»

«وكل واحد من سلاطين النصارى يرتعد ويخاف من سلاطين الاسلام والدين المجاهدين في سبيل رب العالمين وهم السلاطين الفضلا العظما العثمانيون التركيون.» (126).

Every Christian Sultan is terrified by the bellicose Sultans of Islam defending the Religion who are waging war for the sake of the lord of the Universe, viz. The noble and great Ottoman Turkish Sultans (183)

توحي الترجمة الإنجليزية بأن سلاطين الإسلام مسكونون بهاجس الحرب لأن طبعهم عراكي بامتياز كما تدل على ذلك عبارة «bellicose». وهذا هو الذي يجعل سلاطين النصارى يرتعدون ويخافون منهم. أما النص العربي فيتحدث عن إيمان أولئك السلاطين واستعدادهم للجهاد في سبيل الله ضد كل من ظلم المسلمين من سلاطين النصارى.

«لأن المسلمين مأمورون بالجهاد للكفار والمشركين؛ قوله تعالى ﴿جاهد الكفار والمنافقين وأغلظ عليهم﴾، فالمسلمون منصورون من الله بالجهاد للكفار وبتركه يبتليهم الله فيما بينهم؛ لقول النبي - ﷺ - «ما تواطأت قوم على ترك الجهاد إلا ابتلاهم الله فيما بينهم». وقد شاهدنا شيئا من ذلك. »(126).

That the Muslims have taken these numerous islands from the hands of the infidels is no surprise, because they have been ordered to perform jihad against the infidels and polytheists, according to the words of the Exalted God "Fight the Infidels and the Hypocrites and treat them harshly!" Through the jihad against the infidels, Muslims are made victorious by God, but when they omit to do so, God puts them to the test among themselves, because of the saying of the Prophet -may God bless him and grant him peace!-: "No people co-operates in disregarding the jihad without being put to the test among themselves by God!" I have witnessed something of this [myself]. (182-183).

لا تفي الترجمة بما ورد في الحديث النبوي من معنى حيث إن الأصل لا يدل على التواطئ أي التآمر من أجل ترك الجهاد بل على التعاون على إهمال الجهاد. وبين الأصل والمترجم فرق كبير.

«والحمد لله والشكر له أن القرءان العزيز كان في كل بلد من بلاد المسلمين موجودا. » (130)

Praise and thanks be to God because the Noble Quran was found in every land of the Muslims .(186).

يستشف القارئ في عبارة «was found» بأن القرآن الكريم كان موجودا في كل بلدان المسلمين في الماضي فقط، بينما يقصد الحجري غير ذلك.

الصحيح في هذه الحالة أن نستعمل صيغة «were found» بدلا عن الصيغة المذكورة أعلاه.

«والتقيت بمسترضم بفلنضس بحبر مفتي اليهود؛ اليهم من بلاد المشرق. وقال لي ـ في اثناء الكلام عن سيدنا موسى - عليه السلام - أنه عمل ذنبا عظيما.

قلت له الانبياء ـ عليهم السلام ـ منزهون عن الذنوب؛ وكيف تقول انت هذا الكلام ؟» (131)

I (also) met a rabbi, the mufti of the Jews, in Amsterdam, who had come to them from the lands of the East. During a conversation he told me about our lord Moses -peace be upon him! that he had committed a grave sin

I said to him :"But prophets -peace be upon them! are protected from committing sins (187 -188)

لقد تم نقل عبارة «منزهون عن الذنوب» تحت عبارة "are protected from committing sins" أما الأصح في منظار المعجم الديني فأن نقول مثلا are sinless by nature أو far above sinning

خاتمة

توقّفنا في هذه الورقة عند ثلاثة أعمال،أولها دراسة قام بها أكاديمي إسباني، والثاني بحث أنجزه أستاذ عربي، والثالث ترجمة إنجليزية لنص موريسكي وضعها بالاشتراك هولنديان وعربي. وأمام هذا الأمر، قد يبدو عنوان ورقتنا غير دقيق. لذلك نستدرك فنقول بأن الكتابة الأجنبية لا تعني بالضرورة ما يبتدع باللغة الأجنبية أو على يد باحث أجنبي. فبحث صلاح

فضل ليس أجنبيا بالحرف، ولكن من حيث الذهنية التي ينبني عليها، والترجمة الإنجليزية التي راجعناها ليست أجنبية لعجمية لغتها فحسب، بل كذلك وخصوصا بسبب التغريب الذي آلت إليه ترجمة معاني «ناصر الدين على القوم الكافرين»

ومن الكتابات الأجنبية التي كان بودنا أن نتطرق لها أعمال ندوة مونبولييه بفرنسا 1981 وندوة زغوان بتونس 1993 لضخامة المواد المنشورة وتعدد الأقلام المشاركة. غير أننا سنكتفي بملاحظتين قصيرتين احتراما للوقت المسموح به. الملاحظة الأولى تهم ندوة مونبولييه والمقصود بها الإشادة بمقال ديتر ميسنر Dieter Messner الذي يعتبر، على قلة صفحاته، بالغ الأهمية، لأنه يؤرخ بدقة لمصطلح «موريسكي» منذ بداية استعماله في شبه الجزيرة الإيبيرية وللتطورات التي عرفها معنى هذه الكلمة. أما الملاحظة الثانية فتهم الندوة الثانية وبالتحديد مداخلة عاهل إسبانيا الملك خوان كارلوس الأول. وبعد أن نذكر بأن أعمال هذه الندوة مطبوعة بشكل فظيع حيث امتلأ المجلدان بالأخطاء المطبعية والترجمية والاصطلاحية والفنية، نضيف بأن المداخلة الملكية المذكورة تخلو من أمور أصبح حضورها اليوم وضبطها شيئا ضروريا ومنطقيا.

تخلو هذه المداخلة أولا من اعتذار رسمي من المملكة الإسبانية عن الجرائم التي ارتكبتها ضد مواطنيها الموريسكيين؛ وتخلو ثانيا من اختيار مضبوط ومسؤول للمعجم حيث لم تتجاوز المداخلة الخلط التقليدي بين العربي والمسلم، مثلما لم تتفادى الفصل التقليدي بين الإسباني المسيحي والإسباني غير المسيحي (المسلم أو اليهودي). هكذا نتأكد من أن نداءات أمثال خوان غويطيصولو الموجهة تكرارا إلى مواطنيه من أجل تقويم الخطاب السائد حول ماضي إسبانيا واعوجاجات المعجم التاريخي الرسمي

لم تجعلهم يكفون عن موقفهم المتعالي على العقل والتاريخ ولن يفوتنا في الختام أن نشير إلى الجهود الكبيرة التي تبذلها الباحثة العصامية دوقة مدينة شدونه السيدة لويس إسابيل ألفاريس ذي طوليضو، التي تعتمد على وثائق نادرة أو غير متداولة من أجل إنصاف ضحايا السياسة الرسمية الإسبانية، ومنهم الموريسكيون.

مصادر

1) Francissco Marquez Villanvera
El problema morisco (desde otras laderas)
Madrid, Libertarias, 1991

2) صلاح فضل القاهرة، مؤسسة مختار،1992 (ط.2)

3) أحمد بن قاسم الحجري الأندلسي (أفوقاي) «ناصر الدين على القوم الكافرين»، تحقيق محمد رزّوق، الدار البيضاء، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 1987.

4) نفس المؤلف كتاب «ناصر الدين على القوم الكافرين»، تحقيق وتقديم وترجمة فان كوننسفلد وف. السامرائي وخ. فيخرس مدريد، المجلس الأعلى للأبحاث العلمية، 1997.

التأثير الموريسكي في الطرَب المغربي

عبّاس الجرَاري

ليس من السهل الحديث عن التأثير - أي تأثير - لاسيما فيما يتعلق بالمجالات الثقافية. والسبب أن الثقافة تتسرب في المجتمع ببطء، وأن هذا التسرب يحتاج إلى قابلية لامتصاصه واستيعابه.

وعلى الرغم من أن هذا الموضوع صعب وشائك، فإننا سنحاول تناول التأثير الموريسكي في الطرب المغربي من خلال ثلاثة محاور

الأول يبحث في الأنماط الغنائية والموسيقية التي كانت شائعة في المغرب قبل التأثر بما حملته الهجرات الموريسكية، والتي كانت في عمومها مزيجاً من الأنغام البربرية المحلية العريقة، وما حملته الحضارة العربية الإسلامية، مما هو متأثر بنظام القصيدة الشعرية والألحان الوافدة.

ويشار في هذا المجال إلى ما يلي

1- ما كان منتشراً في الحواضر، وغالباً ما كان مرتبطاً بالأذكار والأوراد المنثورة والمنظومة، وإنشادات «فقراء» الزوايا والطرق. ومن أبرزها «الملحون»، في اعتماده على السرد والترتيل أكثر من اعتماده على الأداء الملحن والمنغم. ومثله المرددات المتصلة بمناسبات الأفراح وغيرها مثل «العروبيات» و«السلاماتي»، مما كان يؤدى موقعاً، وربما كان

مرافقاً بالزغاريد والولاويل ومصحوباً بالضرب على «لگوالات» أو «التعارج»، مع استعمال «الطبول» و«الغيطات».

2- ما كان سائداً في بوادي السهول، كسهل زمور وسوس حيث عرفت بعض الإيقاعات القائمة في أدائها على «المزمار» وبعض الآلات الصدمية ولا سيما «لگوال» و«البندير» وكذا آلات وترية أولية وأهمها «الگنبري».

ولعل بعض هذه الأنماط البدوية كان يواكب مناسبات الحصاد وما كان فيها من رقص جماعي يشترك فيه النساء والرجال.

وقد اشتهرت «العيطة» في مناطق «الحوز» كعبدة ودكالة والشاوية والرحامنة. ويطلق عليها «العيطة المرساوية» تمييزاً لها عن «العيطة الملالية» الآتي ذكرها بعد.

3- ما كان معروفاً في الجبال، ومقترناً في معظمه بالرقص مثل «حيدوس» في الأطلس المتوسط، و«أحواش» في الأطلس الكبير. وهي رقصات جماعية تعتمد الصياح والتصفيق والضرب على الأرض بالأقدام، كما تعتمد بعض الآلات الصدمية، وخاصة «البندير». وفي بعض تجمعات الأطلس الصغير، يغلب استعمال «الطبول» الكبيرة.

وتجدر الإشارة إلى بعض المرددات المنتشرة في رحاب المناطق الجبلية كـ «الطقطوقة» و«أعيوع» في الشمال و«العيطة الملالية» وما هو شبيه بذلك.

الثاني يستعرض العوامل التي كانت فاعلة في التأثير، والتي امتدت في الحقيقة على مدى نحو تسعة قرون، منذ تم فتح الأندلس على يد المغاربة إلى أن انتقلت آخر الهجرات الأندلسية إلى المغرب.

ويمكن إجمالها في عاملين أساسيين

1- التواصل الذي كان بين المغرب والأندلس، ولا سيما في عهود الوحدة بين البلدين. وكان تأثيره بطيئاً وبالتدريج، مما كان مسايراً لطبيعة العلاقات وما كان يطغى عليها من أهداف، لم تكن الجوانب الحضارية والثقافية إلاّ تابعة لها.

2- الهجرات الأندلسية إلى المغرب ، ويميز فيها بين أشكال ثلاثة

أ- الهجرات الأولى التي كانت محدودة، والتي كانت تتمثل في وفود الأندلسيين أفراداً أو جماعات، إما في إطار رسمي أو غيره، أو حتى لظروف خاصة، على نحو قدوم عدد كبير من الفقهاء على إثر ثورة الربض في عهد إدريس الثاني. ومثلهم أولئك الذين استقدمهم الموحّدون في عهد عبد الواحد الرشيد عام 637هـ/1240م) لتعمير مدينة الرباط.

ب- الهجرات التي وقعت موذنة بانهيار دولة الإسلام بالأندلس، بدءاً من سقوط قرطبة 1236م وبلنسية 1238م وإشبيلية 1248م، إلى سقوط قادس والمرية وكل الشاطىء 1485-1489 ، ثم تسليم غرناطة عام 897هـ/1492م.

ج- الهجرات الكبيرة التي قام بها الأندلسيون الذين بقوا تحت الحكم الإسباني، بعد نحو قرن من تسليم غرناطة. وهم الذين عرفوا بـ «الموريسكيين»، على اختلاف في تعريفهم، إن كانوا هم الذين حافظوا على إسلامهم أو الذين أخفوا دينهم وأظهروا التنصير. وكانوا قد عانوا محناً شديدة طوال هذه الفترة، وإن حاولوا القيام ببعض الانتفاضات.

وبهذا يتضح ما يلي

أولاً : أن التأثير الأندلسي بدأ قبل هجرات الموريسكيين.

ثانياً أن تأثيرهم هو تجميع أو خلاصة لما كان من تأثير للأندلس في المغرب حضارياً وثقافياً على مدى تسعة قرون.

ثالثاً أنهم كانوا قد ضعفوا حين هاجروا إلى المغرب، بسبب معاناتهم؛ وما حملوه هو الصبابة التي حافظوا عليها أثناء المحنة.

رابعاً أن تأثيرهم - مع ذلك - كان قوياً لسببين

1- للتعاطف الذي كان بين المغاربة وهؤلاء المتمسكين بدينهم.

2- للمنظور الذي أصبح للمغاربة بعد أن انتهى وجودهم في الأندلس، وغدوا مستعدين لقبول الأندلسيين أكثر من ذي قبل، إلى درجة الاعتزاز والافتخار.

الثالث مظاهر التأثير وتتجلى في مظهرين بارزين

1- دخول أنماط موسيقية جديدة هي

أ- «الآلة» أو ما اشتهر بـ «الموسيقى الأندلسية» وهي - كما يدل عليها اسمها - تعتمد الأداء الآلي القائم على الوتريات والصدميات وبصفة خاصة على الرباب والعود والطر (ضابط الإيقاع)، وإن كان هذا الأداء يرتكز على نصوص شعرية لضبط إيقاعاته، وخاصة من الموشحات والأزجال. وهي بناء متكامل محكم ومنظم يقوم على نوبات وصلت منها إحدى عشرة نوبة، هي الأصبهان، الحجاز الكبير، الحجاز المشرقي، العشاق، الماية، رمل الماية، الرصد، غريبة الحسين، رصد الذيل، عراق العجم، الاستهلال الذي يبدو أنه من إضافات المغاربة.

والنوبة عبارة عن مجموع المكونات النصية واللحنية التي يتشكل منها العمل الموسيقي، في نظام تركيبي معقد ومنضبط. وهي تقابل ما كان معروفاً في المشرق بالدور أو المرة.

وتؤدّى على طبوع خمسة هي البسيط، القائم ونصف، البطايحي، القدام، الدرج الذي يرجح أنه من إضافات المغاربة.

ووفق موازين هذه الطبوع تقوم الهيكلة اللحنية والأدائية على النحو الآتي

• تقسيم الميزان

- التصديرة (افتتاح بطيء)

- القنطرة.

- الانصراف (إقفال الميزان بسرعة).

• التراتن (شغل) التي يقصد منها إلى إغناء اللحن وإشباعه بمثل أنانا

- طيري طان يالالان.

• الجواب الذي تعاد به بعض المقاطع اللحنية التي تنشد عليها أبيات الصنعة.

• البُغيات أو التواشي، ومثلها المشاليات. وهي معزوفات آلية تكون كمقدمات وقد تميزت في المغرب بحكم نوع الهجرات مدرسة لها أصول بلنسية وغرناطية، وكان لها ظهور في بعض الحواضر ولا سيما فاس وتطوان وشفشاون والرباط، في حين تأثرت الجزائر بمدرسة قرطبة، كما طغت على تونس المدرسة الإشبيلية.

ب- الطرب الغرناطي، ونميل إلى أنه النمط الذي حمله الموريسكيون فعلى الرغم من كونه من «الآلة» إذ كان يطلق عليه «نوبة غرناطة»، إلاّ أنه يختص ببعض الملامح التي تتجلى نصاً وأداء في طغيان النفس الحزين

والإيقاع البطيء مما لا شك يعكس المعاناة القاسية التي كابدها هؤلاء على مدى نحو قرن قبل أن يستقروا في المغرب. ثم إنه بحكم هذه الظروف الصعبة غدا متقلصاً بالنسبة لأصله الذي هو «الآلة»، إذ يقتصر على مدخل يعزف بآلة وترية قد تكون العود أو ما إليها مثل «المندولين». وبعده يقوم المنشد بأداء موال يرافقه عزف بالآلة نفسها، ثم تنشد القصيدة في إطار موسيقي يستعان فيه بعدد من الآلات ويظهر صوت المنشد تعقب أداؤه في كل مرة ترديدات المجموعة الصوتية المصاحبة له.

وقد ظهر في المغرب اتجاهان لهذا الطرب أحدهما في الرباط متأثر مباشرة بالأصل الغرناطي والثاني في وجدة، وفيه بصمات مما كان رائجاً من هذا الطرب في القطر الجزائري، ولا سيما في تلمسان.

ومن الأعلام الرباطيين في هذا الطرب - والآلة على العموم - ممن عاشوا في القرن الماضي يذكر محمد الرطل، والحاج قاسم بنعسيلة، والمكي الفكيكي، وأحمد زنيبر، وعبد السلام بن يوسف، وبا محمد اگديرة، والمختار الوديي، والطيب بلكاهية، ومصطفى المعروفي، ومحمد السبيع، ومحمد امبيركو، والمكي امبيركو، وأحمد بناني، ويرفع لواء هذا الفن اليوم السيد أحمد بِّيرو.

2- تطوير بعض الأنماط التقليدية، ونكتفي فيه بالإشارة إلى ملمحين

أ- تأثر كثير من الأنواع الغنائية في أدائها بألحان «الآلة». ويظهر ذلك في أداء أشكال غنائية وفي إنشاد قصائد «الملحون» بصفة خاصة، إذ لم تعد تعتمد مجرد السرد، ولكن غدت منغمة ومؤداة بالآلات، وأهمها «الگوال».

ويكتفي التمثيل في «الملحون» بقصيدتين :

• قصيدة «التوبة» لمحمد بن سليمان وفي خرجتها يقول

ياراسي لا تشقى ألتاعب لا بد من لفراق
لا تامن فالدنيا ابناسها غرارا

فهي تؤدى على نوبة «عراق العجم».

• قصيدة «المزيان» لعبد القادر العلمي، وهذه حربتها

حن واشفق واعطف برضاك يا المزيان
لا اسماحا ميعاد الله يا الهاجر

فإن أداءها يبدأ على الاستهلال ثم يتم الانتقال إلى رمل المايه فالحجاز.

وقد مس التأثر في «الملحون» كذلك نظام الأداء، إذ يبدأ المنشد «القصيدة» بمقدمة قد تكون «سرابة» أو «موالاً» أو «تمويلة» يتبعها «الدخول» ثم «الحربة» التي هي اللاّزمة ، وبعدها «القسم» الذي يفصل تكرار «الحربة» بينه وبين قسم آخر، لتختم «القصيدة» بجزء يطلق عليه «الدريدكة» ويتميز بالأداء السريع.

ومثل هذا يقال عن فن «السماع» الذي يتمثل في الأناشيد التي كان يستمع إليها قائمة على السرد والترتيل، والتي كان يغلب عليها الطابع الديني، ولا سيما ما يتصل منه بالمديح النبوي، وإن شاعت التسمية لتشمل كل ما يتعلق بالموسيقى والغناء.

وقد رافق هذا التطوير استعمال آلات موسيقية في أداء بعض الأنماط المحلية، كالغناء السوسي الذي دخله «الرباب»، إلى جانب ما كان معروفاً من آلات، كـ «البندير» و«الحديدة» و«المقص». وشاع ذلك حتى تميز

«الرباب» السوسي في شكله عن «الرباب» المعروف في «الآلة» إلاّ أن يكون غناء سوس قد عرف «الرباب» قبل.

ب- تأثر وضع كلمات الأغاني بما حملته النصوص الشعرية والتوشيحية والزجلية التي كان يعتمد عليها أداء «الآلة». وتنطبق هذه الظاهرة على كثير من الأشكال الغنائية التي دخلتها الإيقاعات العروضية في تلويناتها الجديدة، وأبرزها «الملحون» الذي كانت «قصائده» قائمة على وحدة البيت والقافية، ثم لم تلبث أن وسعت نطاق إيقاعاتها بما يبرز في الأوزان الآتية

• المبيت ومنه «المثنى» القائم على بيت من شطرين، ثم «الثلاثي» المكون من ثلاثة أشطار، و«المربوع» أو«الرباعي» من أربعة و«خامس لشطار» أو «الخماسي» من خمسة.

• مكسور الجناح ويتكون من أقسام كل واحد منها يبدأ بـ «الدخول» الذي هو عبارة عن شطر (صدر) بدون عجز، تتبعه مجموعة أشطار قصيرة يطلق عليها «لكراسا» أو «لمطيلعات»؛ بعدها يأتي بيت على وزن «الحربة» وقافيتها، ثم يختم بالحربة.

• المشتب، ويتكون من أقسام يتشكل كل واحد من بيت يفصل بين أول أشطاره وبقيتها بمجموعة أشطار تسمّى كذلك «لمطيلعات».

• السوسي ويكثر استعماله في «المحاورات» وتتشكل قصيدته من أقسام كل منها يضمن بيتاً من شطرين ثم مجموعة أشطار حرة الوزن والقافية وبعدها بيتان أو ثلاثة موزونة ومقفاة، على وزنها وقافيتها تبنى «الحربة».

وتجدر الإشارة إلى أن النصوص الشعرية التي تعتمدها «الآلة» - من قصائد وتواشيح وأزجال - قد تأثرت بدورها بأشعار ملحونة. وهو ما يتجلّى في «البراول» التي غالباً ما تؤدى على طبع «الدرج»، مما يرجح أن هذا الطبع من إضافات المغاربة كما مر.

نهاية الموريسْكي سعيد الدغالي،
حسب مخطوطة لم تُنشر، لابن العياشي
وزير السلطان المَوْلى إسماعيل (ت 1139=1726)

عبد الهادي التازي

كل الذين كتبوا عن الموريسكيين في بلاد المغرب سواء من العرب أو غيرهم، بذلوا جهدهم في الاطلاع على كل ما ألّف بالمغرب أو ما كتبه الجيران في الجزيرة الإيبيرية، أو حتّى ما كتب باللغة التركية... كُلُّهم فلت لهم مصدر لم يذكره أحد من هؤلاء وأولئك، على ما في علمي، ولعلَّ مردّ ذلك إلى أن هذا المصدر الذي نشير إليه ألف في عهد الدولة العلوية وليس في عهد الدولة السعدية، بل ربما كان مرد ذلك أكثر إلى عنوان المصدر الذي أشير إليه والذي يوحي بأنه يتعلق بموضوع لا يتصل بالموريسكيين من قريبٍ أو بعيد.

ومن هنا لم يلتفت لهذا التأليف أحد، ولم أرَ اسم مؤلّفه على هامشٍ من الهوامش التي تعقبتُها لكل الذين كتبوا عن الموريسكيين من المغاربة وغيرهم.

واللاّفت للنظر، أكثر من هذا أو ذاك، أن شيخ المستشرقين ليڤي بروڤنْصال لم يُجر ذكراً لهذا المصدر ولا لاسم مؤلّفه في كتابه (مؤرخو

الشّرَفاء)، بالرغم من أن الناصري في «الاستقصا» نقل عنه أكثر من مرة. وكان بروڤنْصال مهتماً بذكر كل التآليف التي أرخت للشرفاء، وكنتُ أتمنى أن يتنبه الذين قالوا إنهم تحدثوا عن جوانب النقص في تآليف ليفي بروڤنصال، أن يتنبهوا لهذا المصدر الذي كان على مقربةٍ منهم !

ومن هنا حُبب إليَّ أن يكون هذا الاسم المنسي وهذا التأليف المهمل هو مصدر إسهامي في الحديث عن موضوع الموريسكيين الذي نهتم به اليوم (الموريسْكي سعيد الدغالي) من منظور تلك المخطوطة، هذا الموريسكي الذي نعتته المخطوطة في عنوان ترجمته بالغادر بل تحدثت المخطوطة عن أن غدره أصبح مضرب الأمثال في مجالس مرّاكش...

لم يكن التأليف الذي أشير إليه غير كتاب «زهر البستان في نسب أخوال سيدنا ومولانا زيدان» [1] الذي ألفه الوزير محمد بن العياشي برسم السيدة حليمة السفيانية زوجة السلطان مولاي إسماعيل ووالدة نجله الأمير مولاي زيدان.

وأكرر مرة أخرى أن عنوان الكتاب وزمن تأليف الكتاب، وربما اسم المؤلف كذلك هو الذي حجب عيون الباحثين عن الالتفات إلى هذا المخطوط الذي كان وراء إلحاحي على ملاحقة أخبار سعيد الدغالي الذي لقي حتفه علي مقربة من الزاوية المتوكلية بضاحية فاس.

لقد كنتُ أشرت في المجلد الثامن من موسوعتي «التاريخ الدبلوماسي للمغرب» [2] إلى المؤامرة التي كانت تحاك من أجل الإجهاز على أبطال وقعة وادي المخازن... وكنت أتطلع - ولا أخفيكم ذلك - إلى المصادر التي تعزز ما قرأناه في التآليف المعاصرة مغربيةً وغيرها... إلى أن وقعت يدي على مخطوطة ابن العياشي «زهر البستان» التي اهتمت كثيراً بل كادت أن تكون خاصة بقبيلة سفيان العربية...

وكما أشرت، فإن والدة السلطان مولاي زيدان سفيانية الأصل، وكان على ابن العياشي أن يستوعب ذكر سائر السفيانيين الذين كان لهم حضورٌ في تاريخ المغرب الاجتماعي والسياسي كذلك. ومن هنا يصح اعتبار المخطوط في بعض جوانبه كتاريخ لآل سفيان بداية من دخولهم للمغرب، ونزولهم بمنطقة الغرب رجالاتهم، بطولاتهم، أعمالهم التي كان منها بناء قبة ضريح المولى إدريس التي بنتها الأميرة حليمة السفيانية والتي ما تزال إلى الآن شاهدة بما وصل إليه الفن المعماري في بداية الدولة العلوية. فماذا عن صلة الدغالي بابن العياشي وهما معاً من عصرين متميزين؟

أريد أولاً أن أشير إلي مقارنة طريفةٍ ومثيرةٍ في حياة الرجُلين الدغالي وابن العياشي إنهما معاً قاما بمهمة متشابهة ولو لم يذكر ابن العياشي ذلك! إن ابن العياشي قام بمثل العمل الذي قام به الدغالي في تأطير الجيش المغربي...

ومن غير أن أتكلف عناء التطويل حول من روى وعمّن روي، أذكر هنا موجزاً للأنباء التي تمالأت عليها الكتب محيلاً على بحث كنت قدمته حول القبائل العربية بالمغرب (3).

إن العاهل السعدي مولاي عبد الله الغالب بالله - وجد نفسه أمام مشاكل الأندلسيين اللاجئين إلى المغرب، ففكر في أن يستوعبهم وأن يستفيد بما يمكن أن يسهموا به من أعمالٍ على نحو ما كان من الموحدين مع العرب الوافدين على المغرب، ومن هنا جاءت فكرة القيام بجرد أسمائهم وإحصائهم وتأطيرهم على حد التعبير الذي نستعمله اليوم.

ولم يكن غير سعيد الدغالي صالحاً للقيام بجمع تلك الحشود وإعدادها لتكون رهن إشارة الدولة. وهذا نفس الدور الذي سنرى الوزير ابن العياشي

يقوم به أيام السلطان مولاي إسماعيل، فلقد عهد إليه هذا السلطان بجمع سائر العبيد المعروفين على عهد السعديين والمتناثرين في الجهات المغربية ليجعل منهم «عبيد البخاري» من أجل تحرير الثغور المحتلة. فعندما يتحدث ابن العياشي عن الدغالي كنت أتصور أن هذا الرجل اللاحق لم تكن تغيب عنه وظيفة الرجل السابق..!

وإلى هنا سأبقى مع مخطوطة ابن العياشي (ت 1139 = 1726) لنعرف جديدها وإضافتها إلى ما دوَّنه ابن القاضي في «درّة الحجال»، وما دوّنه عبد العزيز الفَشْتالي (ت 1031 = 1621) في «مناهل الصفا» ومن لفَّ لفهما...

كما قلنا فإن «زهر البستان»، زهور منثورة على السيدة حليمة أو كما يعبّر العياشي عُجالة من أخبار قبيلة سفيان.

ومن هنا وجدناه - ابن العياشي - وهو يعدد مناقب السلطان مولاي إسماعيل، يتخلص ليذكر بعض أعيان سفيان الرافلين في حلل الجلال المرتقين أوصاف الكمال، أمثال الفقيه أبي الحسن علي بن العربي السفياني الذي أخذ عن العلامة المنْجور وأخذ عنه سيدي محمد العربي الفاسي (ت 1052 = 1642) صاحب «مرآة المحاسن في أخبار الشيخ إلى المحاسن». هنا ينقل ابن العياشي عن «المرآة» التي تذكر أن السفياني كانت سكناه بدرب عبد الكريم قُرب حي الشرابليين من عدْوَة القرويّين بفاس... أسكنه فيها السلطان مولاي أحمد الذهبي فيمن أسكن من سفيان...

وهنا وجد ابن العياشي الفرصة أيضا ليذكر أن في صدر الساكنين بدرب عبد الكريم من آل سفيان إبراهيم الذي عهد إليه المنصور الذهبي بمؤازرة ولده مولاي محمد الشيخ الذي، كان كما نعلم، أصبح حاكماً لفاس نائباً عن والده أحمد المنصور، ووليا لعهده كذلك.

وكانت مناسبةً مواتيةً كذلك لابن العياشي ليقدم لنا وصفاً لما حدث من قضية المؤامرة مما فات بعضه، كما أشرت، على سائر المهتمين بأمر الدغالي وخاصة منهم الباحثين الأجانب الذي تناولوا هذا الموضوع بكثير من العناية من أمثال الأساتذة ميرْسيديسْ گراسيا أرينال MERCEDES GRACIA ARENAL[4].

وسأسير جنباً إلى جنب مع ابن العياشي الذي يبتدئ كلامه عن ابراهيم السفياني بما نقله عن ابن القاضي في «درة الحجال في أسماء الرجال»[5] مضيفاً إليه بعض العبارات التي اقتضتها الظروف مثل (رحمه الله).

«إبراهيم بن محمد السفياني أبو سالم الروگي[6] قائد قواد مولانا أحمد الذهبي رحمه الله، كان حافظا لكتاب الله، كاد أن لا يفتر عن تلاوة القرآن، وكان نصوحاً لمخدومه وقائماً بأعباء الوزارة أتم قيام...».

وبعد نص ابن القاضي يذكر ابن العياشي أن هذا القائد هو الذي انتُدب للفتك بالغادر سعيد الدغالي عند إرادة السلطان مولاي أحمد المنصور الذهبي الانتقام منه لأمرٍ أوجب ذلك... ويتصدى ابن العياشي لتفصيل الحديث عن غدرة الدغالي، فيؤكد أنه غادر ماكر يُضرب بغَدْره المثَل في كثير من كلام الملحون عند حوز أهل مراكش...

ويتطوع هنا بذكر أصل الدغالي ومنبته معتمداً على ما ذكره الفشتالي في «مناهل الصفا من أخبار الشُّرَفا» في نسخةٍ تزيد وتنقص على النسخ التي بين أيدينا اليوم والتي تشتمل على عددٍ من التصحيفات والنواقص والتحريفات[7].

والمهم أن ابن العياشي ظل يترصد للأدوار التي قام بها القائد إبراهيم السفياني إزاء حركات الغدر في سائر جهات المغرب جنوبه وشماله، فإنه لما

رأى ما فعله أوْلاد أمْطاع في سفح جبل دُرَن من قَطع السابِلة على القوافل التي تمر لمحلة المسلمين، أخذ بتلابيهم وشغلهم من خلفهم... على ما يذكره ابن العياشي في «زهر البستان».

إن تلك المناوشات من أولاد امطاع كانت تهدف إلى تعويق مسيرة مولاي عبد الملك نحو ساحة القتال ضد البرتغال الذين نزلوا بالساحة المغربية استعداداً للمعركة التاريخية التي ستحمل اسم معركة وادي المخازن أو معركة القصر التي قدم ابن العياشي وصفا دقيقا عن التحضير لها وعن ماجرياتها.

ولا يفوت ابن العياشي أن يبرز دور القائد إبراهيم السفياني في الإعداد لهذه المعركة، وكيف «أنه نزل بجبال الغرب على مدينة القصر ليقوي نفوس السكان ويوطئهم على الإقامة، ويمنعهم من الرحيل لما دبّ فيهم من الهلع والخوف من النصارى معزِّزاً - على ما يبدو - رسالة أبي المحاسن الفاسي لأهل القصر. وهناك تم اجتماع السلطان مولاي عبد الملك بأخيه مولاي أحمد بحضور القائد إبراهيم بعد أن كان السلطان بعث من مراكش إلى ملك البرتغال بمكاتبته المشهورة المتداولة بين الناس (8).

وبعد حديث ابن العياشي عن إرسال السلطان مولاي عبد الملك لأخيه مولاي أحمد ليلاً مع أربعة آلاف من الخيل لهدم قنطرة وادي المخازن في وقتٍ كان العاهل يعاني فيه من مرض شديد (9)، ويعطي توجيهاته رغم ذلك من على محفته، يخبر ابن العياشي بأن عبد الملك التحق بربه مع تلقيه أخبار النصر (10)... إلى أن خلفه مولاي أحمد الذي ضرب الموعد للقادة بفاس حيث دفن المولى عبد الملك في قُلّة بني مرين المشرفة على المدينة على ما نقرأه لمؤلف مجهول عن تاريخ الدولة السعدية. وهنا بفاس جاءته وجوه القبائل من العرب والبربر واجتمع الناس على بيعته فقام بإعادة تنظيم القواد والأشياخ... وراعى للقائد إبراهيم السفياني حسن ما صنع وأنزله المنزل الخاص به.

ويعود ابن العياشي هنا لإعطائنا صدى عن هذه الأخبار في أوساط القواد الذين كانوا بعيدين عن ساحة المعركة، وفي صدرهم القائد الموريسكي سعيد الدغالي الذي صادفته الأحداث وهو في سوس يستوثق من رجوع المياه إلى مجاريها بعد حركة العصيان التي عرفها الإقليم...

فكيف استقبل الدغالي تلك الأخبار ؟

قبل الإجابة عن هذا السؤال أريد التأكيد مرة أخرى على أصالة معلومات ابن العياشي، تلك المعلومات التي تتجلى من خلال المقارنات والمفارقات بين النصوص الموجودة في سائر المصادر المعاصرة الأخرى. حيث تتجلى أنها معلومات لا تكتفي - وهذا مهم - بما نعرفه من هذه المصادر، ولكنها تعتمد كذلك على معلوماتٍ توفر عليها ابن العياشي الذي كان - كما أشرنا - رجل دولة، كان بمثابة الوزير الأول للسلطان المولى إسماعيل الذي كان يعرف عن تفاصيل الفترة التي لم تكن بعيدةً عن عصره، علاوة على ما نعرفه عن مولاي إسماعيل الذي كان ينعت المنصور الذهبي بعمّه، وهو الذي كان يعتز بامتلاكه الخيمة التي كانت منزلاً لملك البرتغال في وادي المخازن قبل مصرعه ! بمعنى أن كلمات ابن العياشي عن سعيد الدغالي كلمات لها دلالتها...

شخصياً لم أقرأ في مصدر من المصادر التي تناولت سعيد الدغالي أنها تحدثت عن شعر الملحون الذي يشير لغدرة الدغالي... والذي كان معروف الرواج على عهد السلطان مولاي إسماعيل ! ولقد دفعني الفضول إلى استشارة «معلمة الملحون» التي أنجزها أستاذنا الراحل محمد الفاسي... لكني وقد وجدت أن الأستاذ رحمه الله لم يصل فيما نَشَر إلى ما أبحث عنه [11] رحلت إلى مدينة الصويرة لأسأل الزميل الأستاذ الحاج أحمد سُهوم صاحب الباع الطويل في الفن والذي ينهمك الآن في إعداد موسوعته حول الملحون أعانه

الله... لقد أجابني على التو بأن هناك عدداً من قصائد الملحون، من التي اتخذت من اسم الدغالي رمزاً للغدر والمكر والاحتيال.

وإذا ما أخذنا بعض تلك القصائد على الترتيب التاريخي لأصحابها تبعاً لترجمة الأستاذ محمد الفاسي لأعلام شعراء الملحون [12]، فإننا نذكر - كما أفادنا الحاج أحمد سُهوم

أولاً الشيخ عبد العزيز المغراوي الذي عاش أيام المنصور، وهو يقول في زَرْب الكاملة

كِيفْ يَتْذَوَّقْ عَشْقَ الزِّينْ وَغْد مُحْتَال عَاشْ مَا بِينْ الغَي وغَلل كِي «الدُّغْلِي»!

ثانياً الشيخ محمد المصمودي الذي عاش أيام زيدان بن المنصور والذي يقول في قصيدة هجائية تسمى المقماع

لَحْكدْ غَلْغَالْ فَ النَّفْس اللِّي كُلّها دْغُل
وَالكَلْب اللّي حَارْقُه الغَلّ يَا رَاسِي مُحَال
«الدْغْلِي يسْتَاهَلْ الدْخِيل !

ثالثاً الشيخ أبو سعيد عثمان المنداسي وهو معاصر للسلطان مولاي إسماعيل، يقول

مَا يَفرَقْ ما بِين لاَشْكَال أو شَكْلِي منْغيرْ النِّحْرِيرْ دُهْقَانِي ذَا الطُّولْ
دَعْكَ منْ غَدَّارْ في طَبْع «الدُّغْلِي» مَا يسْمَعْ له غِير من مَثْلُه مَدْغُولْ ! [13]

وللاستئناس بأخبار الدغالي... أتساءل عن صلة التعبير الذي يجري مجرى المثل في الاستعمال المغربي : «هذه القضية ما فيها دْغَلْ» أي ما

فيها غدر ولا غش، على ما أوضحه المستشرق الفرنسي جورج كولان في معجمه للعامية المغربية...

كما أتساءل عن صلة هذا بالتعبير السائد «قسمَة ابن دْغَل، واحد خْذَا الشكيمة وواحد خْذَا البْغْل» !

ولابد أن لا تفوتني الفرصة للربط الوثيق بين هذا المعنى الدارج والمعنى الفصيح للفظ الدغل الذي يعني نفس المعنى، وكما تقول الحكمة العربية لكل امرئٍ من اسمه نصيب !!

فعلاً إن المرء ليتساءل عن النعت «الدغالي» الذي ليس معهوداً عند الذين يهتمون بالأندلسيات، وقد أفادتني الزميلة ماريا خيسوسْ فيگيرا أنَّ كلمة دوغال DOGAL في اللغة القَشْطيليّة تعني الرَّسن واللجام الذي تساس به المطية. مهما يكن فإنني أعتقد أن نعت سعيد ركبه في أعقاب غدرته الأولى بمخدومه الأمير مولاي محمد بن عبد الله الملقَّب بالمتوكل !

فلْنعد بعد هذا لما قاله ابن العياشي عن سعيد الدغالي حينما وصلته أخبار وادي المخازن إلى سوس، سوّلتْ له نفسه الاستبداد بسوس مع عصابةٍ من رماة الأندلس الذين كانوا إلى نظره وتحت ولايته، لكن القائد عبد الكريم بن موسى والقائد محمد بن عبد الكبير خال مولاي أحمد الذهبي والقائد عزّوز بن سعيد الوزگيتي، كل هؤلاء الذي كان مولاي عبد الملك ولاّهم على أعمال سوس... أحسوا بما سوّلت للدغالي نفسه من الغدر، فقصدوه وتوافوا جميعاً بعسكر واحد، وأجمعوا أمرهم على الوفادة على مولاي أحمد بفاس ليهنئوه بالفتح والخلافة، وأمام الأمر الواقع لم يسع الدغالي حينئذ غير المسير معهم، فساروا به جميعاً من سكناه عبر مراكش لفاس، فلما وصلوا مراكش

وأيقنوا بأنه لا محالة واصلٌ لحضرة مولاي أحمد، انقلب القائد محمد بن الكبير والقائد عزّوز بن سعيد إلى أعمالهما بسوس ووجها مع الدغالي من استصحبه لفاس فوفدوا، وبلغ إلى مولاي أحمد ما في نفس الدغالي... لكن مولاي أحمد لقيه بالبر والترحيب وأظهر سروراً لمقدمه عليه وأكرم نزله.

ثم لم يلبث الدغالي أن استعمل المرض، واشتكى لمولانا وخامة النزول وفساد مزاجه بفاس، وطلب منه الإذن في القدوم لِسَلاَ، يريد التفلّت منه، وكانت سَلا تحت ولايته في عهد مولاي عبد المالك، خصّه بها عندما نزع الدغالي عن الأمير مولاي محمد بن عبد الله، وكان يستتيب فيه ولد أخيه محمد... فتفطن مولاي أحمد لمكره وانطوائه على النّكت، وتعلل مولاي أحمد للدغالي في الإذن بالالتحاق بسلا. وأظهر له غاية الحاجة إلى حضور مجلسه للمفاوضة معه في أموره ومصالح مملكته توثقاً بنصحه، فلم يصرفه بذلك عن عزمه وصمم على مغادرة فاس، وألح في الطلب، فسدَّ له مولاي أحمد باب الإذن، فاجترأ حينئذ، وكان من الجهل والفضاضة إلى الغاية، فخرج نهاراً من غير إذن، وصمم إلى وجهته !!

وبعث له مولاي أحمد مع القائد محمد بن سليمان بالمُلاينة والمُلاطفة على الرجوع، وحذَّره، فامتنع من البقاء وأبى إلا إمضاء عزيمته على السفر ومضى حتى ضرب أفنيته على وادي فاس وتلوَّم على خروج أثقاله وماله من المدينة.

فاستغضب مولاي أحمد ما ارتكبه الدغالي من سوء السريرة ومن الافتيات على الأمر والخروج من غير إذن، والمجاهرة بالعصيان والمخالفة، فحق عليه القول، واتجه إلى قتله السبيل، ولم يجد مولاي أحمد وليجةً دون الإراحة منه، فسرَّح إلى قتله عظيم الدولة أبا إسحاق القائد إبراهيم السفياني

وأنفذ معه الفاتك أحمد الزواوي، وقريعه حدّو، وعبد العزيز بن يخْلَف اليَفْري، وعبد الله التلمساني، وكلُّهم قواد عشائرهم من زَوَاوَة وشرَاكَة، وكان في تخصيص المنصور هؤلاء النفر لهذا الفتك سياسة نافعة لمولاي أحمد بسبب استحداث العداوة بين الأندلس والشراكة، فذهب القائد إبراهيم السفياني لوجهته التي كلف بها

وما راع الدغالي إلا دخول القائد إبراهيم عليه في خيمته، والفاتك أحمد الزواوي على إثره، وبقي أصحابه الثلاثة خارج الخيمة... فاستشعر الدغالي الشر، وكان مستلقيا على قفاه لما يُظهر من التمارض، فاستكان للقائد إبراهيم ورغبه على إرسال يده، وأقسم له على استمكانه منها فجعل يقبّلها فعْل المتدلِّل الجازع، وخرج بذلك عن مألفه في الغلطة والفضاضة إلى الغاية فِي التواضع والاستكانة !

وكان القائد إبراهيم ذهب من عند مولاي أحمد على الحالة التي ركب بها إليه، أعزلَ من السلاح، واتفق أن وجد ابن أخي الدغالي محمد سالف الذكر واقفاً بسيفه على رأس عمّه ! فحذر إبراهيم عائلته، وجعل محمد يشتغل بسيفه خدعةً، ويُلهي عمه بالمحادثة لما أظهره هذا من الوقوف لتشييع القائد ! حتى أمكنت الفرصة هذا الأخير فاستقل قائماً ووثب على قائمة سيف محمد فاخترطه، وأغرى الزواوي بالدغالي فأومأ بسيفه إلى صفحة عنقه وهو مُستلقٍ، فطارت هامته لضربة واحدة !!

وشدَّ القائد إبراهيم على ابن أخيه محمد بسيفه فَعَصب جبينه، ثم اعترته سيوف النفر فاستلحمتْه، واجتروا رأسه، وحُمل مع رأس عمه في مخْلاة حتى وضعا بين يدي مولاي أحمد المنصور وانتهب القوم فساطيطهما، واَستقلَّ كل واحد بما حصل له في يده من الخَرْثى والخيل والسراري.. !

وبينما القائد إبراهيم مقبل لفاس إذْ تلقته على ظهر الزاوية بِغال الدغالي الحاملة لماله وأثقاله، وكانت نهايته ستين ألفاً من الذهب على ما ذكره عبد العزيز الفشْتالي، فاستردها القائد إبراهيم وجعل وجهته لمولاي أحمد، فاستكان عند ذلك جيش الأندلس. وذهب الدغالي وولد أخيه مثلاً في الغابرين، واقتُلعت جرثومة الشقاق، واستقامت أحوال الجند من يومئذ، واستوت قدم السلطان مولاي أحمد في ملكه، وأجمع الرحلة لمراكش دار خلافته، وأنزل ولده مولاي محمد الشيخ بدار الخلافة من فاس لإقامة رسم الملك بها على ما أشرنا، وكان آنذاك طفلاً صغيراً فجعل تدبير الأمور والنقض والإبرام ساعتئذ لخالصته القائد السفياني...

هكذا صاغ ابن العياشي مصرع الموريسكي الدغالي، وأعتقد أنه لولا تعلقه بأخبار آل سفيان موضوع تأليفه، لضاعت منه إضافته هذه.

ويحضرني بيتان في «العقد النفيس» لأحمد بن إدريس

احْذر عَدوّك مرة ... واحذَرْ صديقك ألف مرّة

فلربّما انقلَب الصديقُ فصار أعرف بالمضرّة !

ويبقى علينا، لكي نُلِمّ بالنص إلماماً كاملا، أن نعرف الموقع الجغرافي الذي كان معسكراً لجيش الدغالي... كل المؤرخين المغاربة، وبدون استثناء، أجمعوا على النص بأنه ظهر الزاوية، لكن أحداً منهم لم يستطع أن يقدم للزاوية نعتاً، مع أن المنطقة واضحة ومحدودة، وهي تقع على ضفة وادي الجواهر بفاس، بين رأس العين التي يعبّر عنها الفشتالي بالمستقى وبين «الزاوية» التي كانت مشيدةً هناك على مقربةٍ من ضفاف الوادي...

فماذا كان سر سكوت الكُتّاب عن الكلام حول الزاوية، وكنتُ شخصياً أتطلع إلى ذلك؟

لقد كـان القصد بالزاوية إلى الزاوية المتوكلية التي شيَّدها السلطان أبو عَنَان المَريني الملقب بالمتوكل على الله، شيدها منذ عام 756=1355 خارج فاس على ضفاف واديها، تلك الزاوية هي التي أثارت اهتمام الرحالة المغربي ابن بطوطة وجعلها أثرى وأجمل وأرفع من زاوية سرياقُوص التي بناها الملك الناصر خارج القاهرة (14).

هذه الزاوية المتوكلية التي التبست على سائر الذين اهتموا برحلة ابن بطوطة عرباً وعجماً، التبست عليهم بالمدرسة البوعنانية المشيّدة كذلك من لدن السلطان أبي عنان.

كل المؤرخين على العهد السعدي تجنبوا نعتها «بالمتوكلية» حتى لا يذكّروا أحمد المنصور في اسمٍ كريهٍ لديه، وهو عدوّه بالأمس القريب، الأمير محمد ابن عبد الله الملقب كذلك بالمتوكل على الله... وهكذا أطبق المؤرخون السعديون على ذكر الزاوية هكذا غُفلاً من نعتها التاريخي الذي عُرفت به باستثناء المقّرى الذي اكتفى بنسبتها إلى أبي عنان (15)، ولكن من غير نعتها بالمتوكلية ! المقرى الذي كان آخر من ردد صداها قبل أن تتعرض للخراب أيام تنافس بني المنصور

وإذا كان هذا الموقع للزاوية الذي لم يبق اليوم منه إلا بعض الأطلال، أقول إذا كان هذا الموقع شهد هذا الحدث المأساوي، فإنه من جهة أخرى شهد أحداثا على الصعيد الدولي حيث نجد أن المنصور الذهبي يستقبل فيه إثر عودته من ساحة معركة وادي المخازن السفارة البرتغالية - الإسبانية الهامة التي وردت لالتماس جُثّة العاهل البرتغالي دونْ سباسْتيانْ الأمر الذي استجابت له أريحية أحمد المنصور الذي أجاب برسالته المؤرخة يوم ثاني رمضان 986= 2 نونبر 1578. وسيرى هذا الموقع سفارةً أخرى تأتي من ملك بورنو في أواخر عام 990= يناير 1583 (16).

وبعد أن عرفنا عن المكان الذي كان مصرعا لسعيد الدغالي نذكر أن التاريخ المرشح عندي لهذا الحدث كان هو أواسط شهر شعبان من عام 986= أكتوبر 1578، أي قبل أن يستقبل المنصور السفارة البرتغالية الإسبانية سالفة الذكر...

ولْنعد بعذ هذه الجولات في محيط سعيد الدغالي، لنتساءل عن "المؤامرة"، وهل إنه كان فعلاً يدبر انقلابا؟ إن الذين يتتبعون هذه الفترة القلقة من تاريخ المغرب السَّعْدي لا يسعُهم إلا أن يقبلوا هذه الأطروحة بسهولة، لأن الدولة المغربية كانت تعيش في تلك الفترة بين السندان والمطرقة كما يقولون، فهي من ناحية لا تريح الذين يوجدون شرقها وهم الأتراك الذين كانوا يهدفون لتركيع المغرب، ويتربصون الدوائر بحكام المغرب الذين كانوا يقفون حجر عثرة دون اجتياح بلادهم وضمهم إلى الإمبراطورية العثمانية الواسعة! ونظرة سريعة في التاريخ الدولي للمغرب وفي العمل الدبلوماسي الذي كان يقوم به السعديون من أجل الحفاظ على كيانهم من جهة وصرف العثمانيين عنهم من جهة أخرى، أقول نظرة سريعة تجعلنا نقتنع بفرضية الأطروحة

ولابد لنا هنا من الإشارة إلى الرسالة الخطيرة التي أوردها الكونْت دوكاسْتري في موسوعته المعنونة بـ «مصادر لم تُنْشر من تاريخ المغرب» (S.I.H.M) في المجلد الثالث من السلسلة الأولى، هذه الرسالة التي بعثها لويس دي هيريرا Louis De Herara من سَبْتَة بتاريخ 13 غشت 1578 إلى الملك فيليب الثاني والتي جاء فيها أن القائد التركي لجنود المنصور كتب إلى باشا الجزائر يعلمه بأن الوقت قد حان لاحتلال المغرب وتحقيق رغبة السلطان العثماني (17) الأمر الذي ستفسره عبارة "تثاقل المنصور عن مراسلة السلطان مراد الثالث هذه العبارة - وردت في التآليف المغربية... وإن نظرة

سريعة كذلك في التاريخ الذي يربطنا بإسبانيا يجعلنا نقتنع بما كان يقوم به السعديون إزاء الإسبان من مدافعات ومصانعات حتى لا يسلّموا في جزء من ترابهم وحتى لا يمكنوا الإسبان من تحقيق أطماعهم التي لم تكن تقف عند حد لاسيما وهؤلاء يجثمون على صدورنا في سَبْتَة ومَليلية ويهددون بإرسال صنائع للتشغيب ضد السعديين.

فإذا أضفنا إلى تهديد آل عثمان وأطماع الإسبان، العنصر المهم في الموضوع والذي ينبغي أن لا ننساه هو طموح بعض القادة الموريسْكيّين الذين صعب عليهم أن يندمجوا في الحياة المغربية ويصبحوا معها مرؤوسين لا رؤساء، تابعين لا متبوعين خاصة بعد أن تبوأوا مناصب حساسةً في الدولة المغربية أمسوا معها يؤمنون بأنهم الإطار الذي لا يستغنى عنه.

أمامنا في تاريخ المغرب حالات قادةٍ سبقوا الدغالي، وقادةٍ آخرين جاءوا من بعده وتمكنوا وفرعنوا وفرزنوا [18] وأصبحوا ينظرون إلى من فوقهم وكأنه غير أهل للحكم فلم يشعروا إلا وهم أثر بعد عين، وتبخرت الأوهام التي كانت تساورهم.

عندما يصل القائد أيّ قائد إلى هاجس تخطّي الحدّ الأحمر، وعندما يتجاهل القائد الحس المرهف الذي يتوفر عليه من فوقه فيما يتصل بالحكم والقيادة، هنا تقع الكارثة! والتاريخ شاهد على ما نقول عبر العصور.

تقول الحكمة السائرة هناك إشاعتان يسهل تصديقهما من شخصين اثنين الزوجة عندما يبلغها أن زوجها يفكر في الزواج عليها بأخرى، والملك عندما يطرق سمعه أن آخر يدبّر لتولي الحكم مكانه.

ولنبقَ مع الموريسكيّين إن كلنا يعلم عن المشاكل التي عاشها معهم السلطان زيدان ابن أحمد المنصور وابنُه عبد الملك [19]... بل كلنا يعلم عن

المحنة الكبرى التي عاشها الدِّلائيّون معهم والتي اضطرت المجاهد أبا عبد الله العياشي إلى استفتاء العلماء ضد هؤلاء الذين استبدوا بمدينة الرباط وأنشأوا لهم جمهورية ..! وأمامنا فتوى الشيخ العربي الفاسي (من تلامذة السفياني سابق الذكر)، وفتوى سيدي عبد الواحد بن عاشر صاحب «المُرشد المُعين على الضّروري من علوم الدين» ضد هؤلاء الموريسكيّين الذين طلب منهم العياشي مساعدتَهم بصنع السلاليم من أجل تحرير المعمورة، فتثاقلوا عن صنعها غشاً للإسلام، وكانت الآصرة بينهم وبين الإسبان متوارثةً من لدن كانوا بأرضهم، فكانوا آنس بهم من أهل المغرب [20].

وأعتقد أنه من هنا نشأت المقولة الشعبية عما كان يوجد بين أهل سلا والرباط من تنافر حيث سمعنا عن تعبير "مُسْلمي الرباط"، وسمعنا عن :"لو تحولت الرمال بين سلا والرباط إلى زبيب وتحول ماء بورگراگ إلى حليب لما أصبح السلاوي للرباطي حبيب.

تلكم بعض الإفادات المتعلقة بنهاية الموريسكي سعيد الدغالي... ويبقى علينا مع كل ما نقلناه عن ابن العياشي في مخطوطة «زهر البستان»، يبقى علينا أن نترك المجال للافتراضات الأخرى التي قد تكون وراء الرغبة في تصفية سعيد مما يبقى من السر المكتوم وعند الله تجتمع الخصوم.

ولله درّ لسان الدين ابن الخطيب عندما صاغ عبارةً لو حاول كبار الكتّاب اليومَ أن يصوغوها لما أحكموها مثل إحكام الوزير السفير ابن الخطيب ! فعند معرض حديثه عن الأمير عبد الله بن معاوية بعد أن وصل للحكم، لم يتردد في تصفية سائر القادة الذين كان يتوجس فيهم الطموح، بل إن عبد الله احتال على عمّه فسمّه وتحسّس من أخيه القاسم فأجهز عليه هو الآخر، والتفت إلى ولديه فقتلهما الواحد بعد الآخر.

لقد أشفق لسان الدين ابن الخطيب على القارئ وهو يسمع عن هذه المجازر فختم الخبر بهذه العبارة التي تنم عن ارتياحه من الابتعاد عن الحكم والسياسة، والزهد في الوزارة والسفارة والرياسة، قال :"وسوقُ الملك لا ينكر فيها أمثال هذه البضائع، ومن عوفي فليحمد الله"

مسكينٌ لسان الدين ابن الخطيب لم يكن يعرف وهو يصوغ تلك العبارة أنه بالرغم من ابتعاده عن السياسة وزهده في الرياسة سيتعرض للقتل مخنوقاً، بل أنه سيُخرج من قبره ليشاهده أعداؤه محروقا.

الهوامش

1) «زهر البستان في نسب أخوال سيدنا المولى زيدان» لأبي عبد الله محمد بن العياشي المكناسي المقتول 1139=1726، توجد منه ثلاث نسخ بالخزانة الحسنية 3274-12119-2044 يقول ابن العياشي إنها عُجالة عن أخبار قبيلة سفيان بطْن من بطون اثبج بن ربيعة... وخبر انتقالهم من الحجاز إلى بلاد المغرب... وإنه أي ابن العياشي خص حي سفيان بالذكر لما لهذا القبيل من فضل خؤولة الطلعة السنية... مولانا زيدان. عن فهارس الخزانة الحسنية ج II إنجاز محمد عبد الله عنان - عبد العالي لمدبر - محمد سعيد حنشي، إشراف أحمد شوقي بِنْبينْ مدير الخزانة الحسنية، المطبعة الملكية - الرباط 1421=2000.

2) ج 8 ص 42-142 رقم الإيداع القانوني 1986/25 - مطابع فضالة المحمدية.

3) عبد الهادي التازي «القبائل العربية بالمغرب»، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، مارس 1997.

4) AL-QANTARA, VOL. V, 1984 FASC 1 Y P. 169.

وأشكر بهذه المناسبة الزميلة الدكتورة أمينة اللّوهْ على ترجمتها لما أنجدتني به في الوقت المناسب الزميلة الأستاذة مارية خيسوسْ فيگيرا - وانظر مجلة البحث العلمي

ترجمة قامت بها الدكتورة أمينة لبحث آخر للأستاذة ميرْسيديس، عدد 14، 1984، ص 113.

5) «ذيل وفيات الأعيان» المسمّى «دُرّة الحجال في أسماء الرجال»، تأليف أبي العياشي أحمد بن محمد المكناسي الشهير بابن القَاضي (ت 1025)، تحقيق محمد الأحمدي أبو النور، جزء 1 ص 205. دار التراث القاهرة - المكتبة العتيقة تونس 1390-1970.

6) تعبير دخيل يعني الثائر وقد عربه المحقق إلى الروقي بالقاف بينما تحتفظ مخطوطة «زهر البستان» بكلمة الروڭي بالكاف المعقودة.

7) عبد الله گنون «مناهل الصفا»، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس بمساهمة المركز الجامعي للبحث العلمي وإشراف معهد مولاي الحسن للبحوث - المطبعة المهدية تطوان 1384=1964 - مطبوعات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية والثقافة، دراسة وتحقيق د، عبد الكريم كرِيِّم 1972.

8) الإشارة إلى الرسالة التي يخاطبه فيها مولاي عبد الملك بقوله :"إن سطوتك قد ظهرت في خروجك من أرضك، وجوازك العدوة فإن ثبت إلى أن نقدم عليك فأنت نصراني حقيقي شجاع، وإلا فأنت ابن يهودي (هذا تعبير أيضا لمؤلف مجهول في كتاب تاريخ الدولة السعدية 1353 - نشر كولان مطبوعات 1934 معهد العلوم العليا المغربية). ومن المعلوم أن مولاي عبد الملك كان يحاول تجنب الصدام وإراقة الدماء فعرض على الملك دون سباسْتْيان اللجوء إلى القضاء الأمر الذي تكشف عند المكاتبات الدبلوماسية التي سبقت هذه المراسلة الساخنة والتي كانت تحمل تاريخ 17 جمادى الأولى 986=22 يوليه 1578.

عبد الهادي التازي «التاريخ الدبلوماسي للمغرب»، ج 8 ص 102، رقم الإيداع القانوني 1986/25، مطابع الفضالة - المحمدية.

9) تضاربت الأخبار عن أسباب المرض وفي الرواة من عزاه إلى عملية تسميم دبرها الأتراك بواسطة عملائهم للتخلص من العاهل المغربي...

10) تذكر بعض المصادر الألمانية نقلا عن الأتراك أن مولاي عبد الملك مات متأثراً بفرحة النصر

11) نرى من واجبنا أن ننوّه بالعمل الجليل الذي قام به الأستاذ محمد الفاسي رحمه الله، لضبط فنّ المَلْحون وسنّ مصطلحات وقواعد لكتابته، والذي صدر منه لحد الآن عن أكاديمية المملكة المغربية ستة كتب أسهمت جيداً في التعريف بهذا التراث المغربي الجليل.

12) محمد الفاسي معلمة الملحون ، الجزء الثاني، القسم الثاني، ص 252-256-258، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، سلسلة التراث 1986-1987-1990-1991-1997.

13) من رسالة خطية للأستاذ الشيخ الحاج أحمد سُهوم، وهي بدون تاريخ.

14) رحلة ابن بطوطة المسماة «تحفة النظّار»، تقديم وتحقيق عبد الهادي التازي. مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، سلسلة التراث 1417=1997، ج 4 ص 347، تعليق 115. رقم الإيداع القانوني 1997/321.

15) القاضي عياض «ازهار الرياض» III، 196-197.

16) عبد الهادي التازي، «التاريخ الدبلوماسي للمغرب»، ج 8، ص 109-235، رقم الإيداع القانوني 1986/25، مطابع فضالة - المحمدية.

17) دوكاستري، المغرب - إسبانيا أولى ج 3 ص 453-456.

18) التعبير آتٍ من ثقافة الشطرنج، يقول ابن شرف القيرواني

خلت الدّسوتُ من الرخا خ ففرزت فيها البيادق !!

19) عبد الهادي التازي، «التاريخ الدبلوماسي للمغرب»، ج 8، 109-288-310.

20) الناصري «الاستقصا»، ج 6 ص 75 طبعة الدار البيضاء.

من الامير علي ابن مولانا امير المسلمين ابي سعيد ابن مولانا امير المسلمين ابي يوسف يعقوب بن عبد الحق ايدهم الله تعلى بنصره وامدهم بمعونته وعضده, ويسره الى السلطان الاجل الاسنى الشهير الاضخم الافخم الصادق الوفي دون جاقمه ملك ارغون وبرجلونة وسردانية وقرصغة وقمط برجلونة وفقه الله وارشده اما بعد حمد الله تعلى والصلاة على سيدنا ومولانا محمد رسوله الكريم ونبيه المصطفى وعلى اله واصحابه اعلام الاسلام وايمة الرشد والهدى وصلة الدعاء لحضرة مولانا ايده الله تعلى بدوام النصر الاعز واطراد الفتح الاسنى فانا كتبناه اليكم من حضرة مولانا نصره الله تعلى بمدينة فاس حرسها الله ولا ناشي بفضل الله وحده وبركة مولانا والى الله تعالى نصره وعضده الا خيرات تنسكب كالمطر وتنسحب على البشر وتقضي بعادة النصر والظفر وسعادة الورد والصدر والحمد لله رب العالمين على ذلك حمدا ييسر كل امل ووطر والى هذا ارشدكم الله تعلى فانا نعرفكم بوصول كتابكم ووقفنا عليه وعلمنا ما ذكرتموه من طلبكم منا التوسط عند مولانا ايده الله تعالى في ان يعينكم بمائة فارس من النصارى برسم الحركة معكم الى جزيرة سردانية ونحن نعرفكم انه لو طلبتم الاعانة بجميعهم من بني عريب اعزهم الله تعالى ووفرهم لامددناكم بذلكم ويسرنا فيه جملة امالكم كما تقدمت بذلك عوايد اسلافنا الكرام مع الملوك امثالكم مثلما فعل معي ملك قشتالة دون شانجه حين احتاج الى اعانتنا اياه واما النصارى الذين طلبتم فلا يمكن توجيههم لانه لم تجر به عادة ولم يمكن في ذلك الخروج عن المعتاد ولا العدول عنه لا في الاصدار ولا في الايراد فاعلموا ذلكم وتيقنوه هنالكم والله تعلى يرشدكم وكتب في يوم الاثنين الخامس من شهر ربيع الاول المبارك الذي من عام ثلاثة وعشرين وسبعماية عرف الله تعلى خيره وبركته ويمنه بمنه لا رب سواه ولا معبود الا اياه

صح ذالك

من عبد الله سليمان امير المسلمين ابن الامير ابى عامر ابن امير المسلمين ابى يعقوب ابن امير المسلمين ابى يوسف بن عبد الحق ايده الله بنصره ووالى يمنه وظفره الى الملك الاجل الاعز المكرم الاصدق الاوفى الاضخم الاسنى الاكمل دون حاقمه ملك ارغون وما اليه من البلاد النصرانية الهمه الله الى الرشاد ووفقه الى السداد وبعد حمد الله تعالى والصلاة التامة على سيدنا ومولانا محمد رسوله الكريم المصطفى وعلى اله وصحبه اعلام الاسلام وايمة الرشد والهدى وصلة الدعاء لهذا المقام الكريم بالنصر الاعز والفتح الاسنى فانا كتبناه اليكم نصركم الله بالتوفيق وقادكم الى انهج الطريق من حضرتنا بمدينة فاس حرسها الله ولا جديد بيمن الله تعالى وبركة هذه الايالة السعيدة المباركة خلد الله ذكرها ووالى يمنها ونصرها الا الخير الاتم واليسر الاعم والحمد لله على ذلك كثيرا والى هذا هداكم الله لكل عمل مشكور ويسركم لكل فعل ماثور فانا نعرفكم بما نوجبه لجانبكم من الايثار ونكمله لمحلكم من الاعتناء الدائم الاستمرار ولكم لدينا من تيسير المقاصد وتسهيل الاوطار عملا بما يقوم اسباب الاعتقاد ويوكد وجوه الحب والوداد وبحسب ذالكم نعرفكم بانه كان وصل الينا رسلكم جزبرت وقرر من ودكم ومرضى قصدكم ما اوجب لكم زيادة الشكر والثناء وضاعفنا لكم بحسبه جميل الاحتفاء ثم ذكر ما عندكم من التتمم باوطارنا ولديكم من الجرى على وفق مرادنا واختيارنا وكل ذالك مما يليق بمنصبكم ولا ينكر على مشكور حبكم وقد كنا ربطنا مع رسلكم المذكور كل ما يجب ربطه ويحق التزامه وشرطه وقررنا ان تلك الاجفان التى يرد بها من جهتكم لم يصل بها الا برسم خدمتنا ولم يتصرف الا فيما يعود بوفق غرضنا وامنيتنا كما ذكر ذلك الينا وشرحه لدينا فاسعفنا مطلبه بحسب ذلك في كل ما اراد من ترك الثلث لتجاركم في جميع ما لنا من البلاد وفى اعطاء الزرع الذى طلب منا وامل ان يصدر به عنا على جهة الاحتفال بكم والاكرام وصرف اللحظ لكم والاهتمام فاذا هو اشتغل بما يعنيه وما له الفايدة فيه من حصر بلاد ابن الاحمر وشر الغارة عليها بكل الورد والصدر وارتكب النقيض في كل الاحوال وصار يخالف ما كنا نامره به من الاعمال من كونه نزل على الجزيرة وهتك ما لها عندنا من الحرمة الخطيرة وكنا امرناه ان يقلع عنها ولا يتعرض لانتجاع شيء مما هو منها فلم يمتثل لنا في ذلك امرا ولا كمل لنا فى احترامها قصدا ولا وطرا وتعلمون ان الجزيرة المذكورة ممن توفى فيها جدنا رحمه الله وبها الى الان قبره ولها على من سوا بذالك شفوف لا يجهل قدره ولا يخفى عنكم ما فى هذا مما لم يسلك فيه طريق المجاملة ولا حسن المحاولة وقد كان تسور بيننا وبين ابن الاحمر شنان كما علمتم وكما جرت العادة ان يتسور بينكم وبين اهل ملتكم واذا هو قد بعث الصالحين والمرابطين واهل الدين لطلب المصالحة وعقد اسباب المواصلة والمصافحة فلم يمكنا الا ان اسعفنا فى ذلك مطلبه وكملنا فيه قصده ومأربه توفيا لما يجب من حق الاسلام ويلزم من تتميم واجبه على الدوام كما انه لو وقع بينكم انتم وبين اهل ملتكم شنان ودخل بينكم وبينهم من يزيل ذالك لا ازلتموه فى اقرب اوان واجبتم له كل الاجابة وانبتم له اتم انابة ولم نصدكم عنه ولم نمنعكم منه ثم ان رسلكم جزبرت المذكور بعث لنا رسلا من قبله برسم طلب ترك الثلث المذكور والزرع الذى كنا امرنا له به فعجبنا من طلبه لهذا الشان وهو قد ضرر منه ما بينا لكم كل البيان فاعرضنا فى ذلك عن مطلبه ولم نسعفه فى مأربه فانه لو كمل ما وقع عليه الاشراط ونزل الحد فيما ربطنا معه كل الارتباط لما صدر له منا تعسف ولا بدا (sic) له منه فى كل وجه فيه توقف وان كان وهذا قد اتفق شانه وصح دليله وبرهانه فودنا لكم لم يتغير ومورد حبنا فيكم لم يتكدر بل الاعتقاد باقيا على ما تعهدون والاعتناء بكم كما ينبغي ان يكون وتجاركم لم يزالوا فى بلادنا مكرمين مبرورين على عوايدهم معاملين بالرعى التام فى جميع مصادرهم ومواردهم لا تخرق لهم عادة ولا تزاد عليهم زيادة اعتناء بجانبكم وتتميما لاغراضكم ومذاهبكم فثقوا بذالكم واتفقوا على ما عندنا من حفظ عهدكم هنالكم والله يلهمكم لما يسنى مرادكم ويمضى سدادكم ورشادكم وكتب فى الرابع والعشرين لشهر ربيع الاخر عام تسعة وسبعماية

وكتب فى التاريخ

من عبد الله عامر امير المسلمين ابن الامير ابى عامر ابن امير المسلمين ابى يعقوب ابن امير المسلمين ابى يوسف بن عبد الحق ايده الله بنصره وامده بمعونته ويسره الى سلطان ارغون وبلنسية الاجل الانجد المبجل الارشد الارفع الاوفى الافخم الاضخم جاقم اتاحه الله تعلى له توفيقه وارشاده وجعل على تقواه التى تعتد بها الخلق اعتماده اما بعد حمد الله تعلى والصلاة التامة على سيدنا محمد نبيه الكريم ورسوله المجتبى وعلى اله وصحبه الطيبين الطاهرين اعلام الاسلام وايمة الهدى والدعاء لهذه الايالة العالية العامرية السمية بالنصر الاعز والفتح الاسنى فانا كتبناه كتب الله لكم تقدما فى العمل المحظى بالسعادة وترمما فى من فاز بالحسنى فى سابق الارادة من حضرتنا بمدينة فاس حرسها الله تعلى عن الخير الاتم واليسر الاعم والحمد لله رب العلمين *(sic)* كثيرا والى هذا وصل الله ارشادكم واجزل من خيره مستفادكم فانه وصلنا كتابكم فتلقيناه بالقبول وقابلناه بالاعتناء الموصول طلبتم ان توجه لكم خديمنا القائد الاحد برناط سجين الى هنالكم ورغبتم منا اشد الرغبة فى ذلكم ليقع اجتماعكم به فيما يفتح بيننا وبينكم ابواب المراسلة ويوكد اسباب المواصلة وقد بعثناه اليكم كما طلبتم ووجهناه رسولا نحوكم حسبما اردتم واصحبناه ثقتنا الشيخ الاجل الاجد الانصح ابا العباس ابن الكماد الترجمان اعزه الله تعلى فصدقوهما فيما توجها به عنا مما القيناه لهما فى شان العمارة فى البحر وخذوا معهما فى ذلكم اخذا يقضى لرغبائكم كلها لدينا باليسر وكملوا ما توجها لكم به من المقاصد واعملوا فى ذلكم عملا يعود على بلادكم من بلادنا باجمل العوايد واعلموا ان لدينا من رعيكم وكريم كم ما سلكنا فى الد. . المراشد وا [شرتم] فى كتابكم الى ان [يبقى] هنا على جماعة القائد برناط شجين رسولكم بير شما [نيس] الى ان يعود برناط شجين من قبلكم وقد عملنا بحسب اشارتكم فى اقامة بير شمانيس على الجماعة تتميما لمطلبكم ووقوفا مع أربكم فاعلموا والله يصل ارشادكم ويوالى اسعادكم بمنه وكرمه لا رب سواه ولا معبود الا اياه وكتب فى الموفى عشرين لشهر ذى القعدة المبارك عام سبعة وسبعماية

وكتب فى التاريخ

من عبد الله يوسف امير المسلمين ابن امير المسلمين يعقوب بن عبد الحق ايده الله ونصره واسعد اصاله وبكره الى الملك الاصدق الاوفى الاشهر الانجد دون جاقمه ملك ارغون الهمه الله الى الرشاد ووفقه الى السداد وبعد حمد الله تعالى والصلاة التامة المباركة على سيدنا محمد رسوله الكريم المصطفى وعلى اله وصحبه الطيبين الطاهرين اعلام الاسلام وايمة الرشد والهدى وصلة الدعاء لهذا المقام الكريم بالنصر الاعز والفتح الاسنى فانا كتبناه اليكم بحركم الله بكل ما يصلح الاحوال ويبلغ الامال من حضرتنا السعيدة بتلمسان الجديدة كلاها الله ولا جديد بيمن الله تعالى الا الخير الاتم واليسر الاعم والطول الجزيل الهامي الديم والحمد لله كثيرا والى هذا ارشدكم الله واجرى اموركم على ما يوافق الاغراض والمراد وسنى به الخير الذى لا يزال فى ازدياد فانا نعرفكم انه تقدم لكم الكتب قبل هذا بايام قلائل فى شان ما كتبتم به من انكم لا تكملون صلح مع صاحب غرناطة ولا مع صاحب قشتالة الا بعد الموافقة منا على ذلك لاجل ما تصور بيننا وبينكم من المجاملة والمساعدة فى جميع الامور وما علم من ذلك عند الخاصة والجمهور والان لما تاكد عندنا من مشاركتكم فى الاحوال التى يتسنى للجميع بها الخير فى الحال والاستقبال نعرفكم بان الخنّاق صاحب سبتة ترتب لنا عنده مابة الف دينار من الذهب فى هذه السنين السالفة وهى الواجبة عليه المعتادة فلما طلبت منه صار يعاملنا بالتسويف ويعتذر باعذار لا تقبل منه تناسب حمقه ومذهبه السخيف فبعثنا من محلاتنا وجيوشنا وقبائل بلادنا المجاورة لسبتة من يحصرها فى البر اشد الحصار ويذيق اهلها النكال والوبال فى عقد الدار ويستولى على ما فيها من المواضع ويقطع عنها جميع المرافق والمنافع حتى يصيرها واهلها عبرة للدانى والشاسع ونستولى عليها بحول الله فليس فيها مانع ولا مدافع ورأينا ان تامروا جملة من اجفانكم تنزل عليها فى البحر فانها من جهة المينة دون سور ليكون دخولها هينا فى اقرب امد والماية الف التى عليهم لكم فيها ان دخلت بالسيف خمسون الف دينر ولنا خمسون الف دينار فانتم اول [من] نختصه بهذه المنفعة الكبيرة لاجل ما ثبت بيننا من حسن المعاملة وجميل السيرة والقصد بذلك ان يكون فتحها والاستيلاء عليها معجلا فانها اذا حصرت فى البر والبحر كان امرها قريبا مسهلا ونوجه لعمرة اجفانكم فى البر ما يقوم بهم من الزرع للعولة واذا دخلت ان شاء الله فكل ما فيها وعند اهلها من جميع الاشياء لكم فيه اوفر نصيب ونهدمها حتى لا يبقى فيها الا السور وترجع اجفانكم لمكانها ويكون لنا ملك سورها وفعلكم فى ذلك مشكور وان اعطى اهل سبتة المال قبل ان تدخل البلد فلكم فيه ثلاثون الف دينر ولنا سبعون الف دينر وهذه القضية منفعتها لكم ظاهرة وهى احسن من كل ما تتوجه اليه اجفانكم وقد القينا لاخى القائد الانجد برناط سجين وللخديم ابى العباس الطرطوشى صهر ابن الكماد اعزه الله فى ذلك ما يلقيانه لكم على التمام والقصد فى هذا ان يكون توجيهكم للاجفان معجلا قبل ان يدرد الفصل وينقطع البحر فاذا برد الفصل فلا فائدة لتوجيه الاجفان فان الجيش فى البر ياخذها فان عزمتم على هذا فوجهوا الاجفان طال ما هو زمن عومها فى البحر باق واما اذا انفصل زمن الحف فلا تطلبوا منا التوفية لكم بما ذكرنا فى كتابنا الا اذا جددتم حركة اخرى فى زمن الربيع فحينئذ نجدد معكم ايضا من الربط ان بقيت سبتة لم توخذ من البر فخلصوا هذا الامر لجهة وعجلوا الجواب على هذا الكتاب بما فيه الخير ان شاء الله والله يجرى الامور على وفق المراد بمنه وكتب فى عقب شهر ذى قعدة عام ثلاثة وسبعماية

وكتب فى التاريخ

من عبد الله يوسف امير المسلمين ابن امير المسلمين يعقوب ابن عبد الحق ايده الله بنصره وامده بمعونته ويسره الى الملك الاجل الاسنى المكرم الاشهر الاوفى الاحفل دون جاقم ملك ارغون سنى الله ارشاده وشكر خلوصه لهذا الجانب الكريم واعتقاده اما بعد حمد الله تعلى والصلاة التامة المباركة على سيدنا ومولانا محمد رسوله الكريم ونبيه المصطفى وعلى اله وصحبه الطيبين الطاهرين اعلام الاسلام وايمة الرشد والهدى وصلة الدعاء لهذه الايالة العلية بالنصر الاعز والفتح الاسنى فانا كتبناه اليكم من حضرتنا السعيدة بتلمسان المباركة الجديدة كلاها الله تعالى ولا ناشئ بفضل الله وحده وبركة هذا المقام الكريم والى الله بصره وعضده الا الخير الاتم واليسر الاعم والحمد لله على ذلك كثيرا والى هذا سنى الله ارشادكم فانا نعرفكم بوصول كتابكم الاثير تعرفنا منه ما عندكم من الموافقة فى جميع الامور والجرى على المذهب المحمود المشكور والبقاء على ما يثبت ما بيننا من الاحوال التى يتسنى بها الخير الشامل الموفور وذكرتم انكم تكلمتم فى شان صلحكم مع صاحب قشتالة وصاحب غرناطة وان تصحيح ذلك او تمحيله يظهر عند انقضاء اربعة اشهر كما ذكرتم وان كاتبكم الذى توجه من هنا القى لكم جميع ما القيناه له من الكلام على الكمال والتمام وانكم اخذتم ذلك بالقبول وقد تقرر من وفائكم لدينا ما الشكر بسببه موصول وعرفتم ان صلحكم مع صاحب غرناطة لا يكون الا بموافقتنا ونحن نعرفكم انكم ان اردتم الصلح معه فنحن نشترط لكم عليه ما يوفى به على احسن وجه مما يكون مصلحة للجميع وسببا لكل ما يثبت به التاصيل فى الخير والتفريع وقد وصل الى هنا من وصل من بنى مرين اعزهم الله الذين ببلادكم واثنوا عليكم ثناء جميلا وذكروا ما اوليتموهم من الكرامة التى اوجبت لكم منا رعيا جفيلا وتعلمون انهم تركوا اولادهم وعيالهم بغرناطة واقتضى نظرنا ان يعودوا اليها ليجوزوا الى هنا من الاندلس باولادهم ومن معهم لما فى ذلك من المصلحة التى تشمل جميعهم والغرض ان يكون انفصالهم عنكم خير الانفصال وان تولوهم من الاعتناء بهم والتيسير لمطالبهم ما نشكركم عليه [على] كل حال وان تبعثوا الى هنا من خواصكم من يحضر لكلامنا مع الاندلس وغيرهم حتى يعلم الناس ما بيننا من الموافقة والمجاملة بحول الله تعلى وهو سبحانه يسنى ارشادكم وكتب فى الثامن عشر من شهر ذى قعدة عام ثلاثة وسبعماية

وكتب فى التاريخ

من عبد الله يوسف امير المسلمين ابن امير المسلمين يعقوب بن عبد الحق ايد الله امره واعز نصره الى السلطان الاجل الاسنى الشهير الانبل الاحظ الاوفى المكرم المشكور النهض الانجد دون حاقم سلطان ارغون وما اليها من البلاد والاقطار ابن السلطان الاجل الاشهر الانبل الاحظ المكرم الانجد الحسيب دون بطر وصل الله فيما يرضى من الافعال الجميلة اهتمامه وانتهاضه ويسر لدينا بحسب ذلك اغراضه اما بعد حمد الله تعلى والصلاة التامة على سيدنا ومولانا محمد نبيه المصطفى وعلى اله وصحبه الكرام اعلام الاسلام وايمة الرشد والهدى وصلة الدعاء لهذه الايالة العلية المرينية المويدة بدوام النصر الاعز والفتح الاسنى فانا كتبناه اليكم من حضرتنا السعيدة بتلمسان الجديدة مهدها الله ولا ناشى بفضل الله الا توالى السعد المساعد وقهر كل عدو ومعاند والله يصل ذلكم ويجرى فيه على اجمل العوايد بمنه والى هذا جعل الله عزمكم فيما يوافق وقرنه بالاعتناء المطابق فانا نعرفكم بوصول كتابكم الاثير صحبة كاتبكم وخديمكم غرسيس لشبيل انجده الله تعلى تعرفنا منهما ما عندكم من حسن المجاملة ومشكور المساعدة والمواصلة والمحافظة على ما يتسنى به الخير من الائتلاف بمشكور المحاولة وعندنا لكم اضعاف ذلكم فثقوا به وابتهجوا بسببه وذكرتم في كتابكم انا نصدق كاتبكم المذكور في كل ما يلقيه الينا عنكم وينصه علينا مما تتحققه من ادنكم وقد القى لنا كل ما القيام له على الكمال والتمام وسلك في ذلك مسلك النبهاء العقلاء من الخدام وقد اصبتم في توجيهكم مثل ذلك الشخص الانبل الذى سعى في كل عمل مرضى وخير جزيل وكل ما القى لنا شكرنا فيه قصدكم وعلمنا منه ما عندكم ووصل صحبة الجمعى الذى بعثتم واوليناهم من الاكرام والاعتناء فوق ما املتم وقصدتم ومنه تتعرفون شرح ذلك على احسن الوجوه وقد القينا له ما يلقيه الايكم من جزيات الاحوال وبينا له في ذلك كل مقال ولبس الا ما تغتبط بسـ[ببه] وتشكرون جميل مذهبه وقد وجد هنا كاتبكم المذكور رسل صاحب غرناطة حفظه الله ووقع الكلام بمحضرهما فيما يصلح الاحوال ويسنى للجميع الخير الدائم الاتصال وكان [الاتفاق على ان] تكون الهدنة بينكم حتى يعود من قبلكم [كاتبكم] ويقع اجتماعه هنا بمن يصل من غرناطة الامور على اوفق اسباب ويتسنى الخير بحيث لا التباس ووصل الينا ارسـ[ال بنى] مرين الذين هنالكم في بلادكم اعزهم الله وعرفونا [بما] صدر منكم لهم من الخير الذى يناسب منصبكم الكبير ومثل ... النصارى ... الفعال ... اذا حلوا ... ويبادر لما بكم له لديه ..... جميع مراده وشكرنا لكم ذلكم مثل ... وتناولوا لا ينفصل و ... وقع الكلام مع كاتبكم في مسائلهم بما ... بلادكم وامرنا رسل صاحب غرناطة ... وعيالهم بما ينتهى اليكم والله يسدد اراءكم بمنه وكتب في الخامس عشر لشهر شعبان المكرم عام ثلاثة وسبعماية

وكتب في التاريخ

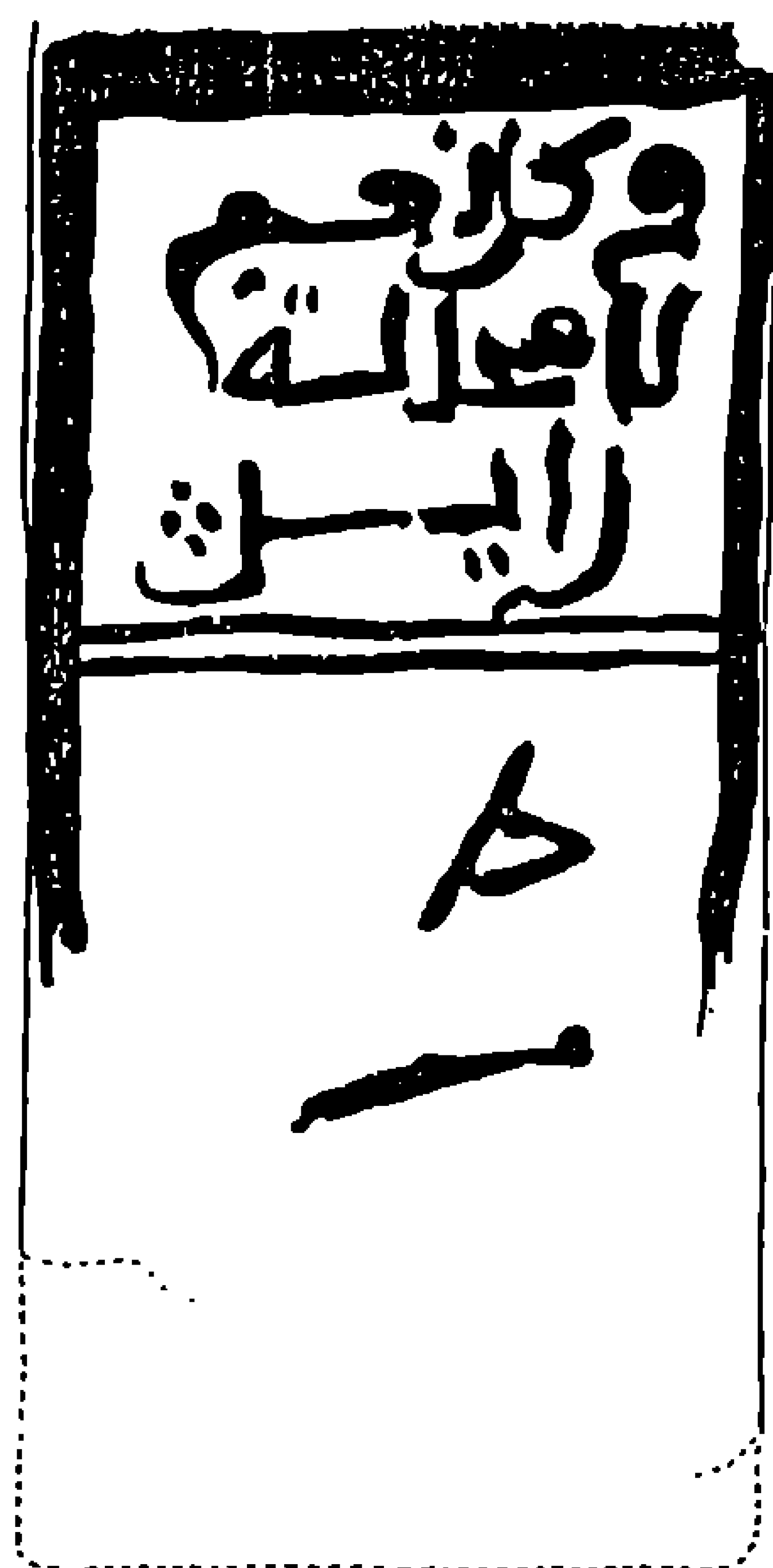




FIG. 715. Cerámica bizcochada de Simat de Valldigna (Valencia), perteneciente al siglo XV. *Socarrat* de 15 × 19 cm., decorado con la siguiente cita alcoránica: *...de la malicia de las tinieblas de la noche cuando vienen* (sobre nosotros), *y de la malicia de las* (hechiceras) *que soplan sobre los nudos...* (Qur'ān, CXIII, 3 y 4)

Cerámica bizcochada de Simat de Valldigna (Valencia), perteneciente al siglo XV. *Socarrat* ... 29 cm., decorado con la siguiente cita alcoránica: *Todo bienestar acaba sin remedio*





FIG. 717. Cerámica bizcochada de Simat de Valldigna (Valencia), perteneciente al siglo XV. *Socarrat* de 15 × 29 cm., decorado con la siguiente cita alcoránica: *La inquietud es el comienzo de la angustia*



FIG. 716

Cerámica bizcochada de Simat de Valldigna (Valencia), perteneciente al siglo XV. *Socarrat* de 15 × 29 cm., decorado con una leyenda árabe ilegible



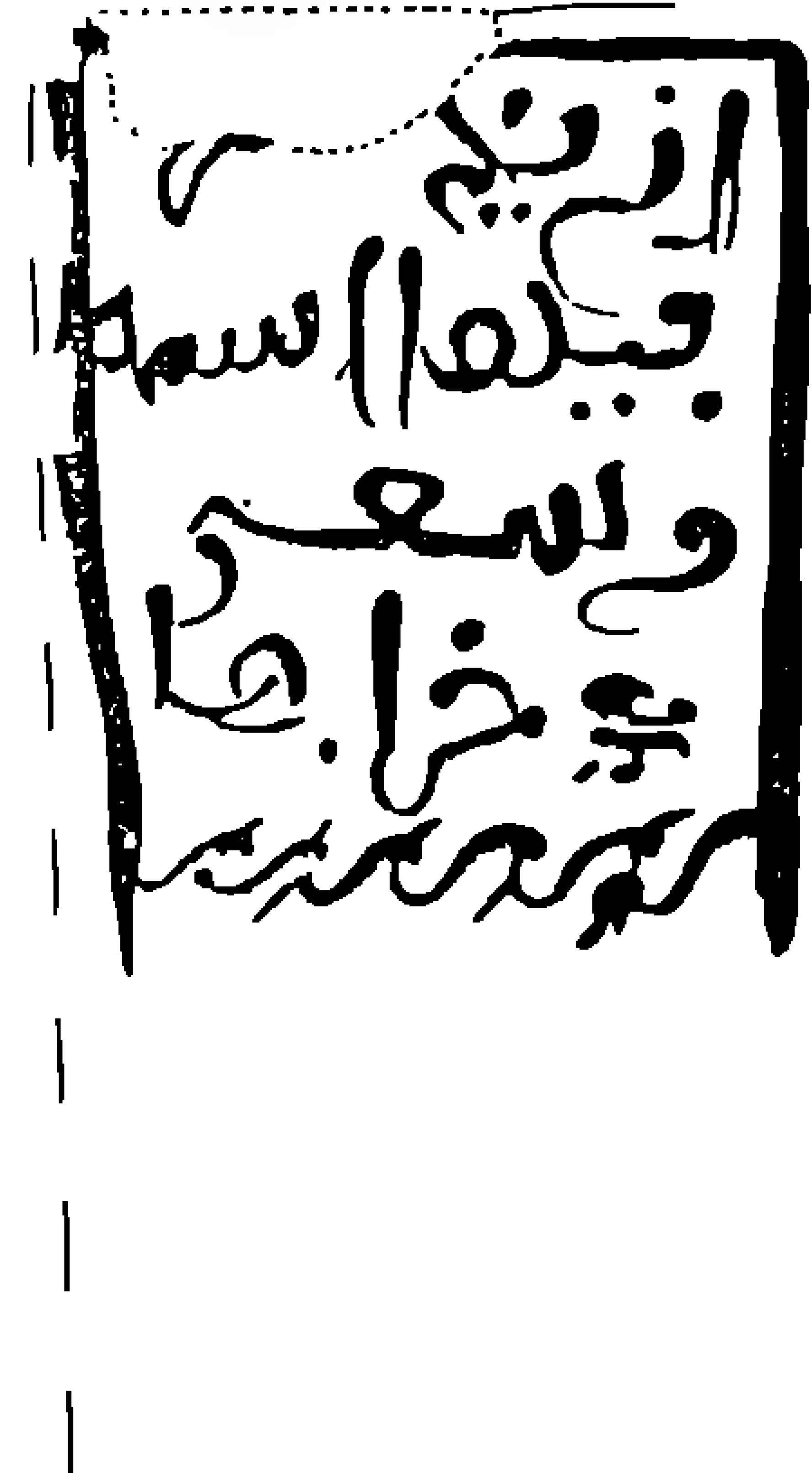
[illegible]709. Cerámica bizcochada de Simat de [illegible]digna (Valencia), perteneciente al siglo XV. [illegible]rrat de 15 × 29 cm., decorado con la siguiente cita alcoránica: *No hay fuerza ni poder más que en Alá, el Alto, el Grande*



FIG. 709. Cerámica bizcochada de Simat de V[illegible]digna (Valencia), perteneciente al siglo XV. Soca[illegible] de 15 × 29 cm., decorado con la siguiente cita a[illegible]cánica: *Bendito sea Aquel en cuyas manos est[illegible] Reino y tiene potestad sobre todo.* (Qur'ān, LXVI[illegible]



FIG. 710. Cerámica bizcochada de Simat de Valldigna (Valencia), perteneciente al siglo XV. Socarrat de 1[illegible] × 29 cm., decorado con la siguiente cita alcoránica: *¿Y quién es más perverso que los que impiden que en las mezquitas de Alá se mencione Su nombre e intentan la ruina de las mismas?* (Qur'ān, II, 108)



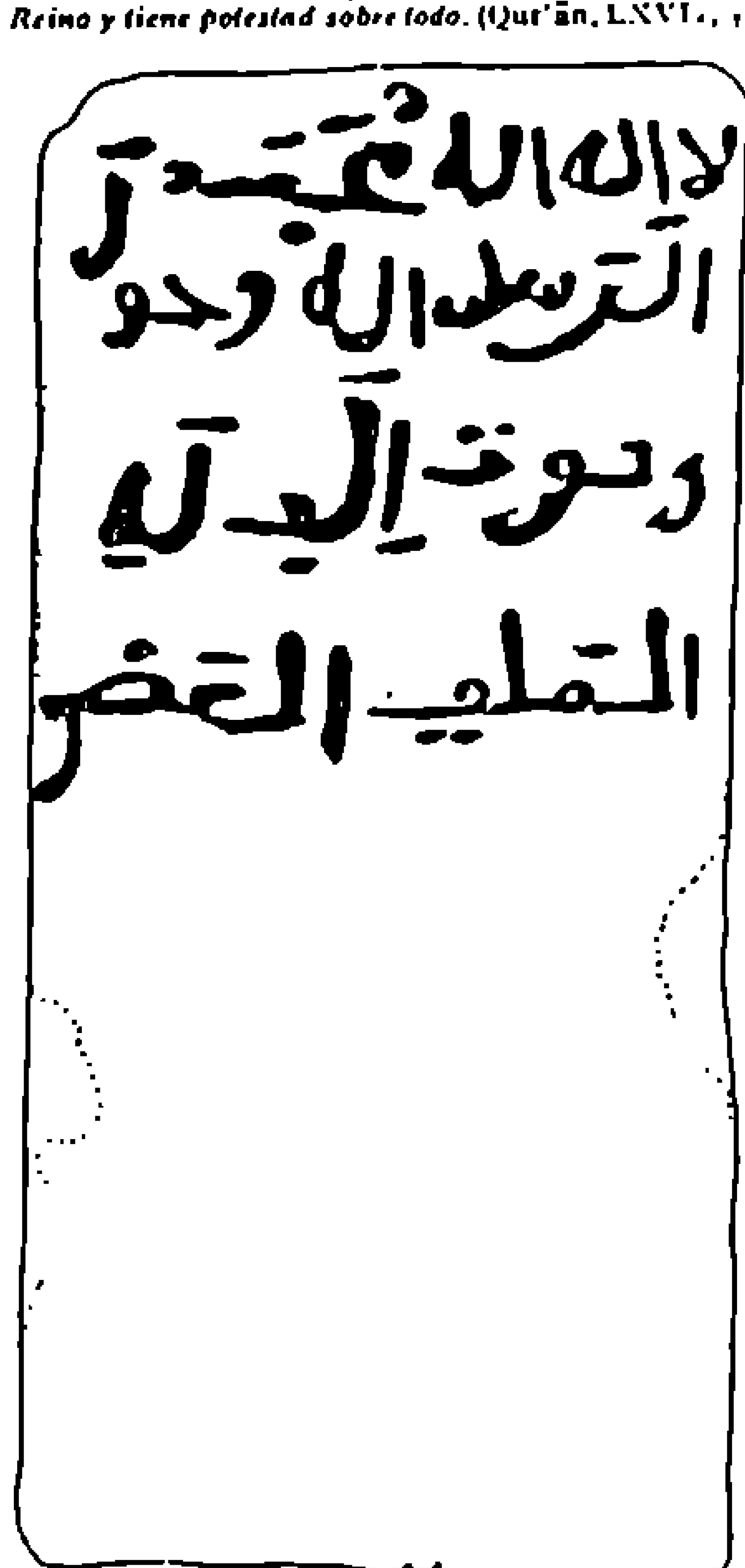


FIG. 712. Cerámica bizcochada de Simat de Valldigna (Valencia), perteneciente al siglo XV. *Socarrat* de 15 × 19 cm., decorado con la siguiente cita alcoránica: *No hay más dios que Alá. Mahoma es el enviado de Alá. No hay fuerza ni poder sino en Él, el Alto, el Grande*

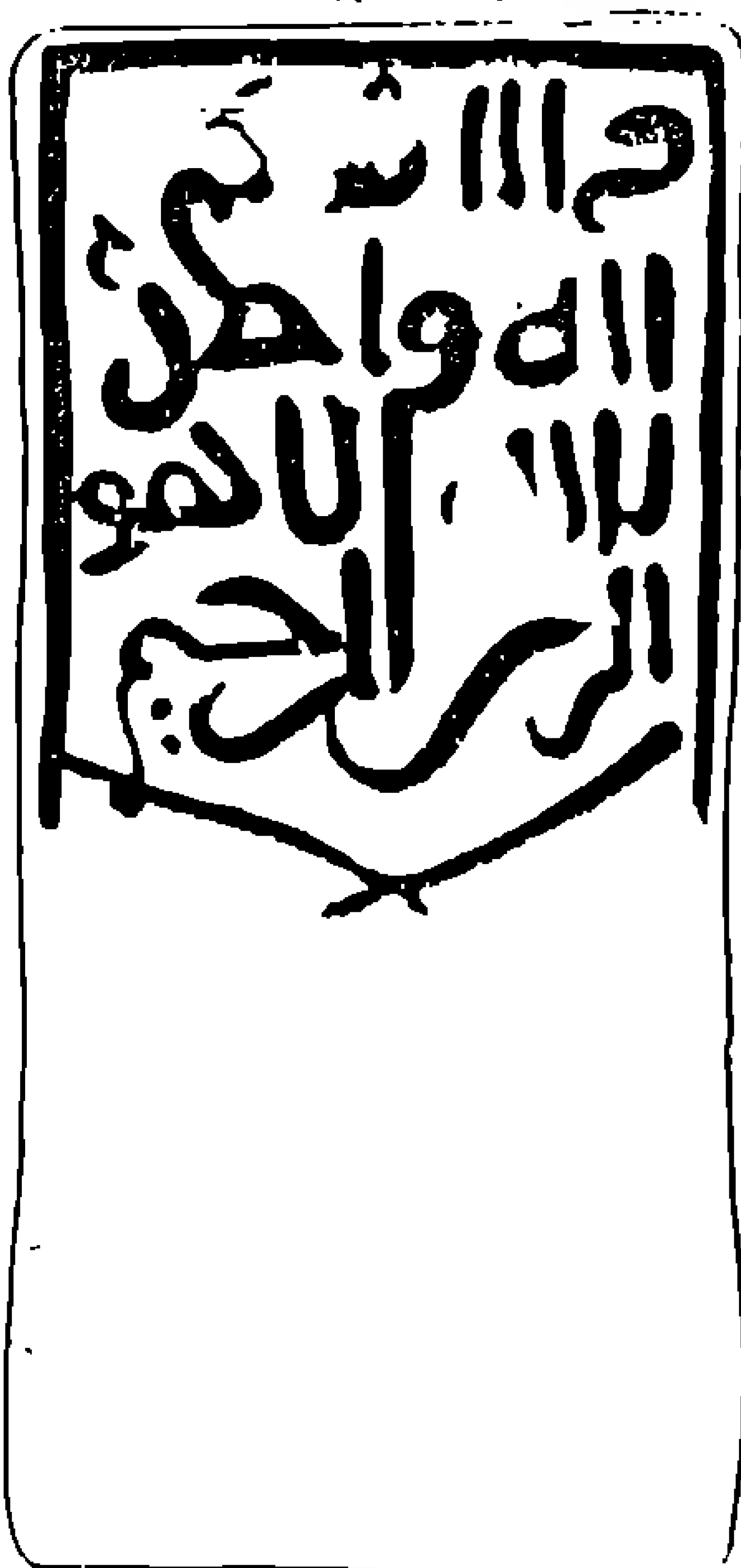


FIG. 713. Cerámica bizcochada de Simat de [illegible]digna (Valencia), perteneciente al siglo X[illegible] [illegible]rrat de 1[illegible] × 29 cm., decorado con la cita alcoránica: *Vuestro dios es el Dios Único. No hay más dios que Él, el Clemente, el Misericordioso.* (Qur'ān, II, 158)

MORA CAÑADA, Adela : Monjes y campesinos El señorío de la Valldigna en los siglos XVII y XVIII, Alicante, 1986.

RIBERA, Julian Los ladrillos moros de Xara" Bolelin dc la Real Academia de la Historia, XV, 1890.

SANCHIS SIVERA, J Nomenclator geográfico-eclesiástico de los pueblos de la diócesis de Valencia, Valencia, 1922.

SARTHOU y CARRERES, C: Geografía Ceneral del Reino de Vàlencia, Tomo II Provincia de Valencia, Barcelona.

SOLER y PÉREZ, Eduardo: "Valldigna y sus iglesias, 111", El Archivo, 1890.

TOLEDO GIRAU, J "Compendio histórico de Simat de Valldigna" Anales del Centro de Cultura Valenciana, 1957.

TORRES BALBAS, Leopoldo "La mezquita de Al-qanatir y el santuario de Alfonso el Sabio en el Puerto de Sta. Maria", Al- Andalus, VIII, 1942.

TORRO, Josep; IVARS, Josep "Despoblados del Pais Valenciano (siglos XIII-XVIII). Para una arqueología del asentamiento agrario", Actas del II Congreso de Arqueología Medieval Española, Madrid, 1987.

VALL VE, Joaquin La division territorial de la España musulmana, Madrid, 1986.

FORT i COGUL, Euremia "Santes Creus i Valldigna" Simat de la Valldigna, 1997

GARCIA-OLIVER, Ferran : "Cistercencs del Pais Valenciá".

2) Los ladrillos identificados se conservan en la Academia de la Historia (3) en el Museo Provincial de Valencia (8), en el Museo Nacional dc Cerámica (14). El resto se encuentra diseminado en propiedades particulares como algunos vecinos de Simat.

BIBLIOGRAFIA

ALEJOS, Asunción "Actuales vestigios de la mezquita valenciana de la Xara", Boletin de la Asociación Española de Orientalistas, XVI,1980.

ALMARCHE VAZQUEZ, F.: Cerámica de Paterna "els socarrats", Valencia, 1926.

AZUAR RUIZ, Rafael; "Las mezquitas en el ámbito rural", Actas las II Jornadas de Cultura Arabe e Islámica Madrid, 1980.

BARCELO TORRES, Carme Toponímia árabiga del Pais Valencià alqueries i castells , Xàtiva, 1982.

BORONAT Y BARRACHINA, Pascual Los moriscos españoles y su expulsión. Estudio histórico-crítico, Valencia, 1901.

CHABAS, Roque "Valldigna. Excursión arqueológico-geográfica" El Archivo, III. 1889. - "las inscripciones arábigas de Simat", El Archivo, IV, 1890.

GARCIA-OLIVER. Ferran El naixement del monestir cistercenc de la Valldigna, Valencia, 1983.

COONZALEZ MARTI, M Cerámica del Levante español, Barcelona,1952.

LABARTA A.; MARCELO, C: "Socarrats valencianos con escritura árabe", AL-QANTARA, VII, Madrid, 1986.

MARIMON, Josefa; BADIA, Angeles El proyecto de restauración del monasterio de Santa María de Valldigna. Aspectos arqueológicos" Actas del 1 Congreso de Argueología medieval Española, Zaragoza, 1, 1985.

Notas

1) Relación entre el número de moriscos y la población total en los reinos peninsulares a finales del siglo XVI.

REINOS PENINSULARES	POB. TOTAL	MORISCOS	PORCENTAJE
CASTILLA	7.000.000	100.000	1,42%
CORONA DE ARAGON			
Valencia	320.000	140.000	43,75%
Cataluña	300.000	4.000	1,33%
Aragón	260.000	60.000	23,07%

(Fuente : Juan Regla *"Introducción a la Histoia de España"*, Valencia, 1962.)

RELACION ENTRE EL NUMERO DE MORISCOS Y LA POBLACION EN LA VALLDIGNA EN EL AÑO DE LA EXPULSION.

	Moriscos	**Cristianos**
Benifairó	85	0
Simat	70	60
Tavernes	400	0
Alcudiola	13	0
Alfulell	22	0
Masalali	22	0
Ombris	43	0
TOTAL	655	60
Porcentaje	91,6%	8,4%

(Las cifras en casas)

Esta penumbra, que se extiende a la totalidad de la Valencia islámica, tiene razones que las explican el deslumbramiento por Europa, que hace desestimar los tramos no occidentales de su historia, y la difícil accesibilidad a la lengua, el àrabe, en la que se comunicaba y manifestaba la comunidad islámica peninsular, y, consecuentemente, los musulmanes de la Valldigna. La etimologia no puede ser más elocuente: "Alluga al arabia", "alfosha", la brillante, la clara, la diáfana se transfolma en los oidos cristianos en un guirigay confuso, en la lengua ininteligible, en algarabía.

Por ello, quisiera concluir con un comentario compartido en torno al bagaje lingüístico que, de una u otra forma, puede estar relacionado con la Valldigna y que, al mismo tiempo, pueda suscitar el interés de los hispanistas marroquíes

1) La propuesta de traducción de algunos ladrillos de la Xara efectuada por el arabista Manuel Ocaña.

2) Seis cartas que forman parte de la documentación árabe conservada en el Archivo de la Corona de Aragón, dirigidas al rey de la Corona de Aragón, Jaime II, y remitidas por sultanes meriníes.

3) La versión de la toponimia árabe de la comarca de la Valldigna.

Barx	Aldaia	Catalina
Drova	Manesa	Marjal
Marchuquera	Benifairó	Alfulell
Rambla	Alcudiola	Masalari
Simat	Mosaira	Bol.lot
Alquenència	Almohá	Xara
Rafol	La Mesquita Vella	Musalla

- La colección de ladrillos con inscripciones árabes que cubrían el alero de la mezquita. Su descubridor, el gran arabista Julian Ribera se sorprendió del *"raro capricho de la suerte de los ladrillos que han conservado deleznables letreros árabigos cuando otros monumentos más dispuestos a resistir las inclemencias del tiempo y de los hombres se han arruinado o desaparecido"* El copió y tradujo unos cincuenta del centenar y medio que se supone recorrián el alero (2), todos, excepto uno, con contenidos coránicos. Uno de los comentaristas del trabajo de Ribera divide los coránicos con un criterio de dudoso rigor lingüístico: lilailas, alhamdos y colúes (lilaila = profesión de fé; alhamdos = la alabanza y colúes = las tres últimas suras del Corán iniciadas por el imperativo del verbo qala — 112 (qul hua allahu ahad), 113 (qul a'udhu birabbi l-falaqi) y 114 (qul a'udhu birabbi nnasi). El ladrillo de contenido no-coránico ha dado pie a especulaciones sobre la defectuosa orientación de la mezqúita (A hakadha tubna l-masadjid wa turfa'a as-salat wa dhdhikr). Años más tarde el arabista Don Eduardo Saavedra propuso una lectura muy polémica de uno de los ladrillos, que dio pie a que algunos historiadores atribuyeran el origen de la mezquita a mediados del siglo XII, concretamente a los años 1144-1145, durante las segundas taifas, cuando se procede al desplazamiento de los almorávides por los almohades (Idjlalan wa Ikraman limulana dhi l-mamlaka Marwan ben Marwan). Por último, en los años cincuenta, Manuel Ocaña propone una lectura del contenido de una serie de ladrillos, tan discutida que no he podido evitar la tentación de reproducirla y comentarla en este foro.

En definitiva la investigación no ha traspasado el umbral de la pura traducción quedando sin contestar aspectos que nos parecen fundamentales para la reconstrucción del tramo islámico de nuestra Historia (arbitrariedad o no de la selección de los textos, interés por destacar aquellos pasajes que más legitimidad aportan a cada una de las actitudes religiosas, etc).

Es cierto que en la Valldigna no se registraron los indicios del "drama morisco", entre otras razones por el escaso número de cristianos viejos en el territorio. Pero tambien aquí su condición islamica ha de ser silenciada. Privados de las mezquitas, obligados a seguir un culto que no entienden y ante el que reaccionan con frivolidad e ironia, exasperando al clero secular encargado de su catequesis, se vieron forzados a refugiarse en el criptoislamismo *(Taqiyya)*. La Xara inicia a partir de 1530 su transformación de mezquita en iglesia.

¿Qué queda cinco siglos después de aquella humilde y fugaz mezquita que se salvó del afán demoledor del Patriarca Juan de Ribera, autor en 1586 de la orden de destrucción de todas las mezquitas ?

- El mihrab, definido por un arco de medio punto, prolongado 3/4 del radio por debajo de su centro. Los dos vanos que flanquean el mihrab recuerdan las mezquitas del Puerto de Santa María y de Almería.

Escasas noticias históricas referentes a los usuarios de la mezquita algún rastro de familias de Alfaquíes, como los Abolarif y los Xixoni, coherente con la preeminencia social del cargo, ya que los Alfaquíes tenian como misión la custodia y administración de la mezquita, sus bienes y rentas, de las que deducian su salario, el coste de los alimentos de los indigentes y partidas destinadas a la propia edificacion y mantenimiento de los oratorios. Y refierencias a una relacion de tierras legadas a la mezquita en 1523, al incidente del que fue victíma el alfaqui Ibrahim abu al Arif en el amanecer del 7 de agosto de 1508, a los procesos inquisitoriales incoados contra moriscos de la Valldigna por intercambiarse inocentes escritos en árabe y la persistencia, durante la primera mitad del s. XVI del toponimo Alfandeq.

del establecimiento monástico de la Valldigna. Una fecha tan tardía como finales del s. XV cuando ya en el resto del Regne de Valencia la voz de los almuédanos no podia llamar a la oración, viene a confirmarnos que la actividad proselitista de los cistercienses de la Valldigna fue muy débil, reducièndose a medidas de orden público como la prohibición de los juegos de azar, la regulación del consumo de vino y del ejercicio de la prostitución o la prohibicion de dirigirse a las mujeres con galanterías subidas de tono. Su construcción constituye tanto un indicio de tolerancia como una prueba del interés del abadiazgo en no disipar la paz entre unos siervos tan laboriosos y sumisos.

Todo cambia con los excesos perpetrados por els agermanats contra los mudéjares obligados por la fuerza a convertirse en cristianos. El señorío de la Valldigna no podía sustraerse a la presión social que propugnaba la unidad religiosa, presión que condujo a Carlos I a convalidar en 1525 los bautismos forzados y masivos de los mudéjares valencianos a manos dels agermanats en 1521. Lo que empezó por ser una contestación política de los gremios urbanos frente al monopolio de la nobleza en el ejercicio del poder municipal, acabó por convertirse en una revuelta social al personalizar en los siervos mudéjares el odio antiseñorial.

La nueva situacion, condenaba a los mudéjares a constituir un cuerpo extraño en medio de una sociedad cada vez mas influida por la intransigencia religiosa que fomenta 1a Inquisicion. E1 paso de mudéjar, mudadjdjan, (domesticado, sometido a tributo) a "cristiano nuevo", a morisco, o, lo que es lo mismo, el paso del Islam tolerado al Islam prohibido, provocado por el citado decreto imperial, significó un punto de inflexión en las relaciones entre las dos comunidades. La convivencia, o la coexistencia, hasta entonces sin incidentes traumáticos, se enrareció progresivamente y los cristianos nuevos, cada vez mas indefensos y marginados, tuvieron que enfrentarse al rigor de la Inquisición y a la fobia colectiva.

y del Trienio, retuvo en sus manos el control de la Valldigna, como lo prueban las espectaculares rentas monacales bien entrado ya el s. XIX.

La vigencia del señorío es pues, lo que imprime continuidad al pasado de la Valldigna tras el trauma demográfico de 1609. Una continuidad interrumpida en el atardecer del 26 de julio de 1835 cuando el viento de Simat esparcía por todos los rincones de la Valldigna los ecos entremezclados del llanto de los monjes y del alborozo de los ya exsiervos desbordados por la alegría de verse definitivamellte liberados de la imponente sombra del Monasterio

LA MEZQUITA

La Mezquita de la Xara, hoy ermita de Sta Ana, unico ejemplo en toda la Comunidad Valenciana de conservacion íntegra del muro de la qibla, constituye junto a la toponimia, el testimonio mas significativo del fuerte enraizamiento del lslam entre la población de la Valldigna [1] durante los tres primeros siglos de historia monástica, ss XlV, XV y XVI. De acuerdo con los trabajos arqueológicos llevados a cabo a finales de los ochenta, el edificio data de finales del siglo XV o principios del s. XVI. Las rotundas conclusiones de estos trabajos se basan en las informaciones suministradas por las cartas murarias (fragmentos de cerámicas, sistemas de cimentación) y en la disposición de la escalera del minarete al carecer de base para prolongarla por encima del tejado, apunta a una construcción posterior a la prohibición de la llamada del almuédano en 1403. De hecho, la escalera es coetánea de los muros perimetrales de la mezquita.

El dictamen de los arqueológos hacía insostenible la afirmación de algunos historiadores, quienes hacían remontar el origen de la "desorientada" mezquita a mediados del siglo XII. Se trata, pues, de una construcción en pleno poder político cristiano, dos siglos después

Tras la expulsión de los moriscos se publicó una Carta Puebla que, con lentitud, contribuyó a paliar el vacío demográfico, sin que la nueva poblacion "cristiana" lograra liberarse de su condición servil, pese al deterioro general de las instituciones señoriales, producto de la concepción absolutista de la Monarquía a lo largo del s. XVII. En efecto, el Señorío o Abadiazgo de la Valldigna fue capaz de resistir al reto de nuevas ideologías, de graves adversidades económicas (el impacto del azúcar americano), y de situaciones militares criticas, recurriendo a concesiones (permitir que los municipios de la Valldigna celebratan un mercado semanal, ampliar el area de pastoreo, disminuir la tributación de algunas cosechas o no aplicarla en las hortalizas destinadas al consumo familiar) que apenas aligeraban la dureza de las claúsulas de la Carta Puebla.

Tres siglos de relación con la población mudéjar, con escasa fuerza para romper con las imposiciones vasalláticas, modelaron un rígida mentalidad señorial entre los cistercienses de la Valldigna, puesta de manifiesto en las condiciones pactadas para el asentamiento de los nuevos pobladores. Bàsicamente las exigencias materiales de la Carta Puebla de 1609 apenas difieren de las contenidas en el documento fundacional de 1298, independientemente de que en el ambito jurisdiccional la Valldigna se viera afectada por el proceso de deterioro de las instituciones feudades como resultado del progresivo "autoritarismo" y "absolutismo"de la monarquía. Una prueba de esta dureza la suministra la lentitud del proceso repoblador y la participación de nuestros campesinos en la 2a Germanía de finales del s. XVII.

Como en el resto de España, el Reformismo de los Ilustrados, el ejemplo revolucionario francés o los primeros ensayos constitucionalistas habían de modelar una nueva mentalidad entre los valldignences, quienes se verían impulsados a reclamar una mayor participación en la administración del territorio. Pese a ello, el Monasterio, exceptuados los dos breves paréntesis liberales de Cadiz

El ejercicio de la autoridad civil hizo que los monjes se desentiendan de lo que se supone era la tarea primordial, la cristianización del territorio. Todo apunta hacía un proselitismo no obsesivo. Diríase que la Monarquía y el señorío de la Valldigna se intercambian servicios al margen de la cristianización. La Corona no exige responsabilidades por el fracaso del apostolado monástico con tal de que los Abades se mantengan atentos a contribuir a las necesidades materiales de la Corona. No es casual que cada vez que los Reyes emprenden un proyecto exterior, la Valldigna contribuya a su financiación con mayores aportaciones que el resto de señoríos del reino, del mismo modo que hace gala de una inaudita prodigalidad cada vez que acceden al matrimonio los príncipes o infantas....Por su parte, los vasallos, de mayoría mudéjar, no mostraron ningun signo de insumisión al no avanzar el proceso de aculturación..

El establecimiento cisterciense de la Valldigna es, antes que un monasterio, un centro de poder, preocupado, por tanto, en acallar los centros de rechazo al ejercicio de su autoridad. LA CONDICION DE SEÑORES PREVALECE SOBRE LA DE ABADES. Ademas, la Orden ya habia mostrado su capacidad para rentabilizar las tierras, haciendo del Císter el mayor latifundista de Europa. Parece lógico que los monjes descuidaran la acción evangelizadora, conscientes de que cualquier proyecto asimilador implicaba una política coercitiva que habría puesto en peligro la lucrativa paz del valle despertando anticipadamente los deseos masivos de emigración.

Ante la amenaza de ver vaciado el territorio de una mano de obra extremadamente sumisa, laboriosa y barata, el Monasterio actuó como un señor territorial mas, alineándose con el resto de señores de moriscos en su presión tenaz ante la Corona para demorar la solución que ya se vislumbraba desde 1580, cuando fracasada la via moderada de asimilación, se planteó desde todos los estamentos la necesidad de la expulsión.

capacidad jurisdiccional sobre los habitantes del valle, mudéjares en su mayoría. Meses después, doce monjes y un abad, como era preceptivo en la orden del Císter, ejecutaron el contenido del documento fundacional utilizando las precarias instalaciones de un zoco en las proximidades de la alquería de Simat. Así se inició la "Historia del Señorío de la Valldigna", historia que se prolongará durante mas de cinco siglos, concretamente hasta julio de 1835 cuando los decretos de Desamortización provocaron la exclaustración de los monjes y la incorporación del Señorío a la Corona.

La expansión del Monasterio por algunas comarcas del Antic Regne de València (tierras de la Ribera, l`Horta, la Plana i la Vall d'Albaida) no ha de inducirnos a engaño a diferencia de las grandes fundaciones de Castilla y Aragón que recibían copiosas donaciones señoriales y particulares, en la Valldígna son prácticamente inexistentes, tanto por el anacronismo de la fundación del Monasterio - siglo y medio despuès de la creación de los grandes establecimientos del Císter en el resto de España, cuando ya se habia iniciado el resurgimiento de las ciudades y declinaban las "donatio pro animas" - como por el predominio en la Valldigna de la población mudejar, cuyas disposiciones testamentarias van destinadas al engrandecimiento del *"waqf"*

No es la expansión territorial, Sino el inmenso poder acumulado, lo que convierte al señorío de la Valldigna en un caso excepcional que no admite comparación con los otros señoríos tanto eclesiásticos como nobiliarios. Sería interesante abordar un estudio de derecho comparado, centrándonos en la capacidad jurisdiccional de la Valldigna y de sus dos vecinos más poderosos, la ciudad de Jativa, bajo la autoridad real, y el ducado de Gandia sin duda el señorío laico con mayor numero de siervos de la Valencia bajomedieval (en todos los contenciosos derivados de la relacion de vecindad, la Valldigna siempre salió triunfante).

innovaciones en el sistema organizativo 1) el règimen dc filiaciones, que rechazaba tanto la independencia del monasterio benedictino como la centralización cluniacense, y 2) la explotación directa de la tierra através del establecimiento de granjas y de la creación de un nuevo estamento en el seno de la comunidad monástica, el de los monjes conversos.

Doscientos años despues de la fundación de Citeaux, la Orden contaba con mas de 1000 monasterios (350 pertenecian al monacato femenino). El ritmo de crecimiento fue muy desigual muy lento hasta 1120 (las 4 primeras fundaciones de la Casa Madre, las protoabadías de la Ferté, Pontigny, Clairvaux y Morimond) muy acelerado entre 1150, cuando se pasa de 40 a 320 establecimientos, continuo entre 1150 y 1240, y muy lento en los últimos 60 años del s. XIII. A partir de 1300 sólo se producen fundaciones esporádicas

El proceso de expansión del cister es inseparable de la actividad de su figura mas carismática, el primer abad de Clairvaux, S. Bernardo, quien desplegó una oratoria que seducía a las masas (su sermón en Vezelay el año 1146 constituyó el preámbulo de la 2a Cruzada), mostrando además un riguroso conocimiento de la realidad de su tiempo que hizo de él un reputado mediador de los grandes conflictos que surgían en el entorno de pontífices, monarcas y señores. Con el impulso de S. Bernardo, la Orden del Císter se erigió en uno de los mas poderosos agentes de la construcción de Europa, al esparcirse sus establecimientos desde el Báltico al Mediterraneo y desde Portugal hasta Siria. El monasterio de la Valldigna marca el límite meridional de esta expansión.

EL MONASTERIO Y EL SEÑORIO DE LA VALLDIGNA

En marzo de 1298 Jaime II cedió la Vall de Alfandec, topónimo árabe, "al-khandaq", al abad de Stes Creus e impuso un nuevo nombre al territorio, Valldigna. El nuevo monasterio gozaría de la

A menos de 500 metros del establecimiento cisterciense la mezquita de la Xara se constituye en uno de los escasísimos ejemplos conservados de arquitectura religiosa de toda la Corona de Aragón, y probablemente la más tardía.Tanto que su construcción no hubiera podido efectuarse sin la tolerancia, sin la sombra protectora del señor, del monsterio. Aunque se tratara de una tolerancia interesada.

EL CISTER Y SU EXPANSION

La orden del Císter fue fundada en marzo de 1098, cuando un reducido grupo de monjes cluniacenses de Molesmes, dirigido por su abad Roberto, decidió instalarse en un lugar más retirado, eligiendo la llanura pantanosa de Citeaux, al S. De Dijon, para levantar la primera fundación del orden, el humilde monasterio de Citeaux.

Citeaux era el escenario que convenía al ideal de vida monàstica predicado por la Regla de S. Benito, cuya pureza original no había sido preservada por la Reforma de Cluny en el s. X frente a la ostentación mundana de que hacían gala sus abades, frente a la dependencia material de los monasterios respecto de los señores feudales, frente a la profusión de elementos superfluos en la liturgia (el sonido innecesario de las campanas, el canto prolongado de los himnos, el uso conspicuo de los adornos), la nueva comunidad de Citeaux reclama la austeridad, el rechazo a depender de los recursos señoriales y la eliminación de pinturas, esculturas y vidrieras en las iglesias, destinadas exclusivamente a la oración.

En 1119 el abad de Citeaux, Esteban Harding, completó la elaboración de "La Carta de la Unanimidad y de la Caridad", verdadera constitución de la Orden. En ella se definen los fundaméntos de la Reforma y se regulan las dos grandes

LA MEZQUITA DE LA XARA, UN ESPACIO ISLÁMICO A LA SOMBRA DE UN MONASTERIO

(مسجد الشّعْراء، فضاء إسلامي في ظل دير مسيحي)

Daniel Cuñat Serra

EL MONASTERIO que ofrece su somhra a un espacio islámico es un monasterio fundado por la orden del Císter el año 1298 en la Valldigna, pequeña comarca (aproximadamente 30 Km) de las tierras entrales de la Comunidád Valenciana, a unos 60 Km al sur de la ciudad de Valencia.

La fundación fue fruto de una decisión de Jaime II, nieto de Jaime I el Conquistador y rey de la Corona de Aragón durante casi cuarenta años (1291 1327). Se proponía con ello proseguir "más allá del río Júcar" el proceso de cristianización iniciado por su abuelo en 1238, recurriendo a la orden del Císter, experta en rendir extraordinarios servicios a las monarquías europeas, incluídas la Corona de Aragón y el Reino de Castilla.

Lo singular de la comunidad cisterciense de la Valldigna es que asume el poder sobre los pobladores del territorio, mayoritariamente musulmanes, de tal forma que el monasterio es, ante todo, el señorio de la Valldigna

El ESPACIO ISLÁMICO que vive literalmente a la sombra del monasterio es la Antigua Mezquita de la Xara, una modestísima construcción (9 x 11 metros) de la última fase mudéjar, finales del s. XV o principios del s. XVI.

المناقشات

1- جعفر ابن الحاج السُّلَمي

أسجل في البدء شكري وتقديري لأكاديمية المملكة المغربية على اهتمامها بتنظيم ندوات علْمية مخصصة للأندلسيّين المغاربة. وعلى حدّ علْمي، كانت الأكاديمية سبّاقة إلى هذا الأمر في المغرب. فأنا لا أعلم بانعقاد ندوة خارج دائرة الأكاديمية في هذا الموضوع. أسجّل هذا الشكر، وهذا التقدير، وهذا السبق بمداد الاعتزاز للأكاديمية، في شخص أمين سرّها الدائم ،الأستاذ النّطاسيّ الكريم، السيد عبد اللطيف بربيش، وفي أشخاص أعضاء لجانها العلْمية الكرام، وفي عهد راعيها الكريم، جلالة محمد السادس وفّقه الله.

وأتدخل الآن بصفتين اثنتين صفة المغربي ذي الأصل الأندلسي، الذي لم يفقد ذكرى الهجرة ومتاعبها، والذي جاء إلى هذه الندوة ليستفيد من أبحاث السادة العلماء والباحثين في موضوع الأندلسيين المغاربة. وأتدخل كذلك بصفة الأستاذ الباحث، الذي بحث وما يزال في التراث الأندلسي المغربي، ونشر أشياء لا بأس بها من تراث هؤلاء الأندلسيّين المغاربة.

إن أول ما يمكنني أن ألاحظه، بل إن أبرز ما يثيرني وأنا أقرأ إسم الندوة، هو عبارة «الموريسكيّون في المغرب». لقد سبق لي في الدورة الأولى من هذه الندوة، وفي هذه القاعة نفسها أن اعترضت على استعمال كلمة «موريسكيّين» بيننا، وقد اعترض عليها كذلك ذ. عبد العزيز بنعبد الله فيما أذكر وغيره. ذلك أن هذه الكلمة كلمة أعجمية إسبانية، استعملها الإسبانيون للدلالة على الأندلسيين المنصرين المتبقّين في الأندلس بعد ذهاب دولة الإسلام منها. وقد استعملوها في سياق تحقيري خالص، ومن اللغة الإسبانية انتشرت هذه الكلمة، في اللغات الأوروبية، ثم دخلت إلى العربية في صور متعدّدة الموريسكيون، المواركة، الموريسكوس، إلخ. أما نحن المغاربة، أندلسيي الأصل وغير أندلسيي الأصل، فلم نستعمل قطّ هذه

الكلمة مدة خمسة قرون من تاريخنا ومن تراثنا، إنما نستعمل كلمات مثل أندلس، أهل الأندلس، الأندلسيين، مُهاجِرة الأندلس، إلخ، للدلالة على من رحل من الأندلس ومن بقي في الأندلس، وهذا ما تشهد به كتب التراث والوثائق. أما المسلمون الأندلسيّون المنصّرون في الأندلس في القرن العاشر الهجري، السادس عشر الميلادي، فكانوا يسمّون أنفسهم أندلسيّين وأهل الأندلس، والمسلمين الغُرباء، وما إلى هذا حين يكتبون بالعربية وهم مطمئنون. إن إشكال التسمية مهم جداً لأنه لا يُعقل أن يسمّي شعب ما نفسه بما يكره ويستقبح، ولا يعقل أن يغيّر اسمه بجرة قلم، أو تقليداً للغرب الذي خلق هذه الكلمة بدلالاتها العنصرية والتحقيرية ﴿وَلاَ تَنَابَزُوا بِالأَلْقَاب وَلاَ يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً بِئْسَ الاسْمُ الفُسُوقُ بَعْدَ الايمَانِ﴾. أفلَم يكف أهل الأندلس أنهم غُيِّر دينهم وهُويّتهم كرهاً، وطردوا من أرضهم في أبشع صورة عرفها التاريخ حتى يحرموا كذلك، وبعد خمسة قرون من الحق في الاحتفاظ باسمهم التاريخيّ والشريف. لقد قامت جامعات فرنسية بإعداد ندوات حول من يسمّيهم الإسبانيّون «موريسكيّين»، فكان مبدأ البحث، هو إشكال التسمية، وهل يجوز إطلاق هذا الإسم الذي اخترعه جلاّدوهم عليهم؟ إن الإسم يعكس الهُوية، وفي تبديل الإسم تبديل للهُوية وللمفهوم.

لقد اعترضنا على كلمة «الموريسكيّين» في الدورة الأولى من هذه الندوة، وها نحن نسجّل اعتراضنا مرة أخرى، وها نحن نطالب باستعمال الإسم التراثيّ العربيّ، وإقصاء الإسم الإسباني من الاستعمال في البحث العلْمي المغربي.

الشيء الثاني اللاّفت للانتباه، أن هذه الدورة مثل الدورة الأولى، تتحدّث عن «موريسكيّين في المغرب»، أي تقترح موضوعاً للبحث العلْمي تاريخ الأندلسيّين المتأخرين «الغرباء»، حينما وصلوا إلى المغرب مهاجرين، جماعات وفرادى، وشكّلوا جزءاً من المجتمع المغربيّ الذي استقبلهم

وصارت ثقافتهم جزءاً من ثقافة الإنسان المغربي. لكن، عندما نطالع برنامج الندوة، نجد أن أكثر الأبحاث المقدّمة، لا علاقة لها بالمغرب، بل علاقتها بإسبانيا أكثربكثير من علاقتها بالمغرب، فهي تتحدّث عن الأندلسيين «الغرباء»، وأحوالهم وقضاياهم، وهم ما يزالون مكبوتين في أرضهم، وقبل أن يهاجروا، وهذا الموضوع قد قُتل بحثاً في إسبانيا وفرنسا وتونس وهولندة وغيرها من البلاد، وقد وصلت الأعمال المنجزة في هذا الخصوص إلى عشرات الآلاف. إن النقص الذي نعاني منه ليس في الدراسات المتعلقة بالأندلسيّين وهم في أرضهم، بل في الدراسات المتعلقة بهم، وقد رحلوا عنها كرهاً، وكيفية اندماجهم في البلدان المستقبلة لهم وفي ثقافتها وهم خارج أرضهم الأصلية. وهذا ما لم نجد منه إلاّ القليل في برنامج هذه الندوة، وهذا هو ما شدّدنا لأجله الرحال. لكن ما لا يدرك كلّه لا يترك كلّه، والقليل الذي وجدناه فيه خير كثير، وفائدة كثيرة وجدّة وجديّة. وعسى أن تنبّه هذه الندوة بعض الباحثين الجادّين إلى تحويل مجهوداتهم لبحث موضوع الأندلسيّين في المغرب، وهذه المهمّة يجب ألاّ ننتظر من الإسبانيّين أن يقوموا بها، بل هي مسؤوليّتنا نحن.

2- الحسين بوزينب

سؤال للأستاذ عبد الوهاب بنمنصور

يتعلق الأمر بالتباس يتعلق بالعبارة الواردة في ص7 من مداخلتكم عندما تقولون معاهدة لتسليم المدينة تضمنت شروطاً عديدة بلغت 56 مادة نقضها الملكان الكاثوليكيان مادة مادة بعد استيلائهم على المدينة في اليوم الثاني من يناير 1492.

3- أحمد الغرندي

البعد المغربي في السياسة الإسبانية تجاه الموريسكيين منذ عهد المنصور الذهبي إلى أية سنة ؟

نعرف جميعا أنه في السنوات الأخيرة تقدم عاهل إسبانيا الملك خوان كارلوس الأول بمدينة TOLEDO الإسبانية، تقدم بطلب المسامحة على المعاملة التي عومل بها SEFARDIES ، وهم الآن يعاملون معاملة جيدة مع منحهم امتيازات عديدة سؤالي ماهي السياسة الإسبانية الحالية تجاه الموريسكيين ؟

4- ميلودة الحسناوي

في البداية أشكر الأساتذة الأفاضل الذين استمتعنا بمداخلاتهم هذا الصباح. كلمتي ليست استفساراً وإنما هي إضافة لما ورد في مداخلة الأستاذ المحترم عبد الوهاب بن منصور حول ما يقع فيه المستشرقون من الخلط في كتاباتهم حول السلاطين النصريين. فشارل بروسلار هو واحد من بين المؤرخين الأجانب الكثيرين الذين وقعوا فيه، بل إنه لم تسلم منه حتى بعض الكتابات العربية، وقد مس هذا الخلط الملوك النصريين الذين تناوبوا على حكم غرناطة بعد محمد السابع، فمزجوا بين محمد الثامن والتاسع والعاشر ويوسف الخامس وأبي الوليد إسماعيل، إلى حد أنهم جعلوا الحاكمين الأخيرين شخصاً واحداً لم يفرق بينهما إلاّ نص «جنة الرضى في التسليم لما قدر الله وقضى» لأبي يحيى بن عاصم. وأظن أن هذا المزج ناتج بالدرجة الأولى عن طريقة نسخ وإدخال الأسماء العربية إلى المدونات القشتالية، وعن تشابه أسماء وكنى الملوك، مما أدى بهم إلى التمييز بينهم بالألقاب،

فوضعوا لكل ملك لقبا، الصغير، الأيسر، الأصغر، الزغل، وحتى بتلك الألقاب لم يتوصلوا للتفريق بينهم إلا مؤخراً واعتماداً على الأرشيفات المحلية، وبعد نشر نصوص عربية مختلفة المضامين سلطت الكثير من الأضواء على تلك المرحلة. من هنا نؤكد قيمة المصادر العربية التي تؤرخ للمرحلة على قلتها ودورها الحاسم في تصحيح بعض الأخطاء التي وقع فيها المؤرخون الأجانب.

5- الحسين بوزينب

لاحظت على الأستاذ القدوري اعتماده كتاب محمد بركّاش الذي لا يخضع للمواصفات العلمية الأساسية حتى يتخذ كمرجع للبحث والاستشهاد، وذلك لأن صاحبه لم يتمرس مع أبجديات البحث العلمي النزيه، وكل ما أراد من هذا الكتاب هو تقديم تاريخ أمجاد عائلته رغم غياب الوثائق المدونة لهذه الأمجاد. وقد حاول الربط بين عائلتي بركاش في المغرب واسبانيا بشكل فيه تعسف على الأمور لا يستند على أسس علمية متعارف عليها.

لاحظت على الأستاذة ميلودة الحسناوي اعتبارها الأستاذ عبد الجليل التميمي أباً للدراسات الموريسكية في الوطن العربي. وقد بينتُ لها أن الأستاذ المذكور قد نظم لقاءات كثيرة حول موضوع المورسكيين غير أن أبحاثه الشخصية في موضوع المورسكيين قليلة جدا ولا أظن أن الأستاذ المذكور يعتبر نفسه أبا للدراسات المورسكية في الوطن العربي.

تدخلت الباحثة الإسبانية لويسا ايسابيل ألبراث دا طوليدو لتصحيح ما اعتبرته خلطا وقعت فيه عندما أشرت الى (تواجد الشيخ المامون بقرمونة مع 240 مغربي ويحيط به المورسكيون من كل جانب...). لقد ضنت الباحثة

المذكورة أنه وقع لدي خلط بين الشيخ المامون ومولاي الشيخ ابن المتوكل الذي كان قد التجأ في السابق إلى نفس المدينة. وقد بينت للباحثة أن الأمر هنا يتعلق فعلا بالشيخ المامون واعتمدت في ذلك على رسالة جدها دوق مدينة سيدونيا المذكورة في البحث. ثم ان تاريخ الوثيقة ومحتواها لا يدعان المجال لأي شك.

6- محمد حجّي

تدخل الأستاذ جعفر ابن الحاج السُّلَمي مستشكلاً ما ورد في عرضي عن قوة الأندلسيين المهاجرين إلى تطوان، متسائلاً كيف أمكنهم في ظرف وجيز، بالرغم ممّا عُرفوا به في الأندلس من ضعف ومطاردة وتقتيل من قبل المسيحيين، أن يتحولوا إلى قوة برية تهاجم المحتلّين بمدن سبتة وطنجة وأصيلا، وبحرية تهاجم السفن والسواحل الإسبانية ؟ وكيف يعقل وجود هؤلاء الآلاف من الأسرى المسيحيين بتطوان عندما زارها الحسن الوزان في مطلع القرن العاشر (16م) ؟

أجيبه بأن المهاجرين الأندلسيين عندما كانوا يعيشون في مملكة غرناطة كانوا يواجهون على الساحة عدواً يفوقهم عدداً وعدة، ويزحف عليهم في صفوف متراصة، في حين كان قادة المسلمين وحماتهم من ملوك بني نصرفي غاية الفرقة والتخاذل، والناس تبعاً لذلك طوائف متناحرة يتقاتلون فيما بينهم ويضيق العدو عليهم الخناق يوماً بعد يوم حتى أصبحوا لا يرون النجاة إلاّ في الفرار والعبور إلى العدوة المغربية. وقد تغير الوضع حين تجمع المهاجرون الأندلسيون بعد أن جدّدوا مدينة تطوان واستوطنوها ولقوا كل دعم وترحاب من السلطات المغربية، ومن الطبيعي أن يتنامى حماسهم وتتجه

أنظارهم إلى الانتقام من أعدائهم المسيحيين الذين ألجؤوهم إلى الخروج من ديارهم بغير حق إلاّ أن يقولوا ربنا الله. وفيهم أبطال مثل علي المنظري، علاوة على من انضم إليهم من مجاهدي شفشاون والقبائل المجاورة، وقد تغير الوضع كذلك بالنسبة للمسيحيين المحتلين لسبتة وطنجة وأصيلا، إذ عددهم قليل نسبياً وهم معزولون عن قومهم في موقف دفاع متحصنون بالأسوار، وكذلك سكان الثغور الإسبانية الذين كانوا يؤخذون على غرة في هجمات ليلية في الغالب تعرضهم لأخطر العواقب

وتدخل الأستاذ الحسين بوزينب معقباً على ما جاء في عرضي من استهجان تكريس لمز الأندلسيين المغلوبين على أمرهم والمهاجرين أو المهجّرين ووصفهم بالموريسكيين، موضحاً أن لقب الموريسكيين لم يعد يحمل معنى قدحيّاً، وإنما صار علماً لطائفة معيّنة من الأندلسيين أصبحت أخبارهم ووثائقهم تدرس كعلْم مستقل يسترعي اهتمام كثير من الباحثين المتخصّصين.

أعقب على ما قاله بأن ميدان البحث واسع يدخل فيه الأندلسيون وغيرهم، لكن الشائن هو اللقب الأعجمي الذي يعني (العرب الأصاغر) وما هم بأصاغر، وإنما رماهم الدهر بعدوّ حاقد متكبّر لم يتحرج عن ارتكاب أفظع الجرائم الوحشية في حقّهم بشهادة الجميع، فينبغي أن يتناول الباحثون مأساتهم بإنصاف ويسمّوهم بما كانوا يسمون به أنفسهم أهل أندلس أو أهل غرناطة. لا بما كان يسمّيهم خصومهم الطاغون.

وكتعقيب على عرض الأستاذ محمد بنشريفة في موضوع محمد الأندلسي المراكشي، حيث ذهب إلى تأييد آراء الذين ندّدوا بالشيخ الأندلسي لانتحاله آراء ابن حزم ووقوعه في أعراض الأئمة وبخاصة الإمام مالك، مستبعداً ما جاء في كتابي «الحركة الفكرية» من اعتبار هذا الأندلسي «من جهابذة

علماء عصره تضلعاً في العلوم الشرعية ومشاركة في العلوم العقلية». أقول إن محمداً الأندلسي استطاع أن يبدي نظريات دينية وينشرها في حاضرة الدولة مراكش في وقت كانت هذه المدينة مليئة بالفقهاء والمتكلّمين وشيوخ التصوف ويناظرهم ويحاورهم متبرئاً من البدعة ومظهراً التشبت بالسنة، وأن أكثر ما أُوخذ به تهجمه على فقهاء المالكية حتى إنه كان يسمي أصحابه بالمحمديين وغيرهم بالمالكيين. ونحن نعلم جمود فكر فقهاء هذا العصر وتشبتهم بأقوال مالك وأصحابه والفقهاء السابقين معرضين عن الاجتهاد. أفلا يكون الرجل من دعاة الاجتهاد ؟ وأن ما شُنع عليه لا يخلو من تلفيق وتهويل، خصوصاً وقد أثنى على علمه وقوة إدراكه معاصره محمد ابن عسكر الشفشاوني في كتابه «دوحة الناشر» بعد أن لقيه مراراً وحادثه فيما ينسب إليه من بدع.

7- علي بن أحمد الريسوني

أعتقد أن موضوع هذه الندوة يكتسي أهمية كبيرة إذ يربط العدوتين ويصلنا بالماضي الذي عاشته بلادنا منذ قرون وأثناء وبعد النزوح الأندلسي المؤلم، وفي مايلي بعض ما عنَّ لي من ملاحظات

1) أسجل أن حرارة الروح الإسلامية الأندلسية القديمة مازالت متقدة إلى الآن في نفوس كثير من أحفاد سكان الفردوس المفقود، ولا أدل على ذلك من هذه الظاهرة الصحية الإيجابية المتمثلة في العودة إلى الإسلام واعتناقه من طرف المئات من رجالات ونساء الأندلس، فقد تجمع منهم حشر كبير في مظاهرات سلمية حضارية أمام قصر بلدية غرناطة للمطالبة بإعادة الاعتبار للمقبرة الإسلامية، لم تنقطع أبداً من الكيان الأندلسي.

2) أسجل بأسف أن موضوع الأستاذ الجليل الدكتور محمد حجي والخاص بالجهاد البحري لم يتطرق بتاتاً إلى الدور الذي لعبته قلعة ترغة بشاطئ شفشاون في هذا الجهاد كما لم يتطرق إلى بقية ثغور شاطئ إقليم شفشاون وما ساهمت به في هذا الصدد، مع العلم أن كلاً من مولاي إبراهيم نجل مولاي علي بن راشد وأخته السيدة الحرة كان لهما قدم راسخ في مكافحة الأعداء ومقارعتهم، خاصة هذه الأميرة المجاهدة التي تتحدث المصادر الأجنبية عن الحملات البحرية الموفقة التي قادتها وعن الأسطول الذي كانت تستخدمه والسفن الحربية التي كانت تحمي بها هذه الشواطئ من كل خطر خارجي. لذلك لا ينبغي أن يقع إغفال شفشاون عندما يتم الحديث عن الجهاد بنوعيه البري والبحري، فإنها ما أسست سنة 876هـ موافق 1471م إلا للجهاد في سبيل الله.

أما فيما يخص الدوقة Luisa Isabel Alvares de Toledo والعرض الذي ألقته هذا المساء، فهذه الدوقة سبق لي أن تناولت الكلمة عنها في تدخلي في الحلقة الأولى من هذه الندوة وفي هذه القاعة سنة 1997 حيث نبهت إلى أهمية أرشيفها الغني بالمستندات والوثائق ونبهت إلى أن من ضمن هذه الوثائق ما استنتجت منه تلك الباحثة نظريتها المثيرة حول الوجود الإسلامي المغربي والأندلسي في العالم الجديد قبل أن يصل إليه كريستوف كولومبوس 1492. هذه النظرية التي تناولتها أمامنا قبل قليل والتي ألفت عنها كتابها القيم « من إفريقيا إلى أمريكا » وأضيف الآن أن أرشيف الباحثة يحتوي على ما يناهز ستة ملايين وثيقة مضمنة في 6314 ملفا ومفهرسة في كشاف أشرفت على انجازه بنفسها فخرج في 19 مجلدا، فهذه الذخيرة أرجو أن تقوم الجهات المعنية في بلادنا بـ (زيارتها للاستفادة منها) بايفاد لجنة علمية متخصصة تقوم بزيارتها والاطلاع عليها وملامستها للاستفادة منها فيما يتعلق بالمغرب. وقد حدثتني الدوقة أن لديها مئات من الوثائق

الدبلوماسية المرتبطة بالمغرب وعدداً كبيراً من المستندات المختلفة التي لا شك ستفيدني في تسليط الأضواء على تاريخ الشواطئ والثغور المغربية في فترات مختلفة من القرن 15 و16 و17 كما ستفيد في تاريخ الأندلسيين المعروفين بالموريسكوس. فعار أن لا تهتم الجهات المعنية في المغرب بالأرشيف المشار إليه مع أن الدوقة أبدت استعداداً للتعاون في سبيل استغلاله لإعادة كتابة جوانب من التاريخ المغربي في حين أن جهة علمية في الأسكندرية على وشك القيام باستنساخ الأرشيف أو جزء منه، فما بالنا لا نعطي العناية الكافية لهذا الموضوع ولموضوع ترجمة كتابها المومى إليه إلى العربية.

8- جعفر ابن الحاج السُّلمي

أشكر الأكاديمية من جديد على ما بذلته من جهود لتنظيم هذه الندوة، وأزكّي ما ذهب إليه العلاّمة المؤرّخ الكريم د. محمد حجّي في مسألة التسمية ورفضه للتسمية الأجنبية، وأهم ما يسترعي الانتباه في عرضه القيّم هو سُرعة تحوّل الأندلسيين من شعب أعزل في بلادهم مدة قرن ونيّف إلى شعب عسكري في أرض المغرب، في تطوان والرباط وغيرهما يقوم بالجهاد براً وبحراً وبكفاءة عسكرية ممتازة، تقلب المعادلات السياسية والعسكرية.

وكلامي الآن مع أخي الكريم المؤرخ المقتدر د. عبد المجيد قدّوري. لقد كان بحثه قيّماً جداً وفي صميم الموضوع، وعالجه معالجة غير مألوفة عند المؤرخين، وبسط فرضيات للبحث في غياب الوثائق التاريخية الكافية، لقد تحدّث في بحثه عن «أقلية أندلسية» استوطنت المغرب، وتساءل بناء على

هذا عن كون الأندلسيين لم ينجحوا على غرار الأقلّيات الأخرى في العالم، في تكوين «طبقة»، وتساءل كيف استطاعت هذه «الأقلية» أن تفرض ثقافتها على «الأكثرية» وتجعل منها الثقافة النموذجية في المغرب.

وأنا الآن أسأل كذلك هل كان الأندلسيّون «أقلية» في المغرب، وإلى أي حدّ كانوا أقلية، وهل كانوا أقلية عددية أم دينية أم طبقية أم ثقافية أم عرقية أم كل هذا ؟ وإلى أي حدّ كانوا متميّزين عن «الأكثرية»، العربية والبربرية ؟ إنني أرى أن الأندلسيّين المتأخرين عندما وصلوا إلى المغرب في القرنين السادس عشر، والسابع عشر الميلاديّين، لم يصلوا إلى المغرب لأول مرة، ويستوطنوه أول مرة. بل سبق لأهل الأندلس تجربة الاستيطان في المغرب، في سبتة وطنجة وشفشاون وفاس ومراكش والرباط وسلا ومنطقة الهبط وناحية فاس من البادية المغربية مدة ثمانية قرون. فتاريخ العلاقات المغربية الأندلسية هو تاريخ الهجرة من المغرب إلى الأندلس، ومن الأندلس إلى المغرب، فلعلّ هذا التاريخ الطويل من الهجرة يفسّر لماذا استطاع أهل الأندلس وهم «أقلية» مفترضة، أن يجعلوا من ثقافتهم «ثقافة نموذجية» في المغرب. وهنا يبرز سؤال آخر إلى أي حد يمكننا أن نقول إن ثقافة الأندلسيّين صارت ثقافة نموذجية في المغرب ؟.

9- أحمد بوشرب

في ما يخص مداخلة، الأستاذ عبد المجيد قدوري

أثار انتباهي استعمال المتدخل في بعض الأحيان للفظي "أندلسيين" و"موريسكيين" كما لو كانا مرادفين لا يميزهما عن بعضهما إلا أصلهما

اللغوي. وقد تكرر هذا الاستعمال خلال المناقشة حين تعرض أحد المتدخلين للاستقبال الذي خص به المغاربة مختلف أفواج الأندلسيين دون أخذ العامل الكرونولوجي بعين الاعتبار.

وقد طالبت في هذا الباب بالاقتداء بما قامت به أكاديمية المملكة المغربية منذ الندوة الأولى التي خصصتها للجالية الموريسكية بالمغرب، واعتماد المصطلحات التي تناسب الفترة المدروسة توخيا للدقة، فإذا كان لفظ "أندلسي عاما ويمكن أن يطلق على كل سكان ماكان يعرف بالأندلس، بل وحتى على السكان الحاليين لها، فإن لفظ موريسكي كما اتفق المتخصصون على استعماله، يحيل على فترة زمنية معينة، وعلى ساكنة محددة من سكان الأندلس.

وفيما يخص مداخلة الأستاذ ابن عزوز

هنأت المحاضر على عرضه الغني، وأثنيت على رجوعه للمصادر الإسبانية التي مكنته من مادة علمية غزيرة جعلته يتتبع بدقة تاريخ آل النقسيس بتطوان، وهو ما لا تسمح به مع الأسف مصادرنا المغربية. وفي هذا الإطار تمنيت لو تعطى للأرشيفات الأوربية ما تستحقه من عناية، وأن تتكون لجن ومجموعات من المتخصصين والعارفين بلغات تلك الدول التي تتضمن أرشيفاتها وثائق ومصادرتهم تاريخ بلادنا قصد جمعهاوتصنيفها وإعدادها للنشر، وذكّرت بما يزخر به الأرشيف البرتغالي مثلا، من مادة علمية كثيرة ومتنوعة تهم جوانب مختلفة من تاريخ بلادنا الداخلي وعلاقاته الدولية منذ القرن الخامس عشر ...

10- عبد المجيد القدوري

السؤال الأول هل حقا كانت القرصنة ظاهرة موريسكية بالأساس ؟

من الملاحظ أن الكتابة الأجنبية قد ربطت القرصنة بالضفة الجنوبية للبحر المتوسط عموما وببعض الموانئ خاصة طرابلس وتونس والجزائر وبسلا على الأخص. والمعروف أن القرصنة كانت ظاهرة ارتبطت بتاريخ البحار والمحيطات. ومن تم لا يمكن إلصاقها بضفة دون الأخرى أو ببلد دون آخر أو بفئة اجتماعية معينة، بل ارتبط مصيرها بالمبادلات التجارية. ولهذا وجب التمييز بين اللصوصية والقرصنة. فإذا كانت هذه الأخيرة ذات ارتباط بظروف تاريخية معينة فإن اللصوصية أو ما عرف بالحرب المباحة أمر عادي مارسها المسيحي والمسلم على السواء لأنها كانت بمثابة الحرب التي كان يشنها الفقراء ضد الأغنياء.

أما الجهاد البحري الذي تتحدث عنه المصادر الإسلامية فقد ارتبط بسيطرة الأساطيل الأوربية على المحيطات والبحار خلال العصر الحديث وبالطرد الإسباني للعناصر "الموريسكية" في مطلع القرن السابع عشر. لقد أساء هذا الطرد لمسلمي الأندلس وحتم عليهم مغادرة أوطانهم وأولادهم وممتلكاتهم. وتسبب لديهم في خلق الحقد والكراهية ضد المسيحيين بل كان سببا في خلق شعور الانتقام لدى العناصر المطرودة التي صارت تلاحق المصالح الإسبانية والأساطيل المسيحية والمحيطات والبحار إلا أن الوضعية ستتغير بالتدريج لصالح أوربا خلال القرون اللاحقة.

السؤال الثاني كيف يمكنك اعتماد كتاب محمد بركاش كمرجع تاريخي؟

استعملت كتاب محمد بركاش (عائلة في قلب التاريخ، الدار البيضاء 1998) لا كمصدرأو كمرجع لدراسة العائلات الموريسكية بالرباط ولكن

استعملته كوثيقة من أجل دراسة أوضاع بعض العائلات الرباطية انطلاقا من مقاربة داخلية. لقد حاول مؤلف الكتاب أن يتتبع سلالة برگاش ليفرز انتماء أسرته إلى سلالة بركاش المسيحية النبيلة ذات الصيت العالي خلال العصر الوسيط.

حاول المؤلف أن يظهر الأدوار التي لعبتها أسرة برگاش في تاريخ المغرب ولأجل هذا أعطى للكتاب عنوانا معبراً "ماهمني من دراسة هذا الكتاب هو الوقوف عند الشعور بالتعالي الذي كان ومازال يهيمن على سلوك أفراد بعض العائلات الأندلسية/الموريسكية التي تعرضت للطرد من إسبانيا: فهل هو شعور ناتج عن الحقد الناجم عن الأوضاع المتأزمة التي كانت تزعزع مغرب نهاية القرن السادس عشر ومطلع القرن السابع عشر؟.

أم أن العائلات الأندلسية المطرودة كانت تشعر بنوع من التفوق الحضاري تجاه باقي المغاربة ؟ أم أن الأمر كان مرتبطا بهذا وذاك ؟

11- ابن عزّوز حكيم

طرح علي سؤال حول مصداقية الوثائق الأجنبية التي اعتمدت عليها في البحث الذي قدمته ؟ وجوابي هو أنني تناولت موضوع أولاد النقسيس الذي كادت المراجع المغربية أن تكون منعدمة بخصوصه، لأن أقدم مرجع مغربي تناوله هو مخطوط "نزهة الإخوان في تاريخ تطوان" لفقيه عاش قرنين بعد انقراض أولاد النقسيس وقد اعتمد في الشيء القليل الذي جاء به على الرواية الشفوية، فكيف يحق لنا أن نتجاهل الوثائق الأجنبية التي تركها لنا الأجانب الذين زاروا تطوان في عهد أولاد النقسيس وتعاملوا معهم في قنوات مختلفة خلال قرن من الزمن وكانوا بالمدينة عندما جرت الأحداث التي يصفونها لنا

بدقة في محاضر حررها الموثقون الذين كانوا يرافقون الرهبان في عملية افتداء النصارى، خصوصا وأننا لم نجد للأحداث المذكورة أي ذكر في المصادر المغربية، فأنا أرى أنه عندما نفتقر للوثيقة المغربية فلا مفر لنا من الأخذ بعين الاعتبارالوثيقة الأجنبية، ونحمد الله على كوننا عثرنا عليها، وذلك ليس فقط بخصوص الموضوع الذي نحن بصدده، بل كذلك فيما يتعلق بتاريخ المغرب في القرن الخامس عشر والسادس عشر وأيضا في القرن السابع عشر الميلادي.

وبخصوص الملحوظة الثانية للأستاذ الفاضل الذي قال بأنه يشك شخصيا في كون أولاد النقسيس أصلهم أندلسي، أقول له إن الوثائق الأجنبية المعاصرة للأحداث تصفهم مراراً وتكراراً بعد ذكر أسمائهم بالموريسكيين أو بالأندلسيين، وإذا كان السائل الفاضل يشك في صحة ذلك فعليه أن يدلي لنا بالحجة التي تجعله يشك فيما جاءت به الوثائق الأجنبية.

12- عبد النور مفرج

استفدت كثيراً من العرض القيم الذي تقدمت به الأستاذة ميلودة الحسناوي.

أودّ أن أطرح إشكالية، وربما سأتطفل في هذا المجال، لكنني ألتمس العذر مسبقاً.

عندما نركز الأبحاث الأكاديمية على ما قام به المفكّرون والمؤرخون الأجانب في إسبانيا وفي غيرها حول المشاكل التي عرفها الموريسكيون الذين رحلوا على مراحل، نرى أنه هناك من قصر في حق هذه الفئة المسلمة، لكن ألا تلاحظون أن هناك تقصيراً من جانبنا على الصعيد الوطني ؟

والتساؤل المطروح هو هل للأكاديمية دور في إعادة إثبات الأنماط المعمارية، أو النمط المعماري العربي الإسلامي الذي كانت تتميز به هذه المدينة شفشاون ؟ نلاحظ أن الفراعنة طوقوا العالم بمعمارهم قبل آلاف السنين ولازلنا نسمع كل سنة ما يكتشف من مآثر تحت الأرض. لكن! هذه المدينة الصغيرة المتواضعة التي حباها الله بطبيعة لا بأس بها ، ألا تلاحظون أنه يجب الربط من خلالها ما بين التعمير والفكر والبحث الأكاديمي ؟ وهل التواصل مع من لهم الحل والعقد، إما على مستوى المدينة أو الجهة أو الإقليم، منتخبين كانوا أو سلطات، يُجدي في إعادة إبراز النمط المعماري لهذه المدينة ؟ لأن هذه المدينة ليست لها موارد، وكل ما هناك سياحٌ إسبان يتواردون عليها هناك من يريد أن يتذكر أن أجداده كانوا هنا في هذه المدينة أثناء الاستعمار الإسباني، وهناك من يريد أن يرى في الجهة السفلى أو الجنوبية للبحر الأبيض المتوسط فن العمارة الذي جاء به المورسكيون.

ألتمس من الأكاديمية أن تعمل على إيجاد عناصر الترابط والتواصل لإعادة العمارة إلى هذه المدينة التي تم محوها بكيفية مرتجلة وربما من طرف أشخاص لم يكونوا يعطون القيمة الضرورية لهذا الفن المعماري.

13- ربيعة حاتم

لدي نقطة إخبارية ربما ستثلج صدر السيد الغرندي. في نفس الفترة التي طُلب فيها الاعتذار لليهود في إسبانيا، كان هناك لقاء في (موتريل) نظمه الأستاذ (خوسي موريان؟) المعروف في ميدان المسرح، وكان المحور هو التعايش في إسبانيا بالنسبة للديانات أو ما يسمى بالثقافات الثلاث. فكان هناك عرب ومسلمون مثقفين وكتاب مثل إميل حبيبي وممثلون عن الطائفة اليهودية من

گليلي ؟، فطرحت مسألة الاعتذار علانية، وكان الكل متفق عليها، فهذه نقطة ليست غائبة عن الأذهان وإنما هي حاضرة عندما تكون الفرصة متاحة لها.

14- أحمد رمزي

لقد نظمت الأكاديمية حلقتين اثنتين عن الموريسكيين، وكانت فرصة لجرد مجموعة من الدراسات، طُبع جزء منها سابقاً وسيطبع الجزء الثاني إن شاء الله في كتاب لاحق. وكان كل ذلك خيراً وبركة على الأكاديمية، فقد أتيحت الفرصة للتعرف على بعض الإخوة المتخصّصين في هذا الموضوع.

لا شك أن الإخوة الباحثين بذلوا مجهودات كبيرة في الحصول على الوثائق، والمراجع والمستندات التي اعتمدوها في وضع بحوثهم. وهي جهود كثيراً ما تكون فردية، ولا حول لهم ولا عون إلاّ ما يبذلونه من مجهود شخصي. ويجب أن نحيي هذا المجهود الشخصي لأنه ناتج عن حب للعلم وعن فضيلة وضمير علْمي أولاً، ثم ضمير وطني ثانياً لأنه يتعلق بالموريسكيين أو بالأندلسيين (لا يهم المصطلح).

إن تاريخ الأندلس ينقسم قسمين قسماً نتكلم عنه باعتزاز وافتخار، وهو القسم الذي برز فيه الأندلسيون الكبار، من أطباء وفلاسفة وعلماء الدين...إلخ وهؤلاء ينتمون إلى الحضارة الإنسانية كلها لأن ابن رشد هو أندلسي حقيقة وعربي ومسلم كذلك، ولكنه ينتمي إلى الحضارة الإنسانية، وكذلك ابن حزم وابن زهر وابن باجة، وأكبر الجراحين أبوالقاسم الزهراوي صاحب «التصريف» إلخ، هؤلاء الذين لا يمكن أن يمحوا من التاريخ، وفيهم السبّاقون إلى وضع علوم لم تكن من قبل، كابن حزم في علْم مقارنة الأديان.

وفيهم من أعاد التفكير في النحو كابن مضاء في «الردّ على النحاة»، لقد كانت العبقرية الأندلسية تتميّز بخصوصيات، أولها التسامح بين الأديان السماوية والتساكن بين الأقوام.

ثم يأتي القسم الثاني من تاريخ الأندلس وهو هذه المحنة الموريسكية التي كلما عقدنا ندوة إلاّ واكتشفنا طرفاً منها جديداً. ويجدر بالمغرب الذي قاسى ممّا حل بالموريسكيين أن يكون سباقاً إلى هذه الدراسات لا سيما في هذا العصر، في بداية هذه الألفية الثالثة التي يتحدّثون فيها عن الحفاظ على الذاكرة الجماعية. هناك أقوام يقولون إن ما وقع لنا يجب ألاّ يُنسى. لا بد أن نحافظ على واجب الذاكرة Le devoir de mémoire. وهذا بالنسبة إلينا واجب وطني وإنساني وليس المقصود به الإساءة لأحد، لأنه مجموعة أحداث تاريخية وقعت في وقت مّا ولكن يجب ألاّ نُضيع أي جزء من أجزائها!

ولذلك ومن قبيل المحافظة على هذه الذاكرة يجب أن نحرس على هذه الدراسات الموريسكية، ولن يتأتى ذلك إلاّ بأن يأخذ المسؤولون في ميدان التعليم على عاتقهم، ولا أقصد الأساتذة لأنهم يشتغلون بمجهودهم الفردي، بل أقصد المسؤولين عن التعليم، إقامة مركز للدراسات الموريسكية في المغرب، فالمغرب أجدر من أي بلد آخر، وفي تطوان بالذات لأن في تطوان توجد جامعة، وحيث توجد الجامعة يكون البحث العلْمي ميسّراً. والفائدة ستعم كذلك مدينة شفشاون، فليس هناك أي حساسية، بل هناك أخوة وحميمية بين المدينتين الشقيقتين. تجمع الوثائق اللاّزمة في المركز ليكون هذا المركز صلة وصل بين المتخصّصين في الدراسات الموريسكية. وإذا كان المعنيون بهذه الدراسات يلتقون كل ثلاثة أو أربعة شهور أو عام أو عامين ويقارنون ما لديهم، فالمركز سيكون مقراً للمقارنة الدائمة والمستمرة. ثم يكون منهلاً تغترف منه المعلومات إلخ.

النقطة الثالية التي أودّ أن أشير إليها، هو أن يتم ذلك بالتنسيق مع أصدقائنا الإسبان. نريد هنا ألاّ يظن الإسبان أن هذه الدراسات موجهة للإساءة إليهم ! فهذا لا يدور في خلد أي واحد منا، وأي مغربي يحترم نفسه. إن المغاربة مشهورون بشهامتهم لقد مرّوا بمحن كثيرة في تاريخهم الطويل العريض. ونطلب هذا من الأصدقاء الإسبان، لا سيما أن إسبانيا الآن من جملة البلدان الأوروبية التي تنهج النهج الديموقراطي، ومن الديموقراطية أن نظهر التاريخ بشفافيته الكاملة وبحقيقته كما هي، وأن نشيع بين الناس هذه الأمور، ولا سيما بين أفراد الشعب الإسباني، لئلاّ يسيئوا في تصرفاتهم إلى العلاقات بين بلدينا، كما وقع أخيراً في مدينة إلْخيدو قريباً من مدينة ألمرية. وهذا من جراء الجهل بالأمور، فإذا كان الإسباني من عامة الناس يعرف العلاقات التاريخية الخاصة الموجودة بين المغرب وإسبانيا فإنه سيتصرف بروية وسيتفهم الأمور وسيحترم المغربي وسينزل من استعلائه وسيرفع من قيمة المغربي.

إن إسبانيا غنية بالوثائق والمراجع، فإذا كان في هذا المركز الذي نتمنى وجوده، تعاونٌ بين المغرب وإسبانيا حول هذا الجانب من الدراسات الموريسكية، فإن هذه الدراسات ستضيف الكثير إلى التاريخ المغربي والتاريخ الإسباني.

15- ميلودة الحسناوي

عن سؤال موجه إلي من طرف الأستاذ الحسين بوزينب حول إدراج الأستاذ عبد الجليل التميمي، من تونس، ضمن الباحثين الرواد في حقل الموريسكولوجيا، كان الجواب كالتالي

أعتبره من الرواد في هذا الميدان نظراً للأعمال التي قام وما زال يقوم بها في هذا الحقل المعرفي، ولا يعني هذا أنني أستصغر مجهودات الباحثين المغاربة المتخصّصين في هذا الميدان، فأنا على علم بها. إلا أن طبيعة الموضوع تفرض علي أن أذكره، وأنوه بمجهوداته، فهو ينظم ندوة كل سنتين حول الموضوع، وأنشأ ويدير معهداً يهتم بالدراسات الموريكسية، ونشر أعمالاً موريسكية به، كما أن مجلته غنية عن التعريف تكتب فيها كثير من الأقلام العربية والأجنبية التي تهتم بالموريسكيين لا داعي لاستحضارها جميعها في هذه الجلسة.

وعلق الأستاذ أحمد بوشرب على إشارة وردت في مداخلتي حول موريسكيي جزر الكانارياس بقوله إنه ينبغي التمييز بين موريسكيي شبه الجزيرة الإيبيرية وهؤلاء.

الجواب في البداية ذكرته بما ورد في المداخلة أثناء حديثي عنهم. فلموريسكيي الجزر خصوصيات تميزهم عن موريسكيي الأندلس خاصة من حيث أصلهم، لأنهم لا يكونون ساكنة أصلية وإنما هم في غالب الأمر مجموعة من البرابرة اقتيدوا أسارى فارتدوا عن الإسلام بنية الحصول على ظروف عيش أحسن، وبنفس السهولة يمكنهم اعتناق دينهم الأصلي من جديد والعودة إلى موطنهم الأول. مما أدى ببعض الباحثين إلى الشك في إمكانية الحديث عنهم كحديثنا عن موريسكيي شبه الجزيرة الإيبيرية (مثل دومينكيث أورتيث وبرنار فانسو في «تاريخ الموريسكيين حياة ومأساة أقلية»، ص.81-82 من النص الإسباني). وقد بدأت محاولات طردهم سنة 1530 عندما أعلن مجلس الجزيرة بأن الوجود الموريكسي يهدد أمنها. وفي 6 أبريل من سنة 1514 يعلن قائد تنريف ولاس بالماس طرد جميع الموريسكيين بهما. وأما قرار الطرد النهائي فقد شملهم كما شمل غيرهم في شبه الجزيرة بدعوى تطهير الجزر منهم، وصدر هذا القرار متأخراً سنة 1615.

16- أحمد بوشرب

أستسمحكم في العودة إلى النقطتين اللتين أشار إليهما زميلي الأستاذ بوزينب بإيجاز شديد.

النقطة الأولى تتعلق بصديقنا الأستاذ التميمي، فقط كشهادة مني، أنا حضرت المؤتمر الدولي الأول الذي عقد في مونبوليي للدراسات الموركسية، وكانت أول مفاجأة طيبة لي أننا كنا 23 فرداً متخصّصين شاركنا بعروض ومداخلات، ولكن لما رحلت الندوة بعد سنتين إلى تونس أصبحت مهرجاناً، يعني حوالي 100 من الناس (3 حافلات !) وبعد ذلك، وهنا أرد على الجانب الثاني الذي قالت عنه الأستاذة ميلودة بأن تونس أصبح مركزاً كبيراً للدراسات الموريسكية ! هذا قَتَلَ الدراسات الموريسكية ونفَّر الأساتذة المتخصّصين من حضور هذه اللقاءات، والأستاذ بوزينب يشهد على ذلك، مما جعل الأساتذة يرسلون طلبتهم فقط.

نقطة أخرى، أستسمح على قولها الأستاذ بوزينب، بودّي لو رجعت الأستاذة ميلودة إلى مقال قديم كتبه روبير ريكار، حول العلاقات بين بيربرية وجزر الكناري، يتكلم فيه عن الهجمات، لأنه لما اكتشفت الجزر الخالدات، استُغلّ فيها قصب السكر، وقد قضي على الأهالي، فالخزّان البشري للحصول على اليد العاملة هو الساحل المغربي الذي يبعد بـ 190 كلم. فهؤلاء الذين كانوا يسمون موريسكيين كانوا كلهم تقريباً من سوس أو جنوب سوس. هناك فرق كبير، لأن محكمة التفتيش تعمل حسب الخصوصية، فحين يكون عندها مسلم متنصر تسميه موريسكو، لكن في إسبانيا تسمّيه توركو (Turko).

خطاب اختتام أعمال الندوة

محمد بنشريفة

رئيس لجنة التراث

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين

حضرات السادة والسيدات، السيد عامل صاحب الجلالة، السيد رئيس المجلس البلدي، السادة المُنتخَبين، السادة أعضاء أكاديمية المملكة المغربية والسادة الخبراء.

ها نحن وصلنا بعون الله وتوفيقه إلى نهاية القسم الثاني من ندوة الموريسكيين في المغرب التي تنظم للمرة الثانية في مدينة شفشاون، ولعل أول ما نودّ الإشارة إليه في هذه الكلمة الختامية الموجزة أن الأكاديمية لأول مرة تخصّص أكثر من ندوة لموضوع واحد بعينه في البلد نفسه، ونحن نرى أن هذا يدل على أهمية الموضوع من جهة وأحقية المكان من جهة أخرى.

أما أهمية الموضوع فتبدو في جوانبه التاريخية والاجتماعية والثقافية التي تستحق أكثرمن ندوة، وقد ظهر هذا بوضوح في البحوث القيّمة التي ألقيت في هذه الندوة الثانية، فهي كلها بحوث في مواضيع لم يسبق تناولها في الندوة الأولى.

وأما أحقيته وأهليته فلا شك في أن مدينة شفشاون بأصالتها المتميّزة التي تتجلّى في مبانيها ودروبها وساحاتها وأهلها هي أنسب مكان للحديث عن الأندلسيين والموريسكيين ؛ كما أن نجاح الندوة الأولى وإقبال الناس عليها وعناية المسؤولين عناية خاصة بها حفزت الأكاديمية على تلبية الدعوة الكريمة لتنظيم هذه الندوة الثانية، وإننا لنحمد الله على أننا لقينا نفس النجاح والإقبال ، فالشكر الجزيل للسيد عامل صاحب الجلالة على إقليم شفشاون والثناء المستحق للأساتذة الباحثين المشاركين في هذه الندوة على بحوثهم القيمة والتنويه البالغ بالحاضرين الأفاضل وبتدخلاتهم المفيدة.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

مطبعة المعارف الجديدة



IMPRIMERIE EL MAARIF AL JADIDA

٨، زنقة الرخاء الحي الصناعي - الرباط

037 79 47 08/09/15 - 037 28 06 67/68 :